المورد

وإذْ بَرِحَ الخَفَاءُ .. !

الدكتور محمد البكاء

ما ان اشتد الجدل حول مدى العلاقة بين التراث والمعاصرة ، حتى خفت حدته ، وتلاشت اصداؤه ، إذ لم نعد نسمع ، كما كنا من قبل ، عن إنعقاد « ندوة » او مؤتمر « هنا اوهناك يجعل من هذه القضية الحيوية محوراً للدراسة او البحث ، حتى اصبحت المخافتة سمة بعض المعنيين من مفكرين ومثقفين ، وتخلى بعضهم الاخر غير أبه حتى بالقناعات التي اراد إبلاغها قبل وقت ليس بالبعيد .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ذلك ان دور النشر ، تخافتت أنشطتها هي الاخرى ، بعد ان افترقت سبلها ، وغاب التخطيط فيما بينها ، فانزوت حصة الجدل والنقاش عن أنشطتها ، ولم تعد تنهض ـ كما عهدناها الا بالنزر اليسير بعد ان حفلت السنوات التي خلت بحضور تعددية الطرح ، والمناقشة ، والإثراء .

إن رصد العلاقة بين التراث والمعاصرة ، يظل ميداناً رحباً ، وحضوراً فاعلاً يشد لحمة النسيج الثقافي والمعرفي للامة ، ونحن نقترب من نهاية قرن جديد ، شهد الكثير من المتغيرات ، خاصة في عقده الاخير ، إذ لم يعد الغرب الاستعماري الذي اجتهد في ترويج صفقاته الثقافية والاعلامية الضخمة ، المرجع الثقافي في المنتج الثقافي العربي بعد ان أجهد لنا الامر واتضحت اكثر من ذي قبل ، نزعته المقيتة في الهيمنة والتسلط والاستحواذ ـ اذ : « برح الخفاء ، وظهر المستور » في ظل اختلال التوازن الدولي ـ التي لم تشفع لها اجواء الياس ، والاحباط التي كان يسعى الى تكريسها في افتضاح غاياته الدنيئة ، ناهيك عن تجدد روح الجهاد ، وتجذر المنجز الحضاري والمادي والمعرفي الذي حققته الامة في عراقها المجاهد الصبور وهو يسمى بثقة واطمئنان ، بعد ان امتلك زمام امره الى ان تستكمل الامة بناء مشروعها القومي النهضوي الحضاري ، وان لا تكون حلقة متدحرجة خلف روح العصر ، لاهثة في العيش على فتاته .

إن إدامة صلة البحث بين التراث والمعاصرة ضمن الاطر الصحيحة ، وتكامل النظرة إزاء جوهر هذه القضية التي لا نختلف كثيراً فيها ، موضوع على قدر كبير من الاهمية ، لذا لابد ان يظل مستاثراً بجدية الإهتمام ، والارجحية المتقدمة ، ونحن نواجه أعداء امتنا الذين اختلفت سحناتهم ، وتعددت مساربهم ، وجمعوا بين عقد التعصب العرقي ، والنزوع الاحادي في التفسير والتعبير ، والنظر الينا كتكوين ثابت ، خاضع للوصف والتحليل والمعالجة ، ومن ثم الاحتواء في عصر بدأت روحه تضغط علينا ببصماتها الواضحة ، وان تفاوت درجاتها . ٠

إن الوقوف في مواجهة التحديات التي تداخلت أبعادها ، ولا سيما التحدي الاكبر الذي تمثل بالتألف بين القوى المضادة في منع الامة من مسايرة روح العصر ، والعدوان المستمر الذي يتعرض له العراق واقطار الامة العربية الاخرى للحيلولة دون تحقيق المنجز التنموي ، الحضاري ، وتجذره ، يقف في مقدمة سلم الاولويات التي يجب ان تحظى بالمثابرة لاقصاء الصورة المشوهة ، والمغلوطة التي جرى تعميمها بقصدية واضحة : ذلك ان الغرب ما زال يرى في اهتمام الامة بالعلم والمعرفة ، هو اهتمام آلي ، يخلو من الابداع ، والعجز عن النمو والتطور خارج ميدان الاخذ ، والإعادة ، والتجريب ، وان لا سبيل لنا للخروج من ربقة التخلف لاننا ننمو ، ونتنفس خارج محيطنا .. فالاحتكاك بالغرب هو الذي مهد لنا ان نبصر الدنيا من حولنا .. وان نخرج من وهدتنا !

وما دام الامر هكذا بصورته العدوانية الواضحة المعالم والابعاد ، فإن استنفار تراثنا ، بعد ان احتل مكانه اللائق والموضوعي في منهج ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز المجيدة . وتشخيص مديات العلاقة مع عصرنا بثقة واضحة ، بعد ان أجهزت ـ أم المعارك الخالدة ـ على مكامن الخرق التي تسلسلت الى حياتنا المعاصرة ، والتعامل معها في ضوء أسس حيوية تمتلك الحضور ، وغنى المفردات يمكن ان يصبح منبراً للائتلاف ، والاضافة ، والإثراء ، وصولاً الى تكامل الرؤية في رصد اتجاهات العلاقة بين التراث والمعاصرة ، بعيداً عن التعميم ، ومن ثم توظيف تلك العلاقة بعد رسوخ حضورها ، وصولاً الى التكاملية التي تسهم فيها كل الانشطة فالمسالة اكبر من ان تعد حكراً على نشاط دون أخر ، وهي : نقطة البدء في وعي الذات ، واليقظة الفكرية ، وبلورة صيغتها ـ بعد ان لعب الغرب دوراً في تاطير الثقافة العربية ـ لتكون رديفاً لكل متطلبات نهضة الامة وتقدمها .



يوم الفتح المبين

« فتح مكة »

عبد القادر التحافي
العميد الركن

(١١٠) سورة النصر
مدنية وهي آخر ما نزل من السور
وآياتها ٣ نزلت بعد التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون
في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره
إنه كان توابا (٣)

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، ذي القوة المتين ، والقول اليقين « ... وكانَ حقاً علينا نَصْرُ المؤمنين » . والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ، وطوبى لجُندهِ الغُرُّ الميامين ،

أما بَعْدُ :

فإن أيام الإسلام (المعارك) الحاسمة في القرآن هي يوم الفرقان (معركة بدر) ويوم التقى الجمعان (معركة أُحد) ويوم الاحزاب (معركة الخندق) ويوم الفتح المبين (فتح مكة) ويوم حُنين (معركة حنين) .

وهذه الاطروحة في التاريخ العسكري تختص بالفتح المبين ، او الفتح الاعظم أو الغزوة الحجون . والغرض منها بيان الإجراءات العسكرية المُتخذة منذ الأخذ بالانقاب وسد طرق المدينة المنورة ، الداخلية والخارجية ، بالحرس والعيون والعَسَس لتعمية الاخبار عن قريش ، ثم الانطلاق بجند الله مسيراً من العقيق حتى دخول البيت العتيق بالنصر والفتح ، وقد أسميتها بـ(يوم الفتح المبين) ايقاناً وتبركاً بقوله تعالى « « إنَّا فَتَحنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً » « وابتغاء مرضاة الله عن هذا الطرح ورجاء رحمته الواسعة عند الإصابة ، واني أستغفره وأتوب اليه من الخطأ غير المُتَعَمّد إنْ حَصَلَ في هذه الاطروحة .

وأنّ ما حصلت عليه من لُباب النقول مستمد من أربعة مصادر أصول ، هي : مغازي الواقدي والسيرة النبوية لابن هشام ومعجم ما استعجم للبكري ، والسيرة النبوية لاحمد زيني دحلان فلمؤلفيها الثناء الجميل ، أمّا بقية المراجع الحسنى المُثبتَة في الحواشي (الهوامش) فلمؤلفيها الشكر الجزيل ، فلولاهم - الأوائل والأواخر - ما كانت هذه الدراسة لتصل الى عين الناظر بهذا الشكل القريب من المأمول بتصويري الضارب في الخيال - على الرغم من تناقض الروايات وتباين الاقوال - والكمال لله وحده ، الكبير المتعالي .

صدر الكلام

صلح الحديبية ، المنعقد في السنة السادسة الهجرية ، بين المسلمين وحلفائهم من جهة وقريش وحلفائها من جهة اخرى ، كان أمَدُهُ عشرَ سنين . وفي بواكير هذه المدة ، مدة الصلح ، شرع الرسول ﷺ بتحسين العلاقات بين المسلمين وقريش بخاصة ، وسائر القبائل العربية عامة . ومن مبادراته بالاحتواء المعنوي والاقتصادي العطوف في هذه البواكير مبادرة إنقاذ قريش من مجاعة كانت تلّم بها ، فقد أصاب مكة قحط فشكا أهلها الفاقة . وكانت قريش تشتري الحبوب من اليمامة الثرية بهذا المحصول . لكن لإسلام رئيس القبيلة (ثمامة بن أثال) من بني حنيفة فقد امتنع عَن بيع وتسويق الحبوب الى قريش فتضوّروا جوعاً حتى ارسلوا الى النبي ﷺ ليقنع ثمامة ببيعهم الحبوب وتسويقها اليهم ، فقبل النبيّ الرؤوف الوساطة وأوعز بإجراء صفقات البيع ، فضلاً عن أنّ الرسول ﷺ أرسل خمس مئة دينار ذهباً وطلب أن توزع على فقراء مكة . فلما بلغ الخبر أبا سفيان قال : يريد محمد مخادعة السكان لا سيّما الفتيان . واستمر الاحتواء النبيل (فبعث الرسول ﷺ بكميات من التمور الى مكة تُسلَّم الى أبي سفيان مقايضة بالادم (الجلود المدبوغة) وكانت كاسدة بائرة آنذاك لانشغال الناس أيام القحط بالغذاء فقط ، ولا شيء يسد الحاجة مثل الحبوب والتمور طعام عامة الناس . حاول أبو سفيان رفض الصفقة غير أن الجياع اضطروه الى الانصياع . وكَمْ أحس الناس بالسعادة عندما علموا أنّ التمر الذي يأكلون أرسله محمد ﷺ والمسلمون[1]) كما أتاحت سنوات صلح الحديبية للمسلمين ان ينطلقوا بتقدم شوقي من مركز الدولة الاسلامية (المدينة المنورة) كافّة المسلمين وقاعدتهم الأمينة الى جميع الجهات المحيطة لتأمين المناطق المجاورة والمتاخمة من مناوئة ومسالمة ، مقاتلين الكفار المتغطرسين بغِلْظة مأمور بها فيما بعد .

قال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا قاتِلوا الّذين يَلُونكم مِنَ الكُفّار وليَجدوا فيكم غِلظة[2] ﴾ . علماً أنّ حال السلم كانت هي المقصد الاسمى ، اما حال الحرب فكانت الاستثناء لقوله تعالى ﴿ فإنْ انْتهوا فلا عُدْوانَ إلّا على الظالمين[3] ﴾ وقوله عزّ مِنْ قائل ﴿ وإن جَنحوا للسّلم فاجْنَح لها وتَوكّلْ على الله[4] ﴾ . وقد أفاؤا على المسالمين بصدق العهود والتحالف الودود ورغّبوهم بدخول دين الواحد المعبود . وهكذا انداح نور الإسلام على هذا النظام بفتح العقول على الحق قبل فتح الطلول . وإبّان عقد الصلح وتأسّف المسلمين على رجوعهم من الحديبية دون عُمرةٍ فوريّة أنزل الله تعالى قوله ﴿ لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسولَهُ الرّؤيا بالحَقّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحَرام إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ مُحلّقينَ رؤوسكُمْ ومُقصّرين لا تخافون فَعَلِمَ ما لَمْ تَعلَموا فجَعَل مِنْ دونِ ذلك فَتحاً قريباً[5] ﴾ أي أنّ الله جل جلاله علم ما في صلح الحديبية من الخير والاصلاح ما لم تعلموا به أنتم في حينه فجعل دون دخولكم مكة هذا العام فتحاً قريباً . وكان هذا بشارة بفتح خيبر وتحجيم الخطر اليهودي في المنطقة والانداح والتوسع حول المدينة المنورة لمسافات بعيدة ، ومن ثَمّ فتح مكة المكرمة الفتح المبين .

نقض العهد والميثاق :

كانت الحرب قائمة في الجاهلية بين خزاعة وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة حتى اقتتلتا عند انصاب الحرم . فلما كان صلح الحديبية دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده . ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . (واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان مضى إثنان وعشرون شهراً من صلح الحديبية إعتدَتْ عندها بنو بكر على خزاعة بهجوم مباغت بعد أن أعانتهم قريش بالسلاح والكراع (الخيل) والرجال ودسّوا ذلك سراً لئلا تحذر خزاعة ، وجعلوا ميعادهم عند ماء بأرض خزاعة يدعى الوتير ، ووافوا للميعاد وفيهم من رجالات قريش المتنكرين المتنقبين صفوان بن أمية ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العُزّى وأجلبوا معهم أرِقاءهم[6]) .

وكان رأس بني بكر نوفل بن معاوية النفاثي الدؤلي ، فبَيّتوا خزاعة ليلاً وهم آمنون من عدوهم ولم يكونوا على حذر ولا عُدّة ، ولم يزالوا يقتلونهم حتى انتهوا بهم الى الحرم في مذبحة فوّارة الدم . (ولما انتهى أمر هذه المذبحة الى ابي سفيان قال : هذا والله امر لم اشهده ولم أغبْ عنه ، لا حُمِلَ هذا إلّا عَلَيّ ، ولا والله ما شُورتُ فيه ولا هَوِيتُ حيث بلغني ، والله ليغزونا محمد إن صدق ظني ، وهو صادقي ، وما لي بُدّ أنْ آتي محمداً فأكلمه أن يزيد في الهدنة ويجدد عهد الحديبية قبل أنْ يَبْلُغَهُ هذا الأمر . فقالت قريش : قد والله أصبت الرأي ! . وندمت قريش على ما صنعت من عون بني بكر على خزاعة وعرفوا أنّ رسول الله ﷺ لن يدعهم حتى يغْزُوَهُمْ . فخرج ابو سفيان من مكة المكرمة الى المدينة المنورة

لعلّه مي سعيه أن يفعل شيئاً في مصلحة قريش بايقاف الغزو أو تاجيله(٨)) .

الإستنصار :

رأت خزاعة ان توفد عمرو بن سالم الخزاعي في اربعين راكباً من خزاعة ، وقيل خرج بُدَيل بن ورقاء في نفر من خزاعة أيضاً ، يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بما اصابهم وبعدد قتلاهم وما ظاهرت عليه قريش وما أعانت به من مستلزمات القتال ، فلما مَثَلَ رأس خزاعة عمرو بن سالم بين يدي الرسول ﷺ إستاذنه أن ينشد قصيدة امامه وهو في المسجد .(فاذن له الرسول ﷺ واستمع منه قوله(٨)) :

يا ربِّ إنّي ناشدٌ محمّداً
حلْفَ أبينا وأبيه الاتلدا
قد كُنتم وُلْداً وكنا والدا
ثُمّت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا
وأدْعُ عبادَ الله يأتوا مَدَداً
فيهم رسول الله قد تجرّدا
إنْ سِيم خسفاً وجهُه تَربَّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مُزبِدا
إنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المُؤكّدا
وجعلوا لي في كَداءٍ رُصّدا
وزعموا أنْ لستُ ادعوا أحدا
وهُمْ أذلُّ وأقلُّ عَدداً
همْ بيتونا في الوتير هُجَّدا
وقتلونا . رُكّعاً وسُجّدا

(فقال رسول الله ﷺ : نُصرت يا عمرو بن سالم(٩))

(ولما فرغ الركب من عرض سائر الحال وبيان الموقف والمآل ، والتماسهم رَدْعَ من نَقَضَ العهد وبدأ القتال ، قال رسول الله ﷺ متسائلاً :

فَمَنْ تُهْمَتُكُمْ وظَنّتُكم ؟

قالوا : بنو بكر .

قال : كلّها ؟

قالوا : لا . ولكن تُهمتُنا بنو نفاثة قَصرةً (فقط) . ورأس القوم نوفل بن معاوية النُّفاثي .

قال : هذا بطن من بني بكر .

ثُم قال ﷺ : وانا باعث الى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومُخيرهُم في خصال ، ولا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب(١٠)) .

المفاوضات :

بعث رسول الله ﷺ ضَمْرة بن سعيد الى قريش يُخيّرهُمْ بين احدى ثلاث خصال بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلًا ، أو يبرأوا من حلف نفاثة ناقضي العهد ، أو ينبذ إليهم على سواء. (إلغاء العهد علناً) فخلصت قريش نجياً وردّت بتحبيذها الخصلة الثالثة وهي النبذ على سواء . فرجع ضمرة مبعوث الرسول ﷺ الى المدينة المنورة بإجابة قريش المتضمنة إلغاء العهد . غير أن قُريشاً ندمت على ما فرطت من رَدُّ ضمرة بن سعيد بِرَدٍ غير سديد وطفقت تناور وتماطل عسى أن تجد خلًا في مصلحتها حتى قرّ رأيها على ان تبعث أبا سفيان بن حرب تسال رسول الله ﷺ أن يجدد العهد ويزيد في المدة . وهذا ما توقعه رسول الله ﷺ حيث قال لاصحابه : لكانكم بابي سفيان قد جاء يقول : « جدد العهدَ وزد بالهدنة » وهو راجع بسخطه .

فقدم أبو سفيان المدينة قاصداً النبّي ﷺ فدخل عليه فقال : إني كنت غائباً عن صلح الحديبية فاشدد العهد وزدنا في المدة .

قال رسول الله ﷺ : هل كان قِبلكم حَدَث ؟

قال ابو سفيان : معاذ الله .

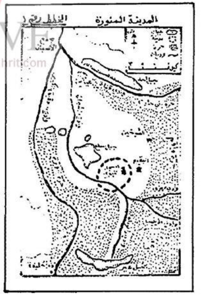
قال رسول الله ﷺ : فنحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نُغيِّر ولا نُبدل . (فمكث ابو سفيان في المدينة أياماً يريد حلّاً وطالت غيبته ، ثم ركب راحلته وانطلق راجعاً الى مكة . فلما وصلها قالت له قريش : ما وراءك ، هل جئتنا بكتاب من محمد ؟ وزيادة في مدة ؟ فما نامن أن يغزونا . فقال ابو سفيان : والله لقد أبى عَليَّ ، ولقد كلّمت عليه أصحابه فما قدرت على شيء منهم(١١))

وصف الأرض :

يحتاج الباحث في التاريخ العسكري من أجل ترصين موضوع بحثه الى ثلاثية مُتراصة الحلقات ، الحلقة الأولى مجالها العلم العسكري وفن الحرب ومتغيراتهما ، والحلقة الثانية المعلومات الجغرافية الخاصة بالظواهر الطبيعية لسطح الارض باشكاله وانواعه وابعاده الثلاثة . الطول والعرض والارتفاع ، والحلقة الثالثة حلقة الزمن بمفهومه ومعناه وتأثيره في الحوادث ، والوقت وعلاقته بالإنجازات وبالمسافات . فالمسافة لا تقاس

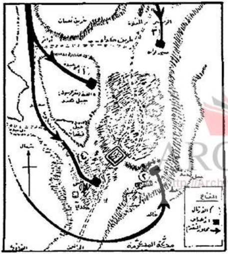
بالاكيال فحسب بل يالوقت المصروف لقطعها أيضاً .

والأرض التي نحن بصدد الحديث عنها في هذا السياق هي المدينة ومكة والطريق بينهما . (فالمدينة المنورة واحات خصبة تقع في سهل فسيح تحيط به الحَرَّات من جهاتها الأربع . والحَرَّة ارض ذات حجارة سود نخرات صلبة غليظة صعبة الإجتياز ، وأهمها حرَّةُ واقم من الشرق ، وحرَّة الوبرة من الغرب . وينتصب جبل أحد شمال المدينة ويستقر جنوبها جبل عير . ويطلق على الجزء المرتفع في الجنوب الغربي العوالي أو العالية وعلى الجزء الشمالي السافلة . وفي المدينة أودية متفرعة أهمها وادي العقيق ووادي بطحان ورنوناء ووادي قناة ، وعلى أحفتِها مسالك المارة وطرق التنقل الداخلية[١١]) (انظر المخطط رقم (١) . وسُقْنا هذا لبيان إمكان السيطرة على الانقاب وهي مداخل ومخارج طرق القوافل من المدينة واليها وبهذه السيطرة يتحدد انتشار الاخبار حفاظاً على الأمن بإشغال قلّة من الحرس والعيون والعسس كنقاط تفتيش وسيطرة .



مخطط رقم (١) المدينة المنورة

أما مكة المكرمة فتقع في وادي ابراهيم ، (وهي محاطة بمرتفعات داكنة وعرة مسيطرة على حوض الوادي ، يبلغ ارتفاعها ما يزيد عن الف قدم فوق مستوى الأرض المحيطة بها . وبين هذه المرتفعات اربعة محاور يسلكها القادمون الى مكة والمغادرون . ودورها تحيط بالحرم الشريف فتشكل مركز البلدة وتتسع اطرافها لتشمل بطحاء الوادي وسفوح المرتفعات وقد بُنيت من الطين[١٢]) (انظر المخطط رقم (٢) .



مخطط رقم (٢) الفتح المبين

ومن ينعم النظر في معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان للحموي ولسان العرب لابن منظور والروض المعطار للحميري فضلاً عن كتب السيرة النبوية يجد تحت مادتيّ كُدًى وكَداء من الخلاف والاضطراب ما يحجب عن الباحث الصواب . ولعل الحصيلة المقبولة المتفقة مع سير عملية الفتح هي ان نقول : إن الكُدية هي الارض الغليظة الصلبة المرتفعة وتُجمع على كُدًى وما اكثرها في منطقة مكة ومن هذه الكثرة جاء الاضطراب والخلط .

أما كداء فجبل بأعلى مكة وهو عَرْفة بعينها . والطريق من عرفة الى اذاخر يدعى طريق كداء . دخل الرسول ﷺ يوم الفتح من نهايته الغربية جهة أذاخر . ونزل الزبير الى بدايته ، وهي العقبة

الصفرى ، منصباً من ذي طُوَى اليها من الجهة الشمالية الغربية عند مقبرة المثلاة أو الفخلين او المنعطف (الحجون الشمالي) .

وأمّا كُدَى (بضم الكاف وتنوين الدال) فجنوب غرب مكة عند جبل تعيقعان عند المنعطف (الحجون الجنوبي) - وكلّ عطفة وثنية فهي حجون ولهذا يضطربون . - وأمّا كُدَيّ (بالتصغير ، ضم ففتح فتشديد) فاسفل مكة لمن خرج منها الى اليمن . ومن مستلزمات الغزوة الحجون ، (وهي الغزوة التي تُظهر غيرها ثم تُخالف إلى غير ذلك الموضع ويُقصد اليها ، وهي البعيدة[١٤]) والطويلة المدى الواسعة النطاق ، أن يُشار الى الطريق التي سلكها الفيلق الإسلامي في اثناء تنقله ومسيره المرهق . لقد تفاوتت تقديرات الجغرافيين والرواة القدامى في تحديد المسافات بين المدن والقرى وأم القُرى ومعالم الطريق الاخرى وعدد المراحل بينها ، فضلاً عن انهم يقيسون المسافات تارة بالاميال وتارة بالايام والليالي ، وربما قدروها بالمراحل والمنازل ، وأحياناً بالبُرُد (جمع بريد) او بالفراسخ وهكذا دواليك . والميل عند اللغويين يعادل مد البصر في البادية ويرى آخرون أن الميل يعادل أربع مئة ذراع مُرسلة . ومنهم من يقيس بالذراع الشرعية ومنهم من يقيس بالذراع الهاشمية وربما قاسوا بذراع الملك أو ذراع المساحة . ومن اجل الوصول الى قياس مقبول لتحديد المسافات بين معالم الطريق جرى الاعتماد أساساً على (ياقوت الحموي والبكري واحمد كمال[١٥]) . والرجوع الى كتب السيرة النبوية احياناً لسد الفراغ وإحكام النهايات والمفاصل السائبة . (انظر المخطط رقم ٣) . تبدأ الطريق من المدينة المنورة الى مكة المكرمة قصداً (مباشرة) من العقيق وتنتهي في البيت العتيق . طولها نحو أربع مئة كيل . فاذا فَصَلَت القافلة من العقيق وتعقبناها بقدر العلاقة معالماً ومسافات ذات أميال تراثية كما في المصادر لوجدناها (تحط الرحال بعد سبعة اميال في مُلَلَ فالروحاء (٤١) فالرويثة (٦٥) فالعَرْج (٧٨) فالسُقيا (٩٥) فالابواء (١١٤) فالجحفة (١٣٧) فالمشلل (١٥٨) فقديد (١٦١) فامج (١٧٠) فكديد (١٧٦) فعسفان (١٨٢) فغدير الاشطاط (١٨٥) فكُراع الغَميم (١٩٠) فمَرّ الظهران (٢٠٥) وفيها خطم الجبل والاراك فمفرق سَرِف (٢١٢) فذي طوىً على مشارف مكة ، فمكة المكرمة (٢١٨)[١٦] ميلاً تراثياً ويعادل (١٨٤٨ متراً) إذن

(٢١٨) × (١٨٤٨) = ٤٠٢,٨٦٤ كيلاً معاصراً وهذا رقم

مخطط رقم (٣) تفاصيل شتى



يضرب من الحديبية . وطريق الفتح هذه هي غير الطريق التي سلكها الهديرون الى موقعة بدر ، (فطريق بدر تنحرف عن هذه الطريق الموصوفة ثم تعود اليها وتزيد عنها زهاء مئة كيل . وبما أنّ الطريق البدرية طولها (٤٩٦) كيلاً[١٧]) فطريق الفتح نحو (٤٠٠) كيل وكفى . وتقطع المسافة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة بوسائط التنقل آنذاك باحد عشر يوماً أو باثني عشر يوماً ، ويقطعها ذو السَّير الحثيث المستعجل بنصف هذه المدة (وقد قطعها فتيان خزاعة باربعة ايام عندما قدموا المدينة لاخبار الرسول ﷺ بتجمع قريش والاحزاب لمحاربته يوم الاحزاب[١٨]) .

الإستحضارات :

لمّا ولّى ابو سفيان راجعاً بخيبته الى مكة (قال النبي ﷺ لعائشة : « جَهّزينا وأخفي أمرك ! » . والمراد بالتجهيز تهيئة الزاد أصلاً وكان آنذاك قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمراً غالباً . ودعا النبي ﷺ ربّه قائلاً : اللّهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها[١٩]) أو كما قال : ودخل ابو بكر الصديق دار

الرسول ﷺ فوجد عائشة تجهز الزاد فسألها عن السبب فقالت لا أدري ، وعندما دخل الرسول ﷺ الدار فقال ابو بكر : أَفَتَجَهَّزُ ؟ أفأزلت سفراً يا رسول الله ؟ قال الرسول ﷺ : نعم . قال ابو بكر : وأين تريد يا رسول الله ؟ قال النبي ﷺ : قريشاً . وأَخْفِ ذلك يا أبا بكر . إنهم غدروا ونقضوا العهد فانا غازيهم .

(وأخذ الرسول ﷺ بالانقاب وأوكل بالطواف عليها عمر بن الخطاب وتوجيه الحرس والعيون والعسس وتوصية المراقبين والارصاد بما يجب عليهم فعله ومراقبته ، أي وقف على كل طريق جماعة (نقاط سيطرة وتفتيش) ليعرف من يمر بها ، وشدَّد عليهم ألّا يدعوا أحداً يمرُّ بهم ينكرونه إلّا ردّوه وبخاصة من سلك الى مكة فَيَتَحَفَّظ به ويُسأل عنه[٣٠]) .

وعمد رسول الله ﷺ الى تضليل قريش والتمويه عليها وخدعها بتحويل أنظارها وأنظار عيونها (جواسيسها) عما ينتظرها من غزوة حجون فبعث ثلاث سرايا باتجاهات غير جهة مكة (كانت السرية الاولى التي بعثها الرسول ﷺ هي سرية الخَبَط ابي عبيدة بن الجراح وتعدادها ثلاث مئة مقاتل من المهاجرين والانصار وفيهم عمر بن الخطاب ، وذلك في رجب سنة ثمان هجرية بعد نكث قريش العهد[٣١] (ووجَّهَها الى حي من جُهَيْنة في القبليّة مما يلي الساحل (سيف البحر) والمسافة بينها وبين المدينة خمس ليال ، ومكثت ثلاثة أشهر في جهد جهيد[٣٢] . (وكانت السرية الثانيةُ سريّةُ خُضِرَة ، وخضرة ناحية بنجد على سبعة فراسخ من بستان ابن عامر ، بقيادة ابي قتادة بن ربعي الانصاري وتعدادها خمسة عشر رجلًا للإغارة على غطفان بارض محارب وذلك في شعبان سنة ثمان هجرية فغابت خمسة عشر يوماً وعادت سالمة غانمة[٣٣])

(وكانت السرية الثالثة سرية إِضَم بقيادة ابي قتادة ايضاً وتعدادها ثمانية أنفار وتلك في اوائل شهر رمضان سنة ثمان هجرية قبل الغزوة الحجون بأيام قلائل وجّهها الرسول ﷺ الى بطن إِضَم على مسافة ثلاثة بُرُدٍ من المدينة ، أي إثنا عشر فرسخاً ، وكان بعض ما يرجى منها ليَظُنَّ ظانٌ أن رسول الله ﷺ توجه الى تلك الناحية ، ولأن تذهب الاخبار المُضلِّلة الى قريش فلا تستعد للمواجهة الفعلية المقتدرة فيدخل عليهم الفيلق الاسلامي على حين غفلة ومن شان هذه السرية انها وصلت في عودتها الى (ذي خشب) على ليلة عن المدينة فبلغها ان رسول الله ﷺ قد توجه نحو مكة فاخذوا ناحية الطريق حتى لحقوا به في (السُّقيا)[٣٤])

وكثرت الظنون ، والظن لا يغني من الحق شيئاً ، عندما أستَنْفَرَ الرسول ﷺ أهل البادية ومن حوله من المسلمين للتجمع في المدينة . فَظَانٌّ يظنُّ أن الرسول ﷺ يريد الشام ، وثانٍ يظن أنه يريد ثقيفاً ، وثالث يظن انه يريد هوازن ، ورابعٌ أهل نجدٍ .

وساصرف وجه الحديث الى امرٍ ذكرٍ حدث في وقت الانشغال بالاستحضارات وذلك أن احد البدريين ، (وهو حاطب بن ابي بلتعة تَيَقَّن بفراسته ان النبي ﷺ سيغزو قريشاً ، فكتب كتاباً وارسله الى اهل مكة يخبرهم بمسير الرسول ﷺ اليهم[٣٥]) وارسله مع أمرأة وأوصاها أن تتجنب طريق الخروج من المدينة الى مكة فان عليها حراساً . فخرجت المرأة متلصّصة تريد مكة . فاطلع الله نبيّه على ذلك (فبعث علياً والزبير او المقداد[٣٦]) في أثرها فادركوها بالخليقة وأجبروها على تسليم الكتاب اليهم فامتثلت مرغمة ودفعت الكتاب اليهم ليعودوا به الى الرسول ﷺ فتسلم الرسول ﷺ الكتاب وكان مما جاء فيه : (من حاطب بن أبي بلتعة الى سهيل بن عمرو وعكرمة بن ابي جهل وصفوان بن أمية . اما بعد يا معشر قريش فانَّ رسولَ الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل ، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده ، فانظروا لانفسكم والسلام . وفي رواية اخرى أنّ لفظه ينص على ان رسول الله ﷺ أذنَّ في الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم وقد أحببْتُ أنْ تكون لي عندكم يَدٌ[٣٧])

(فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : يا حاطب ، ما حَمَلَك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله أما والله أني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيَّرتُ ولا بدَّلْتُ ، ولكني كنت آمرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم أولاد وأهل ، فصانعتهم عليهم فعفا عنه النبي ﷺ قائلًا : ..... ، لعلَّ الله قد أطّلعَ الى أصحاب بدر يوم بدر فقال : إعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم[٣٨]) فانزل الله تعالى في حاطب « يا أيها الَّذينَ آمنُوا لا تَتَّخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ اولياء تُلْقُون إِلَيْهِم بالمَوَدَّةِ ... »[٣٩]

الذئرة والحشد :

عَمَدَ الى تدابير الرسول ﷺ الاخرى شيء إزاء للإطلاع على ما قرره من القيام بحركة جهادية معماة الإتجاه المقصود ومرئية الهدف المنشود . لقد كان قراره محاربة أهل مكة في دارهم ، . اليوم نغزوهم ولا يغزونا وننتصر لخزاعة ، فارسل الى أهل البادية والى من حوله من المسلمين يستنفرهم ويقول لهم مبعوثوه على لسانه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان في المدينة » . فقدم المدينة على رسول الله ﷺ قبائل أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع وبعض بني كعب ، والتحق آخرون إبانَ التنقل على الطريق ، منهم سُلَيم ، وبنو أسد وبقية بني كعب ، وسائر غفار حتى اكتمل الحشد في قديد . فصار تعداد جيش الفتح والغزوة الحجون عشرة آلاف يتوزعون على الانصار والمهاجرين والقبائل العربية المذكورة غالبيتها آنفاً . وقوامه

التفصيلي يتكون من سبع مئة من المهاجرين ومعهم من الخيل ثلاث مئة فرس . ومن أربعة آلاف من الانصار ومعهم من الخيل خمس مئة فرس . وكانت مُزَيْنَة ألفاً واحداً وفيها من الخيل مئة فرس ولفرسانها مئة درع (وكانت أسلم اربع مئة وفيها ثلاثون فرساً . وكانت جُهَيْنَة ثمان مئة ومعها من الخيل خمسون فرساً . وكانت بنو كعب بن عمرو خمس مئة[٣٠]) (وكانت سليم نحو ألف مقاتل[٣١]) وفي سائر القبائل عَدَدٌ وإسلام . وهذا هو الفيلق الإسلامي الاول الذي ذكره عمرو بن سالم في شعره بحضرة النبي ﷺ كما أسلفنا :

فيهم رَسُولُ الله قَدْ تَجَرَّدا
في فيلقٍ كالبحرِ يَجْري مُزْبِدا

إن هذا العدد الضخم يدل على تعاظم قوة المسلمين في مدة يسيرة جداً محددة بين صلح الحديبية . (وكانت ألفاً واربع مئة مقاتل ، والتقدم لفتح مكة وقد بلغ الفيلق عشرة آلاف خلال سنتين . وفي رواية بلغ اثني عشر الف مقاتل[٣٢])

مسير الاقتراب :

(نفَرَ رسولُ الله ﷺ بفيلق الإسلام المتحشد في ساحة بئر أبي عِنَبة على ميل واحد من المدينة المنورة بعد عصر يوم الاربعاء لعشر ليال خلَونَ من رمضان سنة ثمان هجرية الموافق لليوم الاول من كانون الثاني سنة ثلاثين وست مئة ميلادية بعد أن استخلف أبارهْم كلثوم بن حصين الغفاري فيها ، وبعد أن أوعز الى مناديه ينادي : من أحبَّ أنْ يصوم فَلْيَصُمْ ومن أحب أنْ يُفْطِرَ فَلْيُفْطِر ! . وصام رسول الله ﷺ وصام المسلمون أُسْوَةً به وتلك الرخصة بالفطر جاءت من اجل ان يَتَقَوّوا على مقاتلة العدو ، حيث قال لهم الرسول ﷺ : إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم[٣٣])

لم يَتَوانَ الفيلق في مسيره ولكنه من أجل التكامل وإزالة المعوقات قطع مرحلة إبتدائية قصيرة مسافتها سبعة أميال عن المدينة إنتهت عند صُلْصُل نَحْلٌ فيها (إتَّخَذَها مأوىً ليلياً) ، ثم فَصَلَ المسلمون منها فجراً يقتادون خيولهم ويمتطون الإبل (يعني انهم بعيدون عن العدو نسبياً) ومع هذا فقد (احتاط الرسول ﷺ للأمر فافرز طليعة أمامه في مئتين من المسلمين بقيادة الزبير بن العوام[٣٤]) .

ولمّا ترك الرسول ﷺ العَرْج أفرز جَريدة من خيل (طليعة) للاستطلاع وترصد عيون الأعداء ، ونستدل من هذا أنَّ الطلائع تستبدل في المراحل لتجديد نشاطها ، (فلما كانت هذه الطليعة بين العَرْج والطُلوب أمسكت عيناً (جاسوساً) لهوازن فاقتادته الى رسول الله ﷺ فاعترف بمهمته واتلى بأن هوازن تتحشد بكل طاقاتها لمواجهة المسلمين لو قصدوها ، وقد ارسلته عيناً ليتعقب المسيرة حتى اذا غَيَّر المسلمون إتجاههم عَبْرَ مسلك بطن شرف فلا شك انهم يقصدون هوازن ، فواجبه الاسراع بانذار قومه[٣٥])

لقد كان مسير الاقتراب هذا سَوْقِياً لسُمُوّ الغاية وضخامة عدد الجند وبعد الشُقّة فقد قطع فيه جند الله أربع مئة كيل أو زد عليها قليلًا من منطقة التحشد الخلفية (بئر أبي عِنَبة) الى منطقة التحشد الامامية (مَرّ الظُّهران) فمكة المكرمة (بدلالة عمر بن الخطاب الوازع (مُنظم السير) الرادع الذي عَيَّنه الرسول ﷺ لضبط النظام . وقد سلك بالفيلق دروباً غير مطروقة أحياناً ، ونهى القطعات عن إصدار الأصوات العالية ، وعن قرع الطبول وآلات الحثّ على الاسراع لئلّا يلفتون الانتباه إليهم[٣٦]) ومن توجيهات الرسول ﷺ للقطعات المتقدمة لتولي المباغتة جُلَّ اهتمامها قوله : (لا تُصْحَبُ الملائكةُ رِفْقَةً فيها كَلْبٌ أوْ جَرَسٌ ، والجَرَسُ مِزْمارُ الشيطان[٣٧]) والزَمتْ بِعِلّة حاطب وترصد عين هوازن وما على الفرار المؤمنين بكتمان الاشاعات وفوضى الاخبار والحدُّ من النجوى التي تثيرها الرفقة في الأسفار وتضييق مساحة انتقال التَقَوُّلات إن صِدْقاً وانْ كَذِباً ورَدِّها حال سماعها الى ذوي الاختصاص وخبراء الإستنباط الذين يجيبون التمحيص ويفرزون النفيس عن الوخيص ويرشدون الى كيفية التعامل معها ليذهب الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الغزوة في تحقيق غرضها . قال عزَّ مِنْ قائل ﴿ وإذا جاءَهُمْ أمرٌ مِنَ الأمْنِ أو الخوفِ أذاعُوا بِهِ ولَوْ رَدُّوهُ الى الرَّسولِ وإلى أولي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذينَ يَسْتَنْبِطونَهُ مِنْهُمْ ...[٣٨] ﴾

(وأبقى الرسول ﷺ غاية الغزوة وغرضها خافيين على الجميع إلّا قلّة مسؤولة أصلًا (قادة وهيئة ركن) بعدد أصابع اليدين[٣٩])

حاول كعب بن مالك ، وهو من هو إيماناً ورئاسة ووجاهة في قومه ، أن يطلعه الرسول ﷺ على القصد من هذا المسير فأنشد أمامه في العرج قصيدة فيها من الرجاء والاستفهام ما ينبيء عن تَطَلُّعه الى معرفة الهدف المنشود فقال في بعضها :

قَضَيْنا مِنْ تِهامةَ كُلَّ رَيْبٍ
وخَيْبَرَ ، ثم أجْمَمْنا السُّيوفا
نُسائِلُها ، ولَوْ نَطَقَتْ لَقالَتْ
قَواطِعُهُنَّ : دَوْساً أوْ ثَقيفا

فتبسم الرسول ﷺ ، ولم يزد على ذلك فجعل الناس يقولون له : والله ما بَيَّنَ الرسول ﷺ لك شيئاً ، ما ندري بمَ يبدأ بقريش او ثقيف او هوازن . وهذا عُيَيْنَه بن حصن يدرك الرسول ﷺ في العرج

أيضاً فيقول : يا رسول الله ، بلغني خروجك ولم أشعر به فاقبلت سريعاً ... ولست أرى هيئة حرب ولا أرى ألوية أو رايات ! أفالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيئة الإحرام فاين وجهك يا رسول الله ؟ قال النبي ﷺ ، حيث يشاء الله .

(ووافى الاقرع بن حابس في عشرة من قومه رسول الله ﷺ في السُقيا فسار هو وعيينة مع الرسول ﷺ فلما نزل قُديد وعقد الالوية سأل عيينة أبا بكر : أين يريد محمد يا أبا بكر؟ قال الصديق أبو بكر : حيث يشاء الله[٤٠]) وممن التحق بالرسول ﷺ وهو على الطريق وفي مراحله ، العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أُمَيَّة بن المغيرة فاسلموا .

ولمّا وصل جند الله الى قُدَيْد ، وهو موضع بين الجُحْفَة وعُسفان وهو أقرب الى مكة المكرمة منه الى المدينة المنورة ، (عقد رسول الله ﷺ الالوية والرايات لمنتسبي الفيلق الإسلامي وسلّمها لحَمَلَتِها[٤١]) أي اتّخذ أسلوب التقدم الامين محتاطاً آخذاً حذره لاقترابه من أرض العدو واحتمال لقائه . وسار الفيلق الإسلامي من قديد بترتيب حسن إذ تقدمت سليم رتل المسير في أول تسلسلاته وأوكل إليها أمر المقدمة المدججة بالسلاح بعد أن كانت بقيادة خالد بن الوليد وربما كانت بقيادة غيره من قبل كما أسلفنا حول استبدال الطلائع إلّا أنّ المصادر لم تسعف بتفاصيلها . (واستمر التقدم في أمان وسِرِّيّة وكتمان حتى نزل الفيلق بمَرّ الظهران[٤٢]) (منطقة تحشد أمامية) على بعد خمسة وعشرين كيلًا تقريباً من مكة . واكتمل التحشد عشاءً بعد أن بذل الوازع ورئيس الحرس عمر بن الخطاب جهداً كبيراً في تدبير امورهم وترتيب تسلسلاتهم . ولم يبلغ قريشاً خبرٌ واحدٌ عن مسير الفيلق الاسلامي اليهم . وعندما حلّ الظلام ونُصبت الخيام سُمح للمسلمين ولاول مرة منذ بدء الحركة باشعال النيران وتكثيرها (فاوقدت عشرة آلاف شعلة نار[٤٣] أحالت الليل نهاراً وهزّت الموقف على قريش ورؤسائها فانحطت معنوياتهم وصار أمرهم فُرُطا ولم يتخلوا عن كبريائهم (فاجمعوا على إيفاد أبي سفيان صخر بن حرب يتحسس الاخبار من مصادرها الاصلية وقالوا له : إن لقيتَ مُحَمّداً فخذلنا منه جواراً ألا إن ترى رِقَّةً من أصحابه فآذِنْهُ بالحرب ، فخرج ابو سفيان وحكيم بن حزام وبُديل ابن ورقاء يستنبطون الحدث ويستطلعون مبلغ الخطر ويتنسمون جليّة الخبر ، فلما وصلوا الاراك من مَرّ الظهران رأوا في ضوء النيران جند الرحمن بالسيوف وأسنة القرآن وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل يخترق الاذان فافزعهم ذلك فزعاً شديداً[٤٤])

إنّ السياق يقتضي ربط قضية حاطب بن ابي بلتعة بقضية العباس بن عبد المطلب عمّ الرسول ﷺ بغية المقارنة بين الفعلتين . فالاول ـ مع ايمانه ـ كتب الى قريش بقوة المُسلمين التي لا قِبَل لهم بها كما سبق . وهذا العباس ـ مع ايمانه ـ يروي لنا موقفه ورِقّة نفسه لانقاذ قريش من سيوف جند الله فيقول (رَقّت نفسي لاهل مكة ، والله لئن دخلها رسول الله ﷺ عنوة قبل إن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش الى آخر الدهر ، فجلست على بغلة رسول الله البيضاء في الليلة المُنارة حتى جئت الاراك لعلّي أجد بعض الحَطّابة أو صاحب لبن أو حاجة ، يأتي مكة ويخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا اليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة[٤٥]) (فسمعت كلام ابي سفيان وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، فعرفت أبا سفيان من صوته فقلت : يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ فقلت : نعم يا أبا سفيان ، هذا رسول الله ﷺ في عشرة آلاف مسلم لا قِبَلَ لكم بهم ، واصباح قريش والله ! قال : فما الحيلة ؟ قلت : آتي بك الى رسول الله ﷺ فاستأمنه لك . فركب خلفي فعرفه الحرس فاخبروا عمر به فقال عمر : ابو سفيان ، عَدُوّ الله ! الحمد لله الذي قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد واشتد الى رسول الله ﷺ ليوافق على ضرب عنقه ، فسبقته اليه وقلت : يا رسول الله ، إني قد أجَرْتُهُ . فقال النبي ﷺ للعباس : إذهب به الليلة الى رحلك .... ثم أسلَمَ ابو سفيان وشهد شهادة الحق وقصة إسلامه مشهورة[٤٦])وقَبْلَه بسُوَيعةٍ أسْلَمَ صاحباه حكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء . وفي رواية ان حكيم بن حزام قال مخاطباً الرسول الكريم ﷺ : يا رسول الله جئت باوباش الناس (أي اخلاطهم) مَن يُعرَفُ ومَنْ لا يُعرَفُ الى اهلك وعشيرتك .... قد كنت يا رسول الله حقيقاً أن تجعل عُدَّتك وكَيْدَك لهوازن فانهم أبعد رحماً وأشد لك عداوة . قال رسول الله ﷺ : إني لارجو من ربّي أن يجمع ذلك كله لي ، بفتح مكة وإعزاز الإسلام فيها (اسبقية أولى) وهزيمة هوازن وأن يُغْنِمني الله أموالهم وذراريهم ، فاني راغب الى الله تعالى في ذلك[٤٧])

(وفي رواية أخرى أن المقولة تلك كانت لابي سفيان[٤٨])

وهذا القول يؤيد الفكرة القائلة بانّ الاخبار بصورة عامة كانت قد وصلت قريش وهوازن بتحرك المسلمين باتجاه مكة المكرمة غير أن الذي خَفِيَ عليهم هو قصد الغزوة وهدفها أهو قريش أم هوازن أم ثقيف ؟ ولهذا كانت هوازن على أهبة الاستعداد كما أفاد عينها الذي امسكت به الطليعة بين العرج والطلوب ... (ثم أردف أبو سفيان قائلًا : يا رسول الله ، أُدع الناس بالامان ، أرأيتَ إن أعتَزَلَتْ قريش فكفّت أيديها ءآمنون هم ؟ قال الرسول ﷺ نعم . فقال العباس : يا رسول الله ، انك عرفت أبا سفيان وحبّه الشرف والفخر ، فاجعل له شيئاً[٤٩]) (قال الرسول ﷺ : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن[٥٠])

، فلمّا ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله ﷺ : يا عباس إحبسْهُ بمضيق الوادي عند خطم الجبل (منصة العرض / نقطة حرجة) حتى تمر به جنود الله فيراها . قال العباس فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه .

العرض :

مرّت القبائل والمهاجرون والانصار برتل مسير منتظم حسب تسلسلاتها وأعدادها الآتية : (انظر المخطط رقم (٣)

(بنو سُلَيْم (١٠٠٠) وكانت مقدمة الرتل ، ثم أغلبية المهاجرين وفتيان العرب (٥٠٠) بقيادة الزبير بن العوّام ، ثم بنو غِفَار (٣٠٠) ثم أسْلَم (٤٠٠) ثم بنو كعب ، بطن من خُزاعة (٥٠٠) ثم مُزَيْنة (١٠٠٠) ثم جُهَيْنَة (٨٠٠) ثم كنانة (بنو ليث ، وضَمرة ، وسعد بن بكر) (٤٥٠) ثم أشْجَع (٣٠٠) ثم قُضاعة (تميم ، وبنو فزارة ، وسعد بن هذيم) (مجهولة العدد) ثم الكتيبة الخضراء وهم الانصار (٤٠٠٠) بقيادة سعد بن عبادة ، وفيهم المهاجرون الذين هم في الساقة يحفّون برسول الله ﷺ[٥١]) (وكان للوازع عمر بن الخطاب زَجَلٌ بصوت عالٍ وهو يرتب القطعات في أماكن سيرها ويردعها صارخاً : رويداً يلحقْ أوّلَكُم آخرُكم[٥٢]) يريد المحافظة على الترتيب وعدم انقطاع الرتل أو تداخله . (وكان الرسول ﷺ قد أعطى رايته لسعد بن عبادة وهو امام الكتيبة الخضراء . فلما مَرّ براية النبي ﷺ من خطم الجبل وشاهد أبا سفيان نادى : يا أبا سفيان اليوم يوم المَلْحَمة ! اليوم تُسْتَحلّ الحُرمة ! اليوم أذَلّ الله قريشاً[٥٣]) . فارتعب ابو سفيان من هذه المقولة وارتهب وانتظر رؤية الرسول ﷺ عن كثب ليخبره بما يمكن أن تصير اليه الحال اذا ما نَفّذَ سعد تهديده القتال المُقتَحم بصيغة الانفعال .

الارتال والمحاور :

اجتمع الفيلق الاسلامي كرّة أخرى بعد العرض بذي طوى (منطقة انفتاح وانطلاق) فالجند يهيئون السلاح والخيل تَنقَعُ (تسرع) والوازع يردع ، ورسولُ الله ﷺ يتوسط جند الله يدعو بالفلاح ويرفع من المعنويات الى الاوج ويوصي القادة ويوجههم والقادة يتفهمون آلية العمل . ثم أعاد الترتيب الاساسي للفيلق ونَظّمهُ من أجل الدخول الى المعركة فقسم القوات المكلّفة بالتعرض على اربعة ارتال تندفع عبر اربعة محاور . (انظر المخطط رقم ٢) وحدد لكل رتل محوره بحسب استيعابه وخصوصية الرتل ، اراجلٌ ام راكبٌ ، وحدّد الاهداف وعيّن مواقعها وكانت المحاور تعقب سفوح المرتفعات والطيّات الارضية وبطون الاودية منصّبةً الى مكة المكرمة .

كان الرتل الاول (القلب)

يتألف من كتيبة من المهاجرين الرَّجّالة الحُسّر (المشاة من غير دروع واقية ولا خوذ) بقيادة ابي عبيدة الجراح يتقدم ويدخل مكة عبر أذاخر من جهة الشمال الغربي على امتداد الطريق العامة (بطن الوادي) المنحدرة من اعلى مكة . بمحاذاة جبل هند والمؤدية الى مركز البيوت ، وكان الرسول ﷺ في ساقة هذا الرتل وجند الله تندفع بين يديه .

والرتل الثاني (المُجَنّبة اليُمنىٰ)

بقيادة خالد بن الوليد ومعه من القبائل أسلَمُ وسُلَيْم وغِفار وجُهينَة وقُضاعَة وأخريات ، يتقدم ويدخل من الجهة الجنوبية الغربية الى (أسفل مكة) ثم يُشرّق صُعُداً ليستدير عبر اللِّيط الى الخَندمة بخيالته السريعة الحركة وليغرز رايته عند أدنى البيوت .

والرتل الثالث (المُجَنّبة اليُسرىٰ)

السريعة الحركة ايضاً (بقيادة الزبير بن العوام يتقدم من الجهة الشمالية الشرقية ليركز رايته عند الحجون (المنعطف الشمالي) قرب المقلاة (مسجد الراية) بعدئذ[٥٤] .

الرتل الرابع (القوة الضاربة)

رتل الانصار (بقيادة سعد بن عبادة ، يتقدم ويدخل مكة من الجنوب الغربي من ثنية كُدىً (الحجون الجنوبي) ويغرز رايته هناك[٥٥] وصدَرَ الأمر النبوي الى قادة الارتال بتجنب القتال ما ساعدت الحال مستثنياً أفراداً (أباح دماءهم لم يتجاوز عددهم العشرة لشدة خصومتهم لدين الله ولرسوله وتحريضهم الناس على أثارة الفتن[٥٦])

إن حرص الرسول ﷺ على حقن الدماء جاء عن سجية فطرية لنبي رؤوف وحفاظاً على صلة الرحم ووشيجة القربى ورابطة المعايشة السالفة وميزة الاحتواء ، احتواءالمعاندين والمكابرين بالرحمة والعطف ولين الجانب وحسن المعاملة والتجاوز عن السلبيات ، ومع هذا فقد أظهر القوة والجيش اللّجب تثبيطاً لعزائم المناوئين ولمن قد تُسَوِّل له نفسه التصدي لجنود الله التي لا قِبَل لهم بها ولا طاقة . وهذا ما يُدعى في الفكر العسكري المعاصر بالردع السوقي بالتهديد باستخدام القوة دون استخدامها وقد اضفى الرسول ﷺ على هذا فضيلة لين الجانب والسماحة والنّدى . إنّ من صميم حبّ المعرفة والاقبال عليها التطلع الى تقصي اسباب هذا التقسيم الرباعي للارتال هذه وتبني

الاحاطة الواسعة ، بل التطويق ،. وربما يصح القول توطئة للاجابة واستناداً الى النهج الحاضر ، ان هذا التقسيم يسمح بالقيام بهجمات متعامدة على منطقة حيوية لاجبار العدو على الانفتاح الواسع وتوزيع قواته على اربعة اتجاهات دون تركيزها على محور واحد . كما أنه لو قُدِّرَ للعدو صَدُّ أحد الارتال أو أكثر فان بقية الارتال ستتابع التقدم وتصل الى اهدافها المرسومة لها فتحقق النجاح وتحرز الظفر . وفضلًا عن هذا فإن التطويق يضيق الخناق على العدو ويحصره في منطقة ضيقة مما يجبره على الإستسلام دون الانسحاب والقتال في منطقة اخرى اكثر صلاحية له ، واذا ما تمكن من الهرب فسيهرب متسللًا وحداناً وجماعات . كما أن التطويق بالخيالة الشريعة الحركة البعيدة المحور سَيُدخلها المنطقة المقصودة في آن واحدٍ أو في أوقات متقاربة مع بقية الارتال عند حساب السرعة والمسافة بدقة ، لان المحور الواحد أو المحورين لا يساعدان على استيعاب عشرة آلاف مقاتل يُطلَبُ منهم القيام بعمل جماعي موحَّد في آن واحد لتحقيق غاية مشتركة . وأخيراً فان الإرهاب المعنوي والقلق النفسي والخوف من المجهول والإحباط الفكري ، كلُّ اولئك اذا لازموا العَدُوَّ المُباغَتَ بهذه الغزوة الحجون (الحركة الواسعة النطاق) ستفقده توازنه وتُخِلُّ بترتيباته لان المباغتة تشلُّ اكبر العقول وَعْياً فلا يتمكن من سلامة التفكير ولا من رصانة التدبير ، ولا حتى تقدير اهمية المحاور وأسبقيات المعالجة فيقع في حيرة محبطة .

قريش وحلفاؤها :

مما أسعفتْ به المصادر أنَّ قريشاً تَمَكَّنتْ يوم الاحزاب (غزوة الخندق) من جمع العديد من القبائل العربية كغَطفان وفَزَارة وسُلَيم وبني مُرَّة وأشجَع وغيرها لمعاونتها في حرب الرسول ﷺ ودينه الجديد عند مشارف المدينة المنورة أي على بعد أربع مئة كيل عن مستقر قريش ، فهي إذن ـ على الرغم من دخول غالبية تلك القبائل في الإسلام ـ لا تعدم إمكان جمع وتأليب القبائل المجاورة لمكه والحليفة والمنتفعة للتعاون معها حرصاً على المصالح المشْتركة .

ان قول الرسول ﷺ : « الحرب خدعة » وتواصله في خداع قريش عن وقت الحركة واتجاهها وغايتها ، ثم بركة دعائه من الله ان يأخذ على قريش أبصارهم فلا يرونه الا بغتة ولا يسمعون به الا فجاة ، أوقع قريشاً في مزالق التفريط بالامن وتدني الهمم وخمول الاحساس وتبلد الشعور ونكوص الإرادة (فلم تتمكن من جمع سوى ناسٍ من بني بكر وبني الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل آستَنْصَرَتْ بهم[٥٧]) فضلًا عن اوباش من الاحابيش والارقاء تجمعوا في الخندمة ، وهو جبل جنوب شرقي مكة وعلى رأسهم صفوان بن أمية وعكرمة بن ابي جهل وسهيل بن عَمْرو ، يحشونهم ويثيرون في نفوسهم حميَّة الجاهلية .

إنطلاق الارتال الى اهدافها :

سبق البيان عن امتعاض ابي سفيان من مقولة سعد بن عبادة : « اليوم يوم الملحمة ، ... » فارتأى إخبار الرسول ﷺ على جناح السرعة بنيَّة سعد المُبَيَّتة للحدِّ من غلواء صولته المُرتقبة ، وكانت الارتال منطلقة في محاورها الى اهدافها عندما (حاذى ابو سفيان رسول الله ﷺ وناداه مستجيراً : يا رسول الله ، أَمَرْتَ بقَتْل قومك ؟ زعم سعد ومميَّته حين مرَّ بنا واسمعنا أن اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أَذَلَّ الله قريشاً ! . وإني انشدك الله في قومك فانت أبرُّ الناس وأرحم الناس وأوصل الناس . وقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان : يا رسول الله ما نأمنُ سعداً أن يكون منه في قريش صولة . فقال رسول الله ﷺ : « اليوم يوم المرحَمَة ، اليوم أعزَّ الله قريشاً » . وبعث بعمامته مع علي بن ابي طالب أمارةً الى سعد يخبره أن يسلِّم اللواء الى ابنه قيس[٥٨]) وبهذا يبقى اللواء مع الانصار فالوالد والولد سواء في الشرف والمجد . وكان سعد قد وصل الحجون عند جبل قُعَيْقِعان (المنعطف الجنوبي / الثنية) وركز اللواء فيه ، ثم تسلمه قيس وأندفع الى أمام حتى ركز اللواء عند الركن .

ويجدر بنا التماس العذر لمقولة سعد الانفعالية هذه لانها لم تات من فراغ . فبالرجوع القهقرى مع كتَّاب السيرة الى أمر قد جرى بعد اكتمال بيعة العقبة الثانية ـ قبل ثماني سنوات من فتح مكة ـ نرى أن الرسول ﷺ عَيَّنَ إثني عشر نقيباً مدنياً لنشر الدعوة الاسلامية هنالك ، ومنهم سعد بن عبادة . وما ان علمتْ قريش بالأمر حتى خرجت في طلبهم قبل شخُم الرحال من (منىً) الى (المدينة) عائدين ، فافلتوا منها (إلا سعداً فادركوه باذاخر فاختنوه وربطوا يديه الى عنقه بنِسْع رَحْلِهِ (سير عريض) ثم أقبلوا به حتى اذا ادخلوه مكة يضربونه ويجذبون بشعره الكَثّ[٥٩]) وهكذا يظهر للمراقب المحايد أن عالقة الماضي أثارت بارقة المواضي لدى سعد وحميته فقال ما لم يفعل ووصل الى الحجون وسيفه البتّار مكنون التزاماً بامر الرسول ﷺ . لذا سندع الرتل الرابع (القوة الضاربة) التي لم تضرب ، وقد اضطرنا الحدث السابق الى تقديم الكلام عليه ، ولنعد الى الرتل الاول (القلب) المُنصَبُّ من أذاخر الى الهدف فقد نَفَّذ واجبه ودخل مكة حسب الخطة المرسومة مع بقية الارتال لعشر ليالٍ بَقِيتْ من

رمضان سنة ثمان هجرية الموافقة لليوم الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ثلاثين وست مئة ميلادية ، واستقر على مشارف السفح الامامي لجبل هند ضارباً قبة (مقر قيادة) للرسول الفاتح ﷺ يشرف منها على سير أعمال بقية الارتال .

وكذلك أنجز الرتل الثالث (المُجَنِّبة اليسرى) واجبه وركز رايته أعلى مكة في ثنيّة المَعْلَى أو مقبرة المَعلاة (قرب مسجد الراية لاحقاً) . لم تُلاقِ الارتال الثلاثة الانفة الذكر أي مقاومة ولم تسفك دماً . أما الرتل الثاني (المُجَنِّبة اليمنى) (بقيادة خالد ابن الوليد فقد أصطدمت مقدمته عند الخَنْدَمة بجمع قريش وأوباشها وفيهم صفوان بن أميّة وعكرمة بن ابي جهل وسهيل بن عمرو ، وحاول خالد دخول مكة فمنعوه وشهروا السلاح على جند الله ورموهم بالنبل وناوشوهم شيئاً من قتال وهم يقسمون ألا يدخلها محمد وجنده عنوة أبداً[٦٠]) (فاضطرَّ خالد الى قتالهم وبرقت السيوف والاسنّة وانطلقت الرماح وقاتلوهم من الخَنْدَمة حتى الحزورة (سوق بمكة)[٦١])

فقتلوا من المشركين أربعة وعشرين من قريش ، واربعة من هذيل ، وحاقت الهزيمة بالباقين متفرقين ذات الشمال وذات اليمين أنفاراً وعزين ، قد تمزّق جمعهم شرَّ مُمزق ، فمنهم من تسلق المرتفعات وفيها انزوى وتفرق ، ومنهم من توارى في الازقة هرباً من المأزق ، واتبعهم المسلمون والكُلُّ ـ الطرفان ـ يسمع أبا سفيان وحكيم ابن حزام يصيحان : (يا معشر قريش ! عَلامَ تقتلون انفسكم ؟ هذا محمد قد جاءكم بما لا طاقة لكم به[٦٢])

(من دخل دار أبي سفيان (وهي باعلى مكة) فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام (وهي باسفل مكة) فهو آمن ، ومن كف يده ووضع السلاح ودخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، فعاد المتفرقون يقتحمون الدور ويغلقون أبوابها بعد طرحهم الاسلحة في الطُرقات فياخذها المسلمون[٦٣])

(ومن شعر عمر بن الخطاب يذكر زَتْلَي الخيالة غداة فتح مكة المكرمة قوله[٦٤] .

ألـم تَـرَ أنَّ الله أظـهـرَ ديـنَـهُ
عـلـى كُـلِّ ديـنٍ قَبْـلَ ذلـك حـائـدِ
وأمكنَـهُ مِـن أهـلِ مَكّـةَ بَـعْـدَمـا
تَـداعَـوا الـى امـرٍ مِنَ الغَيِّ فـاسِـدِ
غَـداةَ أجَـالَ الخَيـلَ فـي عَـرَصَـاتِهـا
مُسَـوَّمَـةً بـيـنَ الـزُّبَيـرِ وخـالـدِ
فـأمسـى رسـولُ الله قـد عَـزَّ نَصـرُهُ
وأمسـى عـداهُ مِـنْ قَتيـلٍ وشـاردِ

ولمّا ظهر رسول الله ﷺ على ثنية أذاخر نظر الى بارقة السيوف فقال : ما هذه البارقة ؟ ألم أنْهَ عن القتال ؟ . قيل : يا رسول الله قوتل خالد بن الوليد ولو لَمْ يُقاتَلْ ما قاتَلَ ! فقال رسول الله ﷺ : قضى الله خيراً[٦٥]) وقُتل مِنْ خيالة المسلمين فارسان عندما سلكا طريقاً غير معهودة ، وهما كُرزُ بن جابر ، وخُنَيس بن خالد بن ربيعة كما قتل في المناوشة سَلمة بن الميلاء الجُهني[٦٦]) وثار نقاش حول « هل فتحت مكة عنوة؟ أم صلحاً ؟ لمكان الامان المُعْطَى لاهلها ! » ، (فذهب جمهور أهل العلم الى أنها فُتحت عنوةً ولهم أدلتُهم ، وذهب قلة آخرون الى أنها فُتحت صُلحاً ولهم أدلتُهم أيضاً[٦٧]) ولا مجال هنا للإفاضة في الترجيح . (وكان فتحها يوم الاثنين على الارجح وقيل الجمعة[٦٨]) .

السماحة البالغة :

ممّا قاله رسول الله ﷺ يوم دخل مكة المكرمة ووقف على باب الكعبة : « لا إله إلّا الله وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَه ، ونَصرَ عَبْدَه ، وهَزَمَ الاحزاب وَحْدَه ...) يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء .... ، الناس لآدم وآدم من تراب ، ثم تلا آية « يا أيها الناس إنا خَلَقناكم مِنْ ذَكر وأنثى وجعلناكُمْ شُعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمَكُمْ عِنْدَ الله أتقاكُم .... »[٦٩]

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ماترونَ إني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : فاني أقول لكم كما قال أخي يوسف « لا تَثْريبَ عَلَيكُم اليَوْمَ ، يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُو أَرْحَمُ الرّاحِمينَ »[٧٠] .... ثم قال ﷺ : إذهَبُوا فأنتم الطُلَقَاءُ ![٧١] . ثم أستلم الركن بمِحجَنِه وكبّرَ المسلمون لتكبيره ، وحَطّمَ ومن معه من المسلمين ، الاصنامَ وتلا آية « جَاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطِلَ كان زَهُوقاً[٧٢] » وهكذا رَدّه رَبُّه « انَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعَادٍ .....[٧٣] »

بعدئذ أقام رسول الله ﷺ بمكة قرابة خمسة عشر يوماً لينتقل بعدها الى حيث تحول مركز ثقل المشركين الى قبيلتي هوازن وثقيف اللتين سارعتا لملء الفراغ وقيادة المشركين لحرب المسلمين فكانت غزوة حنين والطائف التي أستثمر فيها الفوز .

العبر ممّا غبر :

هذا عنوان فرعي تراثي ، يحظى بمضمونه قارىء الكتب العسكرية المعاصرة بصيغة الدروس ، او الدروس المستنبطة ، او المستحصلة ، او الدروس المستفادة . وهي العبر التي تظهر من فعاليات القوات المسلحة للطرفين ، جنداً وقادةً ، عدّةً وسلاحاً ،

فناً وتنظيماً ، فكراً وتطبيقاً ، مبادىء وابداعات ، واشياء اخرى ، وتكون هذه العبر حصيلة مستساغة للإفادة منها حاضراً ومستقبلاً بتدبُّر معطياتها وتبني فوائدها وتطويرها ونبذ محاذيرها . والعبر يوم الفتح المبين هي :

توخي الهدف وادامته .

غالباً ما يكون لكل حركة حربية هدف أسنى (مقصد بعيد) ودون الوصول اليه اهداف دنيا مرحلية . وربما اجتمعت هذه الاهداف او بعضهافي وقت واحد . وعليه يلزم في كل الحالات وضع الهدف الأسنى باسبقية عالية تحت المراقبة المكثفة المتواصلة من اجل القدرة على اتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة بمعالجة المتغيرات وما لم يَدُر بخَلَدٍ او يكن في حسبان .

ومن هنا كانت قريش ، مكاناً وامكانات ، هي الهدف الدنيوي القريب المتوخى من اجل التوصل الى الهدف الديني الأسنى . وهذه الكينونة فرضتها أهمية قريش الدينية الوثنية المتأتية عن وجود الكعبة ذات الاصنام المعظمة ومباءة الحجيج كل عام ، ومحط رجال التجارة واسواق العرب ، ومركز العمليات الاقتصادية الجنوبية والشمالية (رحلة الشتاء والصيف) ، فضلاً عن ملاءمة الأرض للتقدم اليها ، وأن طبيعة البلد المكيّ معروفة للجميع لكثرة التردد عليها ، وتسهل المناورة فيها لتعدد المداخل اليها . وقبل هذا كله وفي طليعته تحقيق الهدف الديني الأسنى وهو السيطرة على البيت الحرام . قال تعالى ﴿ إنّ أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للنّاسِ للّذي ببكّةَ مُباركاً وهُدى للعالمين[74] ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذْ جَعلْنا البَيْتَ مَثابةً وأمْناً للنّاسِ[75] ﴾ ومن بعد السيطرة التطهير الشامل وإزالة آثار الباطل وإزهاقه وإعلان مبادىء الحق والعمل بها الى قيام الساعة ، وهذا ما أوصى به الله جل جلاله رسوله الكريم بقوله ﴿ وقُل جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً[76] ﴾

التعرُّض / الغزو .

لنكون على بيّنة من مصطلح التعرض ، وليتسنى لنا ربط المعاصرة بالتراث وتمحيص الاصل القديم للتعرض نستانس بقوله تعالى ﴿ . قال رَجُلان مِنَ الذّين يخافون أنْعَمَ الله عليهما ادخُلُوا عَلَيهِم البَابَ ، فإذا دَخَلْتُمُوه فإنّكُمْ غَالبونَ ...[77] ﴾ وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا قاتِلوا الذّين يَلونكُمْ مِنَ الكُفّارِ وليَجِدُوا فيكم غلظَةً ...[78] ﴾ وقوله جل جلاله ...اذا ضَرَبوا في الأرضِ أو كانوا غُزّى ...[79] ﴾ وقال رسول الله ﷺ يوجّه جنوده الى الغزو « اغْزُوا بأسم الله وفي سبيل الله . وقاتلوا من كفَرَ . اغْزُوا ولا تَغْدِروا ...[80] »

إن معنى « ادخُلوا عليهم الباب » ، هاجموهم وتعرضُوا لهم في عقر دارهم . وانّ كلمة الغُزّى جمع مفردة « الغازي » . وكلمةُ « الغزو » تعني « لغوياً » (المسير الى الأعداء وقتالهم في ديارهم[81]) وتعني إسلامياً الخروج لمقاتلة العدو مقاتلة عادلة ضمن أساسيات شريعة الخَلّاق وأدبيات مكارم الاخلاق . ان المصطلح المعاصر للتعرض لا يبتعد عن هذا المفهوم اللغوي كثيراً ولا عن المفهوم الاسلامي إنْ لم يكن هناك اعتساف أو انتهاك حقوق . وقالوا فيه (الهجوم خير وسيلة للدفاع) . إنّ التعرض أو الغزو يمكن أن يؤدي النتيجة المبتغاة بشيء من المجازفة والمخاطرة المحسوبة .

لقد تحول المسلمون من الدفاع الى التعرض او الغزو بقرار الرسول ﷺ بعد تَفَرّق الاحزاب يوم الاحزاب (غزوة الخندق) إذ قال « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير اليهم[82] » . وبدأ الاستعداد القتالي وتهيئة الامة المقاتلة للجهاد التعرضي ، وتعززَ القرار عملياً بالتعرض لخَيْبَر ، ثم وعد الرسول ﷺ عمرو بن سالم بالإنتصار لخزاعة بقوله « نصرت يا عمرو بن سالم ... ولا نُصِرْتُ إنْ لمْ أنصُر بني كعب » ثم استنفر القبائل من شتى الديار وسار بهم وبالمهاجرين والأنصار لتنفيذ ما اتُّخِذَ من قرار .

التحشد الملائم :

يُرادُ به حَشْدُ قَدْرٍ ملائم من الجهد المادي والمعنوي حصيلة العَدَدِ والعُدة (السلاح والكراع والرجال) مع مراعاة الاقتصاد بالموارد المادية وزجّها في الزمان والمكان المناسبين لبلوغ غرض فائق أو غاية كبرى .إنّ التفوق الساحق ، كمّاً ونوعاً ، ليس مطلباً لان الحشد الملائم الصحيح قد يسمح لموارد قليلة بالتغلب على موارد كثيرة عند توجيه الحشد الى أسبقية عليا قبل التي دونها مع مشاغلة سائر الاسبقيات وتثبيتها . وللمبادأة شان كبير في صيغة التَحَشُّدِ وصفة الحَشْدِ ونوعه .

وايضاحاً لمعالم العبرة ومواضع القدرة نقول أنّ الحشد الأسلامي كان ضخماً جداً لا يتناسب وحَتْمِيّة الاقتصاد بالقوة وهذه نقطة أخلّت بالتوازن المنشود ، إلّا أنّ ما يبررها ويسوّغ قبولها هو تاثير الضخامة في نفسية العدو بغية منال الظفر بلا قتال او التهديد بالقوة وليس استخدامها . كما أنّ هذا الحشد لا يشكل معضلة ادارية وتموينية كبيرة لبساطة معيشته وقلة ميرته واكتفائه بالمتيسر من التمر واللبن والسويق والدقيق ، ونَحْرِ الجُزُرِ أحياناً لفطور وسحور . ويتقوت الحيوان بالصِّلّيان (خُبزة الإبل) وبغيره من عشب المكان . ويحفظون للخيل خَلاها في مخاليها (العَلُوفَة في العلائق) . اضف الى ذلك مُسوغاً آخر وهو أنّ ضخامة العدد يوفر الاحتياط الذي يعالج ما ليس في الحسبان

فيتحقق شيء من المرونة يساعد على المناورة لتخفيف ضغط معادٍ او تعزيز اندفاع عزوم او معالجة أكثر من موقف حارد في آن واحد عند الضرورة، والاحتمال الوارد تدخُّل هوازن وثقيف لحرف الفيلق عن هدفه.

الإقتصادُ بالقوة :

يعني توفير الجهد الاكبر للهدف الاصعب والعكس صحيح ايضاً. او اعادة توجيه القوى نحو الافضل. وغالباً ما يُعَدُّ عدم الخسارة فوزاً. وقد بيّنّا في فقرة التحشد الملائم تخلخل الموازنة بين الحشد الضخم والاقتصاد بالقوة، وبررناها. ونضيف هنا علة اخرى جاءت عن حكمة الرسول ﷺ وسبق نظره وشمول خطّته العامة وفراسته فهو سيد المؤمنين، والمؤمن ينظر بنور الله، وقد علمنا أن فئات المدينة قد تكهّنوا باستعداد عدة اعداء منهم قريش، وهوازن، وثقيف، ودوس. فهل أعدّ الرسول ﷺ هذا الفيلق الجرار تحسُّباً لتدخل هؤلاء الاعداء معاً او على التعاقب او التداخل في ماجَرَيات نهجه؟ فان كان ذلك كذلك فلا ضعف ولا تخلخل موازنة! وقد أثبتت الاحداث تهيؤ هوازن وثقيف وحلفائهما للتصدي في أقرب فرصة مُتاحة وصَدَقت العِلة الاخرى بانتقال الفيلق الإسلامي بعد فتح مكة لقتال هوازن وحلفائها.

الإحتواء :

المقصود به اجراءات قوامها السماحة وخفض الجناح وصدق الطوية للوصول الى نهج يوقظ الضمائر ويتغلغل مفهومه في النفوس ويدغدغ المشاعر الخَيّرة لتستجيب الى داعي الإيمان المبشر بأخوة البشر وحرية الانسان المستضعف ونقله من عبادة الاوثان والخضوع لطغيان الإنسان الى عبادة خالق الاكوان الرحيم الرحمن.

ومن أنماطه هنا: الدعوة الى الله على بصيرة، والصفح الجميل عن حاطب بن ابي بلتعة وغَبْنِ هوازن، والمنُّ عن الاسرى، والتنازل عن بعض الحقوق الخاصة، وتوفير الحبوب عند القحط المكي، واستبدال الميرة بصرفها لقريش تعويضاً عن جلود مدبوغة كاسدة، وإقالة سعد بن عبادة بابنه قيس تقصّياً لِصِلة الرَّحِم وحذراً من استِحلالِ الحُرَم. واخيراً منح الامان لاهل مكة ثم إطلاقهم (اذهبوا فانتم الطلقاء) دون التعرض لاموالهم ومقتنياتهم سوى نزع السلاح للإسراع في تحقيق حالة السلم المطلوبة مع الصفح الجميل.

المباغتة :

شعورٌ يُفاجأ به الانسان بما لم يكن يتوقع، والمفاجأة تَنْفُضُ الفِكرَ مما استودع. وتتحقق المباغتة باختراع، أو ابتداع، أو فعل واعٍ، او قول يوسوس في الاسماع. وامثلتها على التوالي: اختراع سلاح جديد، أو ابتداع أسلوب نادر أو ممارسة فعل بذكاء فريد لا يقدر العدو على مواجهته أو إحباطه كممارسة أنماط مساعدة من الكتمان والسرعة والتمويه والخداع والتضليل، أو إشاعة قول يرفع من معنويات جند مبتدعه ويحط من معنويات خصمه. وقد يجتمع اكثر من فعل واحد في ميدان معركة واحدة، فيولد ذلك كله تأثيراً في نفسية العدو واعتباراته ويحدث ارتباكاً في موقفه أو خللًا في تطبيق خُطّتِهِ لا يلائم مصلحته ولا يوائم نهجه فيتحول ميزان القُوى تحوّلًا فعّالًا من جانب الى اخر، وتتمهد الطريق للنصر غير المكافىء للجهود المبذولة له، وبتعبير آخر يصير النصر اقل كلفة. وليس شرطاً ألا يعلم العدو بالاعمال المُقامة ضده، ولكن العبرة في أنه اذا علم بها في وقت متاخر يكون قد سُقِطَ في يده او تأخر في القيام بِرَدِّ فعلٍ مؤثر في مفرداتها، وأحياناً يكون قد عجز عن تدبر أموره حيالها، لان المباغتة (المفاجأة) تشل اكبر العقول وَعْياً. قال رسول الله ﷺ: « الحرب خَدْعَة »[83] [بفتح الخاء]. ومن تأويلات المقولة أن تباغت العدو بفعلةٍ أو أكثر مرة واحدة في منازلة واحدة لان العدو لا يمكنه التخلص منها فإن تكررت الخدعة فقدت عنصر المفاجأة الكبير التأثير عند الصدمة الاولى فقط. وفي الامثال العربية « لا يُخْدَعُ المرئي إلّا واحدة[84] ». ومن معطيات المباغتة في غزوة الفتح المبين ما يأتي :-

أ. حجم القوة وسرعة تحشدها.

كانت المدة بين ترديد المنادي: (من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليحضر رمضان في المدينة)، وانطلاق الفيلق ذي العشرة آلاف مقاتل عصر العاشر من رمضان زهاء عشرة أيام او اكثر قليلًا. وهذه مدة قصيرة لا تتناسب وهذا الكمّ الهائل من مختلف القبائل النازل من كل حَدَبٍ وصوبٍ نحو المدينة ليتحشد واخوته في الجهاد المهاجرين والأنصار. هذه السرعة فوّتت على قريش تطاول الوقت للاستعداد والاستحضار للمواجهة. وهذا الحشد بعد ان سمعت به قريش لاحقاً، زاد من ارتباكها وحَطَّ من معنوياتها الى دَرْكٍ أسفل.

ب. الكتمان.

هو الجناح الايمن للمباغتة، وبكتمان السر يُنال الظُفر،

واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . وقد أمر الرسول ﷺ بمسك أنقاب المدينة لمنع تسرب أخبار الاستحضارات . ودَعَا ربَّه أن يأخذ الاخبار والعيون عن قريش حتى يبغتهافي بلادها . كما كُتم عن جند الله ، إلَّا قِلَّة مسؤولة ، غاية الغزوة ومقصدها ومكان الهدف الرئيس ولم يُظهرها حتى ظَهَرَ في مَرِّ الظهران (منطقة التحشد الامامية) لقربها من العدو ، فان سمع العدو بذلك يكون قد فات الاوان لإتخاذ ردِّ فعلٍ مناسب . يَدُلُّنا على هذا قصيدة كعب ابن مالك التي أنشدها بين يدي رسول الله ﷺ في الشُقيا . وسؤال أبن حابس أبا بكر في قُديد بعد عقد الالوية والرايات عن مقصد سيد السادات من هذه الغزوة فأجابه (حيث يشاء الله) .

جـ . المخادعة :

هي الجناح الايسر للمباغتة . ومعناها (إظهار خلاف ما تُخفي مع ارادة المكروه للعدو من حيث لا يُعلَمُ[٨٨]) ويشاكلها التضليل والتمويه فيقال مَوَّه عليه الخبر أخبره بخلاف ما سأل عنه . والتورية ارادة شيء وإظهار غيرهُ ومن هذا القبيل إرسال الرسول ﷺ ثلاث سرايا الى ثلاثة اصقاع خلاف جهة مكة ، هي سرية الخَبَط وسرية خَضِرَة وسرية إضَم ، قبيل الإنطلاق الى مكة بنحو شهر واحد أو أنقُصَ منه قليلًا لتذهب الاخبار الى قريش مُمَوَّهةً فتتقد مُتَوَانية غافلة . ومن هذا القبيل أيضاً التوقيت الصائب ، ودليلنا عليه إجراء الحركة في شهر رمضان الذي تتقلص فيه الجهود عادة ، لما يلاقيه الصائمون من وطأة شدة العطش ومحدودية الطعام فلا يدور في خلد قريش أن ينشط المسلمون خلاله للقتال . أضف الى ذلك ممارسة المسير والتنقل نهاراً ، وهذا عمل غير متوقع في شهر رمضان . ويرجح صحة الدعوى عندنا هو أن المرحلة الاولى بدأت عَصراً وانتهت على مدى سبعة اميال (ثلاثة عشر كيلًا) عند صُلْصُلْ ، اي تعادل نصف مرحلة اعتيادية وذلك من اجل تنسيق ضبط المسير على الطريق : ثم المرحلة قبل الاخيرة وكانت من كُراع الغُمَيم الى مَرِّ الظهران ومداها خمسة عشر ميلًا (ثمانية وعشرون كيلًا) وقد وصلوا اليها عندما خَيَّم الظلام . وقياساً عليه يصح أن تكون قد جرت المراحل كلُّها نهاراً عبر طريق نادرة الطروق مع تحاشي الصخب والضوضاء وقرع الاجراس والحداء .

الامن .

سياج جميع الترتيبات التي يراد بها استحصال الوقت والمكان اللازمين لحشد القوات والقيام بالمناورة . وبه تتم المحافظة على القوات ويساعد على تقليل إحتمال تأثير فعاليات العدو على المصالح الحيوية . والأمن يزيد من حرية عمل القادة ويعين على المباغتة بكسب المعلومات عن العدو بوساطة عناصر الاستخبارات ومنع العدو من الحصول على المعلومات بوساطة عناصر الحماية ومكافحة استخبارات العدو . لقد وفر الرسول ﷺ مقتضيات الامن بإحكام السيطرة على الانقاب وباخراج الطلائع في أثناء المسير وبحماية المأوي الليلية بالحرس الذي كان رئيسه عمر بن الخطاب في اكثر من مرحلة . فضلًا عن تدفق المعلومات عن قريش بواسطة (الرتل الخامس) قبيلة خزاعة ، والعباس بن عبد المطلب الذي أَلتَقَاهُ في الجحفة مهاجراً ، ولا نستبعد أن يكون لاهل المهاجرين الماكثين بمكة ، ومن أخفى إسلامه من المَكِّيِّين شان كبير في تسريب المعلومات الى الرسول ﷺ . وقد بلغ الامن اقصاه في قُديد عندما عقد الرسول القائد ﷺ الالوية والرايات فبات الفيلق الاسلامي في نطاق من حديد وبأس شديد .

المعنويات .

هي القوة الروحية لإيماض الوقدة الذهنية والتي تخوض صراع الإدارات قبل صراع القطعات وفي خضمه . ومن اسلحتها الثبات والشجاعة والإقدام عندما تزل الاقدام والثقة المطلوبة والأمل المتفائل والحماسة والولاء وروح الجماعة وقوة الارادة والصبر حتى النصر والتصميم على الظفر .

ان القيادة الحازمة الرشيدة والضبط والألفة واحترام الذات والأيمان بعدالة القضية تساعد جميعها في بناء المعنويات وترصينها . وكذلك ألم الحرمان من الحق الطبيعي أو المكتسب وهدر الكرامة قد يؤديان الى اثارة المعنويات وتأجيجها بغية إعادة الحق الى نصابه . إنَّ العامل الروحي والنفسي والاعتباري أوقع من العامل المادي حَسْماً . وهذا مما ينهض بالقوة المادية لارفع من مستواها الطبيعي .

أن الفيلق الاسلامي بضخامته المعهودة ، وعقيدته الاسلامية الراسخة ، وقيادة رسوله الواثقة ، وحب جند الله لاسوتهم الحسنة نبيِّ الله . وبألم المهاجرين المبعدين عن دارهم المقدسة وحرمانهم من الاتصال باهليهم ، وبما لقيه بعض المستضعفين من إيذاء شديد قبل الهجرة ، وبنكبة خزاعة بقتلاها عند أنصاب الحرم وفي الحرم نفسه ، وبُنعرة الثأر التي لم تُخمد بَعْدُ . وبما في نفس سعد بن عبادة من لزوم محاسبة من اعتدى عليه سابقاً عند بيعة العقبة . وبإرادة المسلمين قاطبة تطهير البيت من الاصنام ، وبالامل الذي في نفوسهم ثقة بوعد ربهم لهم بقوله ﴿ ... لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إنْ شاء الله آمنين ... ﴾ كل اولئك وغيره ، دون استقصاء ، أظهر لنا المعنويات الفائقة التي

تمتع بها جند الله الغالبون . وعلى النقيض والمعاكسة كانت الانهيارات النفسية والاعتبارية والمعنوية لقريش وحلفائها . وتلك الانهيارات المتلاحقة منذ معركة الخندق وتفرق الاحزاب ، وصلح الحديبية وقيام الدولة الاسلامية ، وفتح خيبر ، وازدياد القبائل المُنضَمة الى المعسكر الاسلامي وانتشارالاسلام واتساع رقعته تباعاً يوماً بعد يوم ، وخيبة مسعى أبي سفيان لتمديد مدة صلح الحديبية ، والقحط الذي لَحِق بمَكّة وأهلها ، ووصول عشرة الاف مقاتل الى مَرّ الظهران في الثلث الثاني من شهر رمضان وإيقادهم المزيد من النيران للتهويل والارهاب ، وعرض الفيلق في خطم الجبل لبيان حقيقة قدرته المتناهية امام ابي سفيان مسؤول قريش فيما يختص باعلان الحرب .

الوحدة الثلاثية .

هي وحدة العقيدة ووحدة القيادة ووحدة الفرض (الهدف) وتبلورت وحدة العقيدة عند المسلمين قاطبة بالايمان بالله وحده ، وبملائكته وكُتُبه ، ورُسُله ، وباليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر .

والإيمان ، شرعاً ، هو الاقرار باللسان ، والتصديق بالجَنان ، والعمل بالاركان عن يقين خالص واطمئنان . وإن أيمان جنود الرحمن وقياداتهم بربهم يجعلهم يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، وهذا يسهل جَنْيَ النصر واحراز الفتح .

وقد أوجبت وحدة العقيدة الموالاة (المَحبة والنُصرة) بين المؤمنين دون الاعداء . قال تعالى « يا أيها الذَّينَ آمنوا لا تتخِذوا عَدُوي وعَدُوَّكُمْ أولياء تُلقُون إليهم بالمَوَدَّة ... » وأوجبت التكافؤ بالدماء . قال الرسول ﷺ : « المؤمنون تتكافا دماؤهم ، وهم يَدٌ على مَنْ سِواهم ، ويسعى بذِمتُهم أدناهم ... »[٨١] اي أن المؤمنين متساوون في القصاص والديات ، وهم مجتمعون على اعدائهم ، لا يَسَعُهُم التَخاذل بل التعاون فيما بينهم واذا أعطى أحدٌ لجيش العدو أماناً جاز ذلك على جميع المسلمين وليس لهم أن يَخفروه (ينقضوه) . وقد اعطى سَيُدهم رسولُ الله الامان لقريش فالتزموا به . أما وحدة القيادة فتجلت بطاعتهم لله ورسوله ، وامتثالهم لاوامر ووصايا وتوجيهات سيد البشر الذي أحسن قيادتهم بزكَنِه[٨٢] وفراسته وهدايته وكَونه الأُسوة الحَسَنَة لهم ومشاركته إياهم في صفحات القتال والغزوات الثقال ناهيك به من رسول كريم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم .

امّا وحدة الفرض الذي هو إحقاق الحق وإزهاق الباطل لتكون كلمة الله هي العليا فقد تجلَّت في التعاون والتكاتف والتضامن وتوجيه كل الطاقات والأمكانات والفعاليات العقلية والمادية تجاه المقصد الأسنى .

الارض .

تتحكُم في دراسة الارض مقولتان . الاولى : قَتَلَ أرضاً عالِمُها وقتلتْ أرض جاهلها . والثانية : ببرز على المرتفعات تنتَصرْ .

وقد تنقل الفيلق الاسلامي بدلالة عمر بن الخطاب السفير المُخَضرم والخبير المُغلمْ في مجاهيل صحراوية معروفة لديه . ولمّا جاء وقت الانطلاق من ذي طُوَى الى الأهداف التعبوية للارتال الاربعة ، إتجه رتلان ، خَيّالةٌ ورَجّالَةٌ ، مُنْصَبّان من مكان التفرق الى أعالي مكّة ، وكذلك فَعَلَ سعد بن عبادة قائد رتل الانصار ، أي دخلوا من عَلٍ (من المرتفعات الاعلى الى الاوطا) . وقد انصبَّ خالد بن الوليد بخيّالته جنوباً ، فشرقاً ، ثم اعتلى جبل الخَنْدَمة لينحدر الى أدنى البيوت .

البساطة .

الافكار السليمة الحصيفة تَتَحَوّل الى أوامر أو توجيهات دقيقة بعبارات واضحة جليّة لا تحتمل اللُبس ، وهذا يقلل من احتمال سوء الفهم الذي يقود الى الارتباك أو الخطأ في التنفيذ . ولا جَرَم أن رسول الله ﷺ أُوتي جَوامع الكَلم . ومن اوامره وتوجيهاته ووصاياه البسيطة الواضحة أقواله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فَلْيَحْضُرْ رمضان في المدينة . » ثم قال « أغْزُوا باسم الله وفي سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، ولا تَغْدِروا ... » ثم قال لقادة الارتال ما معناه « تَجَنَّبوا القتال ما ساعَدَت الحال » - او كما قال - وقال أيضاً « من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . وكانت واسطة عقد الكلمات العصماء : « إنقلبوا فانتُم الطلقاء » .

قابلية الحركة وسرعتها .

تُعَرّف قابلية الحركة بانها إمكانية الحركة السريعة ، للقطعة العسكرية ، في منطقة معينة ، وبسيطرة حازمة ، مع أفضل استخدام لموارد القوة ، في مدة محدودة ، تحت ظروف مختلفة ، لتنفيذ واجب معين .

أما سرعة الحركة فتقع ضمن الناحية الطبيعية ، والواسطة المستخدمة لتقليل احتمال المقاومة ، وقد تشملها المعلومة التي تفيد بان المسافة لا تُقاس بالاكيال فحسب بل وبالوقت المصروف لقطعها . وانّ الخط المستقيم ، في العرف العسكري ، ليس غالباً أقصر مسافة بين نقطتين ، نقطة الانطلاق والهدف المنشود . إذ قد تكون المناورة بالالتفاف أو بالتطويق أو تخطي المقاومة

المعترضة على الطريق أسرع وأسلم تعبوياً وسوْقياً من نطح الهدف جبهوياً . ويتمُّ التغلُّب على المقاومة الرئيسة باستغلال عنصري الحركة والمباغتة . وتتوقف سرعة الحركة على حساب عامل الوقت والمسافة وطبيعة الأرض وقابلية التنقل !

فما مقدار تطبيقات الفيلق الإسلامي لهذه المستلزمات ؟ إن المعطيات المكتوبة تشير الى أن الفيلق الإسلامي كان سريعاً في اتخاذ القرار ، سريعاً في تحشده ، سريعاً في تنقله ، سريعاً في احتلال هدفه . إنّه تنقل ، باعتبار ضخامته ، خلال عشرة أيام من المدينة الى مكة بسيطرة الرسول ﷺ متمتعاً بلياقة بدنية فائقة لخفة تجهيزاته وكثرة تنقلات أفراده الاعتيادية ، ومُدجَّجاً بالأسلحة المعهودة كلّها من سيوف بتارة ورماح خطيّة وأقواس عربية ، وبعض الدروع الملبوسة والبَيْض (الخُوذ) الحمايوية وذلك في فصل الشتاء في كانون الثاني ، والجند صائمون والجهد شديد حتى وصلوا الى كُديد فأفطروا ليَتَقَوّوا على عدوهم عند المنازلة ببطن مكة لمّا تُغلَقُ الطُّرُقُ . وكانوا قد زادوا من سرعتهم بامتطاء الابل واعتقابها (ركوبها بالتعاقب والتناوب) في أثناء التنقل . والإبل قلّما تتطلّب الماء بالشتاء في الصحراء قبل عشرة أيام من آخر ارتواء وتقتات على المتيسر من الاعشاب المحلّية . اما الخيل المعقود في نواصيها الخير فتُجْنَبُ وينفق عليها بسخاء وتُخدم خدمة ممتازة لتحتفظ بنشاطها حتى المنازلة الكبرى أو المحتكم الحيوي . وهنا زُجّتْ في المنطلق الاخير . مُرَخِّلَة التطويق والصولة والإقتحام . كما جرت الاستفادة من طبيعة الارض الصحراوية بالتنقل حرصاً على المباغتة عبر سبيل بريّت يعيا بها الدليل الخِرّيت ويندر سلوكها لغير المضطر والصعلوك . وأخيراً كان الفيلق الاسلامي سريعاً يوم إقتحام البلد الحرام .

استيعاب المحور .

الاستيعاب لغة هو السّعة . واستوعبَ المكانُ الجند أي وسعهم . وكما يقال استيعاب الجسر كذا سيارة ، واستيعاب مدرجة المطار كذا طيارة ، يقال استيعاب المحور كذا كتيبة ، إنَّ استيعاب المحور (بسَعَتهُ) معلومة لازمة للمخطط العسكري عند وضع الخطة وتبقى نصب عينيه عند حساب الوقت والمسافة وقوات الطرفين والوسائل المُستخدمةُ وبقيّة العوامل المتأثرة بالسعة والمؤثرة فيها دفاعاً وهجوماً .

إنَّ محوراً واحداً أو محورين متجهين من ذي طوى (منطقة الانطلاق) الى منطقة مكّة لا يستوعبان عشرة آلاف مقاتل ينجزون واجباً محدداً في نهار يوم واحد ، بصرف النظر عن موازنة العوامل ، فلا بد أن سيبقى كثير منهم خارج الواجب . وعليه يجب توزيعهم على المحاور الاربعة كُلّها ، توافقاً مع سائر متطلبات الواجب ، لتتكلَّل الغزوة الحجون بالنصر الحاسم . إن هذا ما حدث تملّاً يوم الفتح المبين فقد تعامدت المحاور منجزة الغرض المنشود .

الإستثمار السوقي .

الإستثمار ارادة النَّماء في الثمر او المال وما شابه ذلك . وفي الحرب توسيع شقة الهدف ، من أجل الامن ، بعد احتلاله وملاحقة العدو حتى يتعزز النصر الإبتدائي . واستناداً الى مقدار حشد الغزوة الحجون وتفوقه عدداً وعُدة ، والى ما علمنا من سبق نظر الرسول وفراسته في حسن تصوره لتدخل هوازن وحلفائها المتاخمين لقريش في ماجَريات الاحداث ، فقد تحققت الفراسة بما حدث فعلاً من تَرَأُس هوازن وثقيف لتجمعات المشركين في منطقتهما وتحشيدهم لمهاجمة المسلمين كسْباً للمبادأة وثيقّناً من أن الضربة المسلمة القادمة موجهة اليهم لا محال .

فكان انتقال جند الله بعد ايام قلائل من فتح مكة الى جهة هوازن أمراً مفروغاً منه ، قبل أن يفيقوا من هول ما سمعوا عن انهيار قريش في سويعات وارتهابهم من أن الفيلق الاسلامي قادم اليهم لاستثمار النصر وتعزيزه سوقياً بعد حنين . قال تعالى ﴿ وأعِدُّوا لَهُم ما اسْتَطَعتُم مِنْ قُوةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرهِبُونَ بهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ... ﴾(٨٨)

خاتمة الكلام .

أخرجَتْ نابتة (الدولة الاسلامية العالمية) ، ذاتُ النواة العربية شَطْأها رَسميّاً عندما وَقّعت قريش وثيقة صلح الحديبية في السنة السّادسة الهجرية . وظهرت للعيان فئتان متضاربتان ذاتا سيادة وقيادة ، المسلمون وحلفاؤهم ، وقريش وحلفاؤها .

في السنة الثامنة الهجرية شنّت قبيلة بني بكر ، مُمانَةً سِراً من قريش ، غارة شعواء فجائية على قبيلة خزاعة الامنة حليفة المسلمين . إسْتنصرت خزاعة المُبْتيّةُ المعتدى عليها المسلمين فوعدها الرسول ﷺ نصراً . وندمت قريش على إعانتها بني بكر فاوفدت ابا سفيان حمامة سلام لمصلحتها الى المدينة فلم يفلح وعاد ادراجه خائباً .

باشر الرسول ﷺ بالإعداد لغزوة حجون تجاه قريش ختم على اسرارها وكتم جملة أخبارها ليباغت بها قريشاً في عقر دارها ، فحشد عشرة الاف مقاتل على مشارف المدينة ثم سار بهم عصر الاربعاء لعشر ليال خلون من رمضان صياماً مجتازين احدى عشرة مرحلة نهارية لم يفطروا إلا عند قُديد لاقترابهم من العدو

وليتفزوا عليه . ثم ساروا ليُخيِّموا مساءً في مَرّ الظهران ويشعلوا النيران إرهاباً لقريش وآخرين . قال تعالى ● وأعدُّوا لهم ما أستطعتُم من قوة .... ● . بعدها عرض الرسول ﷺ الفيلق الإسلامي في اليوم التالي عند خطم الجبل على مرأى ومسمع أبي سفيان الذي تلصّص قبل يومين ليتجسّس لقريش لكنّه أسلَمَ ماخوذاً بقوة المسلمين وبأسهم ورجع عارضاً على قريش أمان الله ورسوله . أما الرسول ﷺ فقسم الفيلق على أربعة أرتال في ذي طوى ودفعهم يوم الاثنين بمناورة تطويق مُحكَمة الى أهدافهم وقد أوعز الى القادة بتجنب القتال الّا مضطرين . فاندفعوا واحتلوها مُطبقين أغلب مبادىء الحرب طواعيةً قبل ان يفطن اليها المُنظرون باكثر من ألف سنة .

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة اتُّجه الى الكعبة ووقف عند بابها مُوحِّداً الله شاكراً له صدق وعده بنصرة عبده . ثم صفح الصفح الجميل بقوله لقريش : إذهبوا فانتم الطُلقاء .

ثم استلم الركن وكبّر وتلا آية ● جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كانَ زَهُوقاً ●

وبها بلغ جهدي التمام وغاية المرام ، فإنَّ هذا أحسن ما وصلت اليه من تمحيص الروايات فعسى أنْ يكون جلُ البحث صواباً وان تَقِلَّ فيه مساحة الخطا . والله أسأل أن يهيّىء لنا الخير ويكتب لنا السلامة في الرأي ، والســـلام .

المصادر والمراجع والتعليقات

١ ـ نظرة جديدة في سيرة رسول الله . كونستانس جورجيو . ترجمة محمد التونجي ط ١ بيروت ١٩٨٣ ص ٣٢٥ . السيرة النبوية لابن هشام مج ٢ ص ٦٣٩ . السير الكبير للشيباني . محقق . ط مصر ١٩٧١ ج ١ ص ٩٦ .

٢ ـ التوبة / ١٢٣

٣ ـ البقرة / ١٩٣

٤ ـ الانفال / ٦١

٥ ـ الفتح / ٢٧

٦ ـ مغازي الواقدي . ط بيروت . تحقيق مارسدن جونس ج ٢ ص ٧٨٣ . السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا واخرين . ط ٢ مصر ١٩٥٥ مج ٢ ص ٣٨٩ . تاريخ الطبري ط ٢ مصر ١٩٦٧ . محقق ج ٣ ص ٤٤ . الكامل في التاريخ لابن الاثير ط صادر بيروت ١٩٦٥ ج ٢ ص ٢٣٩ .

٧ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٥

٨ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٩ . سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٣٩٤ . عيون الاثر لابن سيد الناس ط ٢ بيروت ١٩٧٤ ج ٢ ص ١٩٥

٩ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٣٩٥ . تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٥ . الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٠ .

١٠ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٨٦

١١ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٥ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٢ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٤١ .

١٢ ـ المظاهر الحضرية للمدينة المنورة . د . خليل السامرائي ط ١ الموصل ١٩٨٤ ص ١٧ .

١٣ ـ سيف الله خالد بن الوليد . للجنرال أ . اكرم . مترجم ط ٤ دمشق ١٩٨٢ ص ١١٤ بتصرف .

١٤ ـ لسان العرب لابن منظور . مادة (حجن)

١٥ ـ معجم ما استعجم . عبد الله البكري . محقق ط بيروت . معجم البلدان . ياقوت الحموي ط بيروت ج ١ المقدمة الباب الثالث . الطريق الى المدائن . احمد عادل كمال ط ١ بيروت ١٩٧٢ الباب الخامس ص ١٤٣ .

١٦ ـ معجم ما إستعجم مج ٢ ج ٣ ص ٩٥٤ مادة العقيق .

١٧ ـ غزوة بدر الكبرى محمد احمد شميل ط ٣ بيروت ١٩٦٦ ص ١٧ . الكيل : مصطلح اطلقه المجمع العلمي العربي بدمشق على الكيلومتر . د . اكرم العمري السيرة النبوية الصحيحة ج ٢ ص ٣٧٨ .

١٨ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٤٤٤

١٩ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٣٩٧ . الطبري ، تاريخ ج ٣ ص ٤٧ . الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٢ .

٢٠ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٦ . السيرة الحلبية ط بيروت ج ٢ ص ٧٤ .

٢١ ـ السيرة النبوية لاحمد زيني دحلان ط بيروت . ذكر المؤلف لابن دحلان ج ٢ ص ٢٣٢ ان قريشاً نكثت عهد الحديبية قبل رجب سنة ٨ هـ . ثم عاد فذكر في ج ٢ ص ٢٣٩ ان قريشاً نكثت عهد الحديبية في شعبان سنة ٨ هـ . وبالرغم من هذا التناقض فان سرية الخبط كانت في الواجب حتى رمضان سنة ٨ هـ فيكون قد تحقق الغرض من التمويه .

٢٢ ـ عيون الاثر ج ٢ ص ١٥٨ . زاد المعاد لابن قيم الجوزية ط مصر ١٩٧٠ ج ٢ ص ١٧٦ .

٢٣ ـ مغازي الواقدي ج ١ ص ٦ . عيون الاثر ج ٢ ص ١٦١ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٣٥ .

٢٤ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٧ . عيون الاثر ج ٢ ص ١٦٢ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٩٥ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٣٦

٢٥ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٩٨ . عيون الاثر ج ٢ ص ١٦٦ . تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٤٢ . الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٢

٢٦ ـ لعلَّ الصحابة الثلاثة كلُّ ذهب في اتجاه وربما ذهبوا معاً فالروايات متباينة في ذكر ذلك انظر سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٤٥ .

٢٧ ـ سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٤٥

٢٨ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٢٩٩

٢٩ ـ الممتحنة / ١

٣٠ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٠

٣١ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٤٠٠

٣٢ ـ السيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٦

٣٣ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٧
٣٤ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٧
٣٥ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٥
٣٦ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢٤ . حياة محمد واشنجتن أرفنج . مترجم ط القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٤ .
٣٧ ـ سنن ابي داود ج ٣ ص ٢٥ ؛ وهذا إرهاص لما يعرف اليوم بحالة فرض الصمت اللاسلكي قبل المعركة .
٣٨ ـ المائدة / ٨٣ .
٣٩ ـ سيرة ابن دحلان ص ٢٤٤
٤٠ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٠٢ ، ٨٠٣ .
٤١ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٠١
٤٢ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٣
٤٣ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨١٤ . زاد المعاد ج ٢ ص ١٨١
٤٤ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨١٤
٤٥ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٤٠٢ . تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٢ . الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٤ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٧٨ سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٥٠
٤٦ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٤٠٣ . السيرة الحلبية ج ٢ ص ٧٩ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٥١
٤٧ ـ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٠
٤٨ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨١٦
٤٩ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨١٨ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٠
٥٠ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٤٠٣ وهذا ارهاص لما يعرف اليوم بمنع التجوال
٥١ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٠ ، ٨٢١ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨١ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٥٧ .
٥٢ ـ السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨١ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٥٧
٥٣ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢١
٥٤ ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٧ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٣
٥٥ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٢
٥٦ ـ سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٤٠٩
٥٧ ـ الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٤٧ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٦٠
٥٨ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٢
٥٩ ـ سيرة ابن هشام مج ١ ص ٤٤٩
٦٠ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٣ ، ٨٢٥ .
٦١ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢٦ . سيرة ابن دحلان ج ٢ ص ٢٦٠
٦٢ ـ تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤ . الكامل في التاريخ ح ٢ ص ٢٤٦ . زاد المعاد ج ٢ ص ١٨٢
٦٣ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٦ . تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥
٦٤ ـ زهر الآداب للحصري القيرواني ط ٤ بيروت ١٩٧٢ محقق ج ١ ص ٧٤
٦٥ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٢٦
٦٦ ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢٨ . سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٠٧ . تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨
٦٧ ـ زاد المعاد ج ٢ ص ١٩١
٦٨ ـ مغازي الواقدي ج ٣ ص ٨٧٣ . السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٥ . سيرة ابن دحلان ص ٢٧٦
٦٩ ـ الحجرات / ١٣ .
٧٠ ـ يوسف / ٩٢
٧١ ـ مغازي الواقدي ج ٢ ص ٨٣٥ . سيرة ابن هشام مج ٢ ص ٤١٢
٧٢ ـ الاسراء / ٨١ .
٧٣ ـ القصص / ٨٥ .
٧٤ ـ آل عمران / ٩٦ .
٧٥ ـ البقرة / ١٢٥ .
٧٦ ـ الاسراء / ٨١ .
٧٧ ـ المائدة / ٢٣ .
٧٨ ـ التوبة / ١٢٣
٧٩ ـ آل عمران / ١٥٦ .
٨٠ ـ سنن ابي داوود ط بيروت جهاد / ٢٦٠٣ .
٨١ ـ لسان العرب . مادة (غزا) . المعجم الوسيط مادة (غزا)
٨٢ ـ صحيح البخاري ط بيروت . مغازي / ٢٩ .
٨٣ ـ المصدر نفسه جهاد / ١٥٧ . صحيح مسلم جهاد / ١٨ ، ١٩ . مسند احمد بن حنبل ١ / ٨١ ، ٩٠ .
٨٤ ـ مجلة المورد العراقية مج ١٥ عدد ٢ لسنة ١٩٨٦ ص ٨١ نقلاً عن المختار من كتاب الامثال لابي زيد الانصاري
٨٥ ـ لسان العرب مادة (خذع)
٨٦ ـ سنن النسائي . قسامة / ١٤
٨٧ ـ الرَّكْنُ : الظنّ الذي هو كاليقين
٨٨ ـ الانفال / ٦٠

*



تقويم جديد لجهود حماد الراوية في رواية الشعر العربي ونقده

د . زكي ذاكر الفجر العاني
كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية

اود في البدء ان أشير الى دراستين تناولت سيرة حماد الراوية وروايته للشعر احداهما للاستاذ السيد يعقوب بكر وقد نشرتها مجلة الرسالة المصرية سنة ١٩٤٥ في بضعة اعداد تبدأ بالعدد ٦٤٢. والاخرى ـ وهي أكثر إختصاراً من سابقتها وردت ضمن كتاب مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد الذي صدر سنة ١٩٥٦م وتأتي دراستي هذه مكملة للدراستين المذكورتين ومشتملة على وقفات مختلفة او مغايرة في بعض المواضع لما في الدراستين القيمتين المذكورتين .

من هو حماد الراوية ؟

هو ابو القاسم حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد المشهور بحماد الراوية[1] . وقيل بل هو حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد ، وكان سابور يكنى بأبي ليلى . ولذلك نجد في بعض المصادر انه حماد بن أبي ليلى[2] . وثمة رواية ثالثة تؤكد انه حماد بن هرمز وان والده هرمز كان من سبي مكنف بن زيد الخيل او من سبي ابن عروة ابن زيد الخيل[3] . كان حماد ديلمي الاصل ، شيباني الولاء عربي اللسان والنشأة والتربية والثقافة . وللعرب حبه ووفاءه وفي كنفهم عاش وترعرع . وصلاته الوطيدة بخلفاء بني أمية وتقريبهم له يدل على انه لم يعرف العصبية على العرب وحكمهم فهو إذاً عربي وان لم يكن ذلك من حيث النسب .

ولد حماد سنة ٧٥هـ [4] وفي رواية اخرى سنة ٩٥هـ[5] .

وتصوره لنا المصادر في مطلع شبابه يصحب الصعاليك . وتذكر انه نقب على* رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الانصار ، فقرأه واستحلاه وتحفظه ـ كما تقول الرواية ـ ثم طلب الادب والشعر وأيام العرب ولغاتها بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ في العلم ما بلغ[6] .

ولا نميل الى تصديق هذه الرواية التي تبين لنا ان شغف حماد بالشعر واللغة كان بعد ان اطلع على شيء من ديوان الانصار . ونعتقد ان الاخباريين حين جهلوا نشأة حماد وسيرته أيام شبيبته تعلقوا بذلك الخبر الذي يصور حماداً صعلوكاً من صعاليك العرب ، يشارك رفاقه في غاراتهم وتاراتهم قاطعاً الطريق على من يحسبهم سبباً في بؤسه وشقائه ومحنته . ثم فجأة يتغير مسار حياته وتتبدل سيرته ، فيغدو طالب علم ومعرفة معنياً

(*) نقب عن الشيء فحص عنه فحصاً دقيقاً .

بأشعار العرب ولغاتها وأيامها وأنسابها ، بل شهاباً ساطعاً في ميدان الأدب واللغة ، اقول إن ما يرجح على سواء في هذا الصدد انّ حماداً شغف بالعلم منذ الصغر ، وانه نشأ نشأة علمية : فحفظ الشعر . وروى اللغة عن العرب الفصحاء . واختلف الى حلقات العلماء الذين لم تذكر لنا المصادر اسماءهم . وبدلاً من ذلك اظهرته لنا بلا ماضٍ ولا شيوخ ومن غير مصادر . اشتهر حماد بكثرة الحفظ ، فقد قيل : ان الوليد بن يزيد قال له : بم استحققت هذا اللقب ، فقيل لك حماد الراوية ؟ قال : لانني أروي لكل شاعر يعرفه أمير المؤمنين أو سمع به ، ثم أروي منهم ممن تعترف بأنك لا تعرفهم ولا سمعت بهم . ثم لا أنشد شعراً لقديم او محدث الا ميزت القديم منه من المحدث : قال ان هذا العلم وابيك كثير فكم مقدار ما تحفظ قال : كثير ولكني انشدك على اي حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية قال : سامتحنك . وامره الوليد بالانشاد . وانشده حتى ضجر الوليد[٧] . وفي رواية اخرى انه قال للوليد بن يزيد : أروي سبعمائة قصيدة اول كل واحدة منها بانت سعاد[٨] . وعلى الرغم من هذه المبالغات فانّ مما لاريب فيه ان حماداً تفوق على علماء عصره بكثرة الحفظ وسعة الروية .

حظي حماد بالتقدمة والتقدير من خلفاء بني أمية فقربوه وأثروه على سواه . وكان كثير الوفادة عليهم ، وكانوا يسألونه عن الاشعار ويستنشدونه اياها فينشدهم فيجزلون صلته ، وكان منقطعاً الى يزيد بن عبد الملك . وقد ظلت صلته بالدولة قائمة بعد تولي هشام بن عبد الملك الخلافة . فقد أجزل له العطاء ، واحسن الصلة ، وانزله منزلة رفيعة ، وحظي بالتقدمة من الوليد بن يزيد . وكان يستمع اليه كثيراً[٩] . ولم يتصل بالخلفاء العباسيين من بعد ولا دنا من مجالسهم . ويقال : إن جعفراً بن أبي جعفر المنصور حين ذكر له حماد قال لمن حدثه عنه : ائتنا به لنراه ، فأجاب حماد سائله : « دعني فان دولتي كانت مع بني امية . ومالي عند هؤلاء خير »[١٠] .

تبوأ حماد مكانة مرموقة في تاريخ الادب العربي ، فحظي باحترام معاصريه من العلماء وتقديرهم له ـ ما خلا أحدهم ـ اولئك العلماء الكبار الذين عرفوا عن كثب ما كان عليه حماد من ذكاء لماح وبصر نافذ وحافظة مسعفة . فاثنوا عليه بالذي هو اهل له ، وقد وصفه راويته الهيثم بن عدي بقوله : « ما رأيت رجلاً اعلم بكلام العرب من حماد »[١١] . ووصفه معاصره الشاعر الطرماح بن حكيم بانه « اذكى الناس وأحفظهم »[١٢] . اما تلاميذه الذين اخذوا عنه العلم فكثر . نذكر في مقدمتهم خلفاً الاحمر ، والهيثم بن عدي وابا عمرو الشيباني ، وهشاماً الكلبي ، والاصمعي ، ومحمد بن كناسة . وقد تطول القائمة ، فيدخل فيها المفضل الضبي وابن الاعرابي واخرون[١٣] ، بيد ان حماداً تعرض لحملة عنيفة بعد وفاته بقرن ومن لدن رواة بصريين ، عاشوا في القرن الثالث الهجري قرن تأجج الخصومات والنزاعات بين علماء البصرة والكوفة ، وقيلت في شانه أقوال متناقضة ، تدعو الباحث الى ان يتوقف عندها ويمحصها ليعرف اصلها وحقيقة الدوافع التي دفعت اصحابها الى اطلاقها . وقد حمل الينا ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء احكاماً في حماد كلها في الاساءة اليه والانتقاص منه . وكان ابن سلام ينقل هذه الاقوال والاحكام عن استاذه يونس بن حبيب . فحماد من وجهة نظر يونس « غير موثوق به » و« يزيد في الاشعار » ، و« يكذب ويلحن ويكسر »[١٤] وانه لمن المدهش ان نصدر هذه الاقوال عن يونس العالم البصري المعروف ، ومن الغريب ان ينقلها ابن سلام من غير احتياط او تحفظ فيما ينقل او يروي . ولكننا هنا لا نحب ان نناقش اقوال يونس في حماد كما اوردها ابن سلام . ونرى ان نمضي خطوات في البحث قد توصلنا في شأن حماد وروايته الى يقين . واذا ظهر لنا من بعد ان حماداً على عكس ما يصفه يونس بن حبيب ، استطعنا ان نرد اقوال يونس في حماد ونرجعها الى خصومة شخصية بين رجلين متعاصرين متنافسين احدهما كوفي والاخر بصري .

اما اذا ظهر لنا صحة اقوال يونس بن حبيب تلك ، وان ثمة ما يؤيدها ويعززها ثبتنا ذلك وأكدناه من غير تجن على الرجل وعلمه ، فنحن لا نرغب في ان نقرر أمراً من غير بيّنة او دليل ومن غير ان نقيم الحجة والبرهان على صحته . قلنا ان حماداً حظي باحترام معاصريه وتقديرهم له . ومن معاصريه شيخ جليل من شيوخ العلم في البصرة هو ابو عمرو بن العلاء رأس علماء البصرة في اللغة والادب واحد القراء السبعة وموقفه من حماد يبينه لنا ابو عمرو الشيباني تلميذ ابي عمرو وحماد معاً . قال الشيباني : « ما سالت ابا عمرو بن العلاء قط عن حماد الّا قدمه على نفسه . ولا سالت حماداً عن أبي عمرو الا قدمه على نفسه »[١٥] . فمن غير المعقول ان يقدم ابو عمرو هذا العالم الزاهد الورع على نفسه رجلاً « غير موثوق به » و« يكذب ويلحن ويكسر » . والعالم البصري الاخر الذي كان يجل حماداً ويثق به هو خلف الاحمر . وقد تتلمذ لحماد . وكانت صلته به وثيقة وقوية ومتينة . كان كثير الاخذ منه كثير الصحبة له . وقد ذهب اليه من بلدته البصرة الى الكوفة ليستقي منه وقد قيل : انه « بلغ مبلغاً لم يقاربه حماد »[١٦] . وسواء أكان المقصود ان خلفاً قد بزّ حماداً في

الرواية وحماد حي أم انه بلغ بعد وفاة حماد مبلغاً لم يكن حماد قد بلغه ، فان الذي لا نرتاب فيه ان حماداً ظل شاهقاً وكبيراً في عالم الرواية ، وانه تميز من معاصريه بكثرة الحفظ وسعة الرواية واتقانها ، وهذا مشهود له . وهو به معروف . ويستوقفنا في صدد الصلة بين خلف وحماد قول يعزى الى خلف هو قوله : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب واعطيه المنحول . فيقبل ذلك مني ويدخله أشعارها . وكان فيه حمق »[17] . وهذه حقاً رواية غريبة فهي من جهة صيّرت التلميذ يطعن في أستاذه ويصغر من شانه . وهي من جهة اخرى اظهرت الشيخ مغفلاً جاهلاً . فحماد على وفق هذه الرواية لا بصر له بالشعر ، فهو يروي ما لايصح من الشعر ظاناً انه شعر سليم غير منحول ، فمن أجل تفهم الاجواء التي اسندت فيها أقوال الى علماء هم براء منها نعرض شيئاً مما يصور لنا مدى ما بلغه التعصب البلدي عند بعض اللغويين والرواة : فثعلب يرى انه « لولا الفراء ما كانت عربية لانه حصنها وضبطها »[18] . ويقول في ابي عمرو الشيباني « كان مع ابي عمرو من العلم والسماع عشرة أضعاف ما كان مع أبي عبيدة »[19] . ويقول ابو بكر الانباري : « لو لم يكن لاهل بغداد والكوفيين من علماء العربية الا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس ، اذ انتهت العلوم اليهما »[20] . والرياشي من العلماء البصريين يقول مفاخراً بعلماء بلدته غاضاً من شان علماء الكوفة : « انما اخذنا اللغة من حرشة الضباب واكلة اليرابيع . وهؤلاء اخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز »[21] ، وابو حاتم السجستاني يقول : « فاذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها او حكيت عن العرب شيئاً ، فانما أحكيه عن الثقات منهم مثل أبي زيد والاصمعي وأبي عبيدة ويونس ، وثقات من فصحاء الاعراب وأهل العلم ولا التفت الى رواية الكسائي والاحمري والاموي والفراء ونحوهم واعوذ بالله من شرهم »[22] ، والكسائي في نظر البصريين « دنا من الخلفاء ، فرفعوا ذكره . لم يكن شيئاً . وعلمه مختلط بلا حجج او علل »[23] . وهو قد « صار الى بغداد فلقي اعراب الحطمية فاخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن »[24] . اما خلف فبسبب اخذه الشعر من حماد فقد اظهرته لنا الروايات خارجاً الى اهل الكوفة ، يعرفهم الاشعار التي ادخلها في أشعار الناس[25] ، اما المفضل الضبي . فقد أظهرته الروايات وهو غير راض عن حماد غير مطمئن الى روايته ، فقد عزي اليه قوله : « قد سُلِّطَ على الشعر من حماد ما أفسده »[26] ، هذه اقوال مفتعلة وغريبة . وليس لها قيمة علمية ، فلا يعول عليها دارس جاد . ولا يطمئن الى صحتها باحث محقق ، وقد كفانا الدكتور ناصر الدين الاسد مؤونة تفنيد الكثير منها وابطالها[27] .

اشرت الى ان الرواة العلماء الذين عاصروا حماداً كانوا يجلونه ويثقون كل الثقة بروايته . ومن اولئك العلماء المفضل بن محمد الضبي الكوفي . وقد ساق ابو الفرج الاصفهاني قصة طويلة للمفضل مع حماد الراوية مؤداها ان عدة من الرواة والعلماء بايام العرب وآدابها واشعارها ولغاتها اجتمعوا في دار الخليفة المهدي بعيسا باذ وان المفضل دعي الى ذلك الاجتماع او تلك الندوة ثم لم يلبث ان خرج ومعه حماد ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط كما تقول الرواية ثم خرج حاجب الخليفة المسمى حسين الخادم ، فنادى قائلاً : يا معشر من حضر من أهل العلم ، ان أمير المؤمنين يعلمكم انه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين الف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في اشعار الناس ما ليس منها . ووصل المفضل بخمسين الفاً لصدقه وصحة روايته وسبب ذلك ان الخليفة المهدي قال للمفضل لما تحادث معه منفرداً إني رأيت زهير بنَ أبي سلمى افتتح قصيدته بقوله :

دع ذا وعد القول في هرمٍ .... ولم يتقدم له قبل ذلك قول فما الذي امر نفسه بتركه ؟ . فقال له المفضل الضبي : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً الا اني توهمته كان يفكر في قول يقوله أو يروي في ان يقول شعراً ، فعدل عنه الى مدح هرم ، وقال : دع ذا . أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، اي ، دع ما انت فيه من الكد ، وعد القول في هرم . فامسك عنه الخليفة ثم استدعى حماداً . فساله عن مثل ما سال عنه المفضل ، فقال حماد : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف قال : فانشده :

لمن الديار بقُنَّة الحَجْرِ
اقوين مذ حِجَجٍ ومذ دَهْرِ
لعب الرياح بها وغيرها
بعدي سوافي المور والقَطْرِ
قفراً بمندفع النحائت من
ضَفْوى اولات الضال والسِّدْرِ

وتقول الحكاية ان الخليفة لما شك في امر الابيات ، استحلف حماداً في شأنها ، فاقر له حينئذ بانه قائلها ، فامر فيه وفي المفضل بما أمر[28] ، وكان الدكتور ناصر الدين الاسد قد فند

هذه الرواية مبيناً ان وفاة حماد كانت قبل ان يتولي المهدي الخلافة بنحو ثلاث سنوات من جهة . ومن جهة اخرى فان المهدي لم يبن داره في عيساباذ الا بعد وفاة حماد بنحو تسع سنوات[29] . واذا صرفنا النظر عما ورد في كتاب الاغاني في هذا الشأن ، فاننا لم نجد احداً من العلماء شك في ان الابيات الثلاثة التي تصدرت القصيدة هي جزء من قصيدة مشهورة لزهير وقد اثبتها الاعلم الشنتمري في شرحه لديوان الشاعر[30] واثبتها لزهير ايضاً هبة الله بن الشجري فيما اختار من اشعار العرب[31] ، ومعروف ان الاعلم اعتمد رواية الاصمعي في روايته لديوان زهير . فالاصمعي اذاً كان قد روى الابيات التي اتهم حماد بنظمها والحاقها بقصيدة زهير[32] .

لقد إطمئن بعض القدماء ممن جاء بعد أبي الفرج الى روايته ووثق بأن المفضل الضبي وصم حماداً بالكذب ، واطمأن الى تكذيب المفضل لحماد الراوية بعض الفضلاء من الباحثين في زماننا . فالشريف المرتضى في أماليه يقول : « وكان حماد مشهوراً بالكذب في الرواية وعمل الشعر واضافته الى الشعراء المتقدمين ، ودسه في اشعارهم ، حتى ان كثيراً من الرواة قال ، قد افسد حماد الشعر ، لانه كان رجلًا يقدر على صنعته ، فيدس في شعر كل رجل منهم ما يشكل طريقته ، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم . وهذا الفعل منه وان لم يكن دالًا على الالحاد ، فهو فسق وتهاون بالكذب في الرواية)[33] .

ولا نريد ان نعقب على كلام الشريف المرتضى بغير ان نقول : ان من نسب اليه بان حماداً افسد الشعر هو المفضل الضبي وليس « كثيراً من الرواة » هذا اذا صح ما نسب الى المفضل من قوله هذا في حماد . اما القول بان حماداً يقول شعراً يشاكل الشعر العربي القديم ، فيدس في شعر كل شاعر من القدماء ما يشبه شعره ، فسنناقشه في موضع اخر من هذا البحث .

وكما لم تتضح معالم صورة رواية حماد للشعر للشريف المرتضى ، لم تتضح ايضاً للاستاذ يعقوب بكر في قوله : « فاما قول المفضل وقول يونس بن حبيب ، فاننا نقف منها موقف الحذر فقد كان المفضل معاصراً لحماد والمرء لاينصف معاصره في اغلب الاحيان ولا سيما اذا كانا من صناعة واحدة »[34] . ولا نوافق الدكتور يوسف خليف على قوله : « ان المفضل خصم حماد اللدود ومنافسه الاكبر »[35] ، ولا نتفق مع الدكتور ناصر الدين الاسد فيما ذهب اليه من « ان بين المفضل وحماد منافسة شديدة وربما بلغت حد الخصومة والاتهام »[36] . فالراجح لدينا ان المفضل روى عن حماد الشعر ، وانه كان يثق به ويجله . ليس ذلك حدساً او تخميناً ، فان الاعرابي الذي هو تلميذ المفضل وربيبه - اذ المفضل زوج امه ، وقد تربى في بيت المفضل يقول في صدد قصيدة لزهير بن ابي سلمى : « لم يروها المفضل من كتاب حماد »[37] وهذا يعني ان المفضل الضبي كان روى قصائد سواها من كتاب حماد ، وحين اراد الخليفة المهدي ان يعرف شيئاً عن أسرة حماد وحالها بعد وفاة حماد سأل المفضل الضبي بقوله : « ما فعل عياله . ومن اين يعيشون ؟ »[38] . وهذا يدل على وجود صلة بين المفضل وحماد ربما كانت صلة التلمذة . لقد كان حماد رأس الرواة الكوفيين وشيخهم الكبير في عصر بني أمية ثم أصبح المفضل شيخ الرواة الكوفيين في عصر بني العباس ، فحماد راوية الامويين ، والمفضل راوية العباسيين فليس ثمة منافسة ولاخصومة ولا اتهام بين العالمين .

ومن الرواة العلماء الذين رووا عن حماد الاصمعي وكان له منهج في الرواية يقوم على التضييق والتشديد قال فيه ابو الطيب اللغوي انه كان (يضيق ولايجوز الا افصح اللغات ويلج في ذلك ويمحك)[39] ، وكان لا يروي من شعر الاغلب الا قصيدتين ونصف[40] ، ويحجم عن رواية شعر أبي دؤاد الايادي وعدي بن زيد لان الفاظهما ليست تجدية[41] . كان الاصمعي تلميذاً مخلصاً لخلف الاحمر كثير الثقة به شديد التعويل على روايته . وقد بسطت ذلك في بحث لي عنوانه « خلف الاحمر راوياً »[42] وكان خلف الاحمر كما هو معروف تلميذا مخلصاً لحماد الراوية . وواضح ان رواية الاصمعي موصولة برواية حماد . قال ابو الطيب اللغوي في الاصمعي وعلاقته بحماد : « وروى عنه الاصمعي شيئاً من الشعر »[43] ، ولا عجب فقد كان حماد شيخاً لشيخ الاصمعي خلف الاحمر . واعتقد ان الاصمعي لم يكن مختلفاً عن استاذه خلف في الثقة برواية حماد للشعر والاطمئنان الى صحتها ، فاستمع اليه يقول موثقاً روايته لشعر امرىء القيس « كل شيء في ايدينا من شعر امرىء القيس هو عن حماد الانتف سمعتها من الاعراب وابي عمرو بن العلاء »[44] ، فهذه المقولة تؤكد ان الاصمعي كان موثقاً لحماد متمسكاً بروايته . ولكننا نصطدم بموقف اخر للاصمعي من حماد وهو قوله : « جالست حماداً فلم اجد عنده ثلاثمائة حرف . ولم ارض روايته »[45] . اما ان الاصمعي لم يجد عند حماد ثلاثمائة حرف اي لم يجد ثلثمائة لفظ صحيح او تركيب فصيح مروي عن الاعراب فهو باطل ، فحماد مشهود له بسعة الرواية وكثرة الحفظ والشق الاخير من كلام الاصمعي - ان صح له هذا الكلام - فيه غمز لحماد واتهام بالتزيد والتزوير . واظن

ان طبيعة العلاقة بين الاصمعي وحماد او نمطها كما نتصورها لا تجعلنا نصدق ان الاصمعي حقاً قال هذا الكلام او اطلق مثل هذا الاتهام . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الذي روى قول الاصمعي المذكور هو ابو حاتم السجستاني الذي ستتضح لنا عصبيته على علماء الكوفة . ولا اعتقد ان للاصمعي مع حماد صحبة مشهورة او تلمذة طويلة . وإنما الراجح على سواه ان الاصمعي - وكان حدثاً في حياة حماد - تهيأ له ان يحضر طرفاً من مجالس حماد . فاخذ عنه شيئاً من الشعر كما يقول ابو الطيب اللغوي .

هل ألف حماد كتاباً او خلف أثراً ؟

لا تعدنا المصادر بما يعيننا على معرفة مصادر حماد في الرواية بيد اننا نستطيع ان نقول انها كانت تتمثل في شيوخه الذين حضر مجالسهم وحلقاتهم العلمية . وهؤلاء الشيوخ هم علماء القراءة والحديث الذين هم انفسهم علماء العربية فلم تكن علوم العربية منفصلة عن علوم الدين في الوقت الذي شب فيه حماد عن الطوق وسعى في اكتساب العلم والمعرفة . فابو عمرو بن العلاء - وهو معاصر لحماد - كان يذهب الى ابن ابي عقرب بصحبة شعبة بن الحجاج ، وكانا يجتمعان عنده يقول شعبة : « فاساله عن الحديث خاصة . ويساله ابو عمرو عن الشعر واللغة خاصة فلا أكتب شيئاً مما يساله عنه أبو عمرو . ولا يكتب ابو عمرو شيئاً مما أساله انا عنه »[46] . من الممكن اذاً ان نستنتج ان حماداً اخذ الاشعار والاخبار او رواهما عن شيوخ العلم في القرن الثاني الهجري اولئك الشيوخ الذين لم يتخصصوا بفرع من فروع المعرفة ولم يقتصروا على ضرب من ضروب العلم .

اما المصدر الثاني الذي استقى منه حماد ، فيتمثل في اعراب البادية . وكان معاصرو حماد قد اخذوا اللغة عن البوادي فالخليل بن احمد الفراهيدي ويونس بن حبيب والكسائي جابوا الفيافي باحثين عن اللغة نقية صافية . فهل كان حماد مختلفاً عنهم في هذا الشان ؟ لا أظن ذلك ، بل ان ثمة رواية تفيد بان بعض الاعراب كان يحضر حلقة حماد العلمية وان حماداً قد استنشده الشعر[47] .

ومن مصادر حماد في العلم الكتب والمدونات . وكان حماد قد تحدث عن هذه المدونات فذكر ان المختار الثقفي عثر في الكوفة على اشعار مدونة ، كان يحتفظ بها ملك الحيرة النعمان بن المنذر . وكان النعمان قد امر بتدوين تلك الاشعار التي قيلت في مدحه وآل بيته ثم آلت هذه الاشعار او قسم منها الى آل مروان[48] . ويبدو ان حماداً كان مطلعاً على تلك الدواوين . وكان يحتفظ بقدر منها . يبين ذلك قوله :

« أرسل اليّ الوليد بن يزيد بمئتي دينار . وأمر يوسف بن عمر بحملي اليه على البريد فقلت لا يسالني الا عن طرفيه : قريش وثقيف . فنظرت في كتابي قريش وثقيف . فلما قدمت عليه سالني عن أشعار بلي . فانشدته منها ما استحسنه »[49] . وثمة رواية تفيد ان الوليد بن يزيد عندما رغب في تدوين اشعار العرب ، طلب من حماد ما لديه من الكتب والدواوين ثم ردها اليه[50] ، وهل استطاع حماد من هذه المدونات والكتب ومما سمع من الاعراب وما اخذ عن الشيوخ ان يصنف كتاباً ؟ . نعم ، لقد ترك حماد بعد وفاته كتاباً وهو على وفق مناهج القدماء عبارة عن أمالي املاها على تلامذته بيد ان المصادر التي اهتمت بذكر كتب القدماء لم تشر الى كتاب حماد . بل ان ابن النديم يقول : « ولم ير لحماد كتاب ، وانما روى عنه الناس . وصنفت الكتب بعده »[51] ، لكننا لا نجد ابن النديم مصيباً فيما ذكر . فثمة اشارات عديدة الى كتاب حماد . فأبو العباس ثعلب يقول في صدد قصيدة لزهير بن ابي سلمى (ولم يروها المفضل عن كتاب حماد »[52] ، وقد كان كتاب حماد بيد هشام بن محمد الكلبي . فحين اورد الكلبي قصيدة لعامر بن الطفيل . قال : « اصبتها في كتاب حماد خلاف روايتنا »[53] . ثم أورد الرواية التي في كتاب حماد ووقع كتاب حماد بيد ابي حاتم السجستاني . فقد كان ابو حاتم نقل شيئاً من شعر الحطيأة من كتاب حماد وإضافة الى ما توافر لديه من شعر هذا الشاعر . قال ابو حاتم : « وفي كتاب حماد الراوية زيادة بعد هذا البيت اربعة ابيات »[54] . وقال في موضع اخر في صدد قصيدة اخرى للحطيأة : « هذا آخرها . وفي كتاب حماد الراوية زيادة من هذا الموضع بيتان »[55] . وقد اشار ابو الفرج الاصفهاني الى كتاب حماد حين تحدث عن اخبار كسرى اذ يظهر ان كتاب عن اخبار كسرى قد احتوى على مادة اخبارية في صدد ملوك الفرس[56] ، وفي وسع المتتبع ان يستشف من قراءة لشرح ابي العباس ثعلب لديوان زهير بن ابي سلمى ان كتاب حماد كان تحت تصرف ثعلب[57] ، وثعلب هو تلميذ ابن الاعرابي وابن الاعرابي تلميذ المفضل وهكذا كان الكتاب ينتقل من الشيخ الى التلميذ . وبعد وفاة حماد كان كتابه عمدة الرواة والمصنفين من بصريين وكوفيين يأخذون منه ما يحتاجون اليه من الاشعار والاخبار عن ثقة به واطمئنان اليه وكان ابو حاتم السجستاني من اشد المتعصبين على علماء الكوفة . وكان يجنح الى الطعن بحماد والانتقاص من

روايته بيدانه بـ يف ان لا مناص له من الاطلاع على رواية حماد للاشعار والرجوع اليها ففي صدد قصيدة للحطيأة وجد ابو حاتم في كتاب حماد ابياتاً لم يطلع عليها او لم يعرفها فاضطر الى تدوينها بيد انه قال : « كتبتها ليعرف المصنوع »[58] ، وفي صدد قصيدة اخرى وجد في كتاب حماد زيادة مقدارها بيتان على ما تهيا لديه منها . فاضاف البيتين الى ما توافر لديه من ابيات القصيدة ، ثم قال : « هما مصنوعان مردودان »[59] ، وهكذا وقع أبو حاتم في تناقض شنيع فهو يتمم ما لديه من نقص في الاشعار بالاخذ من كتاب حماد . ثم يقول بعد ذلك : ان ما اخذه وضمه الى روايته مصنوع او مردود .

بقيت مسالة القصائد السبع التي اختارها حماد وعرفت بالسبع الطوال او المعلقات السبع . فبعد الذي عرفناه من وجود كتاب لحماد . يحتوي على اشعار العرب . لا نستبعد ان تكون هذه القصائد مما احتواه كتاب حماد . نعم يمكن ان تكون السبع الطوال جزءاً او قسماً من ذلك الكتاب الشهير . وقد لفت هذا الجزء من الكتاب اهتمام من جاء بعد حماد من العلماء والرواة والشراح الذين اعجبوا باختيار حماد هذا . اما بقية اقسام او اجزاء الكتاب وفصوله فلم يتهيا لها ما تهيأ لقسم الاختيارات من يعنى بها ويحافظ عليها من الضياع والبعثرة . وهكذا وصل الينا القسم المهم من كتاب حماد المعروف بـ« السبع الطوال » من خلال الشروح كما هو شان كتاب الحماسة لابي تمام الذي لم يصل الينا الا من خلال شروحه لقد توالت الشروح حول الجزء المسمى بـ« السبع الطوال » او « القصائد السبع » من كتاب حماد واهتم اللغويون والنحويون بهذه القصائد الطويلة واجدين فيها مادة يدرسون من خلالها اللغة العربية في نحوها وغريبها وبلاغتها . ونسي الكتاب الاصل الذي يبدو ان حمادا ضمنه الاخبار والاشعار والانساب والايام المتصلة بالحياة العربية قبل الاسلام .

حقيقة الروايات التي تتهم حماداً بنحل الشعراء شعر سواهم والزيادة في الاشعار :

تقدم الكلام على عدم صحة ما قيل من ان حماداً زاد ثلاثة أبيات على قصيدة لزهير بن ابي سلمى وجعلها في مقدمة تلك القصيدة . وقد بينا زيف هذه الرواية التي وصفت لقاء بين حماد والمفضل الضبي في قصر من قصور الخليفة المهدي وان المفضل هو الذي كشف الزيادة التي الحقها حماد بقصيدة زهير ، وثمة كلام اخر عن نحل حماد الشعراء المتقدمين شعر غيرهم سوى تلك القصة المفتعلة ، فقد نقل ابن سلام عن يونس بن حبيب ان حماداً وفد على بلال بن ابي بردة والي البصرة لعهد هشام بن عبد الملك فانشد بلالاً قصيدة للحطياة يمدح فيها جد بلال ابا موسى الاشعري وتذكر الرواية ان الوالي فطن الى ان القصيدة ليست للحطياة اذ انه كان يروي شعر الحطياة ، فقال لحماد : ويحك يمدح الحطياة ابا موسى ولا اعلم به . وانا اروي شعر الحطياة ولكن دعها تذهب في الناس[60] . وقد رأى الدكتور ناصر الدين الاسد ان ما رواه ابن سلام عن يونس في صدد وضع حماد لتلك القصيدة ونحلها الحطياة مردود من جهتين اولاهما ان ابا الحسن المدائني ذكر « انها صحيحة قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو » ، والثانية ان العلماء الذين جمعوا ديوان الحطياة وشرحوه بعد حماد اثبتوا هذه القصيدة في ديوانه ، ولم يأخذوا بالرأي الذي اورده ابن سلام عن يونس . فابن حبيب روى القصيدة عن ابن الاعرابي وعن ابي عمرو الشيباني معاً واثبتها السكري عن ابن حبيب في شرحه لديوان الحطياة[61] . وثمة رواية تذكر ان حماداً قدم على بلال بن ابي بردة وكان عنده الشاعر ذو الرمة . فانشده حماد شعراً يمدحه به على انه من نظمه . فقال بلال لذي الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيد ، وليس له . قال فمن يقوله ؟ قال : لا أدري ، الا انه لم يقله . وتمضي الرواية مظهرة حماداً . وهو يعترف بكذبه ويقر بان الشعر الذي انشده ليس له ، وانما قاله « بعض شعراء الجاهلية وتقول الرواية : قال حماد : « وهو شعر قديم وما يرويه غيري »[62] وليس من شك في ان الاضطراب في هذه الرواية لا يخفى على ذي نظر او بصر . فهل بلغ حماد هذه الدرجة من الحماقة حيث يمدح الوالي بقصيدة جاهلية وامام ذي الرمة الشاعر الراوية للشعر الجاهلي ويدعي انها من نظمه وما الذي يدفعه الى هذا التزوير وقد عرفنا كيف كان مقصد طلاب الادب والشعر وكيف ان خلفاء بني امية كانوا يدنونه منهم ويحيطونه بالرعاية والتكريم مستمعين الى ما يروي من اشعار العرب واخبارها وسيرها .

ذكر ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد قسماً من الروايات التي تتهم حماداً بالزيادة في أشعار القدماء ، فقد قال : « وكذلك كان يفعل حماد الراوية يخلط الشعر القديم بأبيات له » ، وقال ابن عبد ربه بعد ذلك : « قال حماد : ما من شاعر الا قد زدت في شعره ابياتاً فجازت عليه الا الاعشى أعشى بكر ، فاني لم أزد في شعره قط غير بيت ، فافسدت عليه الشعر . قيل له : وما البيت الذي ادخلته في شعر الاعشى ، فقال :

وانكرتني وما كـان . الذي نَكِرَتْ
من الحـــوادث الا الشيبَ والصَّلَعا[63]

بيد ان المشهور المعروف ان الذي زاد في شعر الاعشى بيتاً . واعترف بهذه الزيادة هو ابو عمرو بن العلاء لا حماد الراوية . فقد قال ابو عبيدة معمر بن المثنى تلميذ ابي عمرو بن العلاء : « ان بشاراً اعلم الناس بالشعر والفاظ العرب ، قال لي وقد انشدني اول هذه القصيدة للاعشى ، فمر هذا البيت : وانكرتني ... : كأن هذا ليس من لفظ الاعشى . وكان قوله هذا قبل ان اسمع هذا من قبل ابي عمرو بعشرين سنة »[٦٤] ، وقال يونس بن حبيب التلميذ الاخر لابي عمرو بن العلاء : « سمعت ابا عمرو بن العلاء يقول : ما زدت في أشعار العرب الا هذا البيت :

وانكـــرتني ومـــا كـــان الـــذي نكـــرت
من الحـــوادث الا الشيب والصلما »[٦٥]

وقال ابن جني : « حدثنا بعض اصحابنا يرفعه . قال ابو عمرو بن العلاء ـ رحمه الله ـ ما زدت في شعر العراب الا بيتاً واحداً . يعني ما يرويه للاعشى من قوله :

وانكرتني وما كـــان الذي نكـرث
من الحـــــــوادث الا الشيب والصّلما[٦٦]

وقال ابن خالويه : « حدثنا ابن مجاهد وغير واحد . ان ابا عمرو بن العلاء قال : ما زدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً في قوله الاعشى :

وانكرتني وما كـــان الذي نكـرت
من الحوادث الا الشيب والصلما

وما قرأت حرفا في كتاب الله الا باثر ، الا قوله عز وجل « وأملي لهم » فوجدت الناس قد سبقوا اليه »[٦٧] ، فما ذكره ابن عبد ربه إذاً باطل .

بقيت حكايتان تتحدثان عن عدم امانة حماد في رواية الشعر وعزوه الى اصحابه وعدم دقته وقلة تحريه : عزيت احداهما الى ابي عمرو بن سعيد بن وهب الثقفي ، وهي انه سال حماداً ان يملي عليه قصيدة لاخواله بني سعد بن مالك ، فاملى عليه حماد شعراً نسبه الى طرفة ، وهو لاعشى همدان[٦٨] ، وتتمثل الثانية فيما رواه سعيد بن هريم البرجمي عمن يثق به (كذا) من ان اعرابياً انشد حماداً قصيدة لم تعرف ولم يدر لمن هي . فقال حماد : اجعلوها لطرفة[٦٩] ، ولا نرتاب في ان هاتين الحكايتين لا تختلفان عما أوردناه من حكايات وقصص افرزتها الحزازات والعصبيات وروح التحاسد بين المتنافسين المتعاصرين من الرواة ولا يمكن للباحث ان يعول عليها او يعتمدها لانها لا تساوي شيئاً في معيار البحث العلمي .

هل كان حماد شاعراً ؟

لم يشتهر حماد شاعراً قدر شهرته راوياً للشعر . وقد نظم الشعر . لكنه لم يبلغ فيه مبلغ الشعراء الكبار . فالمقطوعات البضع التي وصلت الينا من شعره لا تدل على موهبة شعرية ولا نستطيع من خلالها أن نتحدث عن شاعريته . وقد اطلع القدماء على شعره فرؤوا انه لم يكن متفوقاً فيه[٧٠] ، واورد له ابو الفرج الاصفهاني قوله[٧١] :

تنكـــر من سعدى واقفـر من هنـد
مقـــامهـــا بين الـــرغـــامين فـــالفـــرد
محـــل لسعدى طـــالما سكنت بـــه
فـــاوحش ممن كـــان يسكنـــه بعـــدي

ومن شعره ما كتبه الى بعض رؤساء الاشراف وهو قوله :

ان لي حـــاجـــة فـــرأيـــك فيهـــا
لـــك نفسي فـــدى من الاوصـــاب
وهي ليست مـــا يبلغهـــا غيـــر
ي ولا يستطيعهـــــا في كتـــاب
غيــــر اني اقـــولهـــا حين القـ
ـاك رويـــدا اســـرهـــا في حجـــاب

فكتب اليه الرجل : اكتب الي بحاجتك ، ولا تشهرني في شعرك فكتب حماد[٧٢] :

انني عـــاشق لجبتـــك الـــدكنـــاء عشـ
ـقـــاً قـــد حـــال لون الشـــراب
فـــاكسنيهـــا فـــدتـــك نفسي واهلي
اتبـــاهى بهـــا على الاصحـــاب
ولـــك الله والامـــانـــة ان ادخـــر
هـــا عمـــرهـــا امير ثيـــابي

وثمة رواية تظهر حماداً شاعراً محترفاً يقصد الولاة بشعره مادحاً اياهم نائلاً من عطاياهم ما يناله الشعراء المداحون من اموال ممدوحيهم تقول هذه الرواية ان حمادا قصد خالد بن عبد الله القسري أيام ولايته على العراق ومدحه بقصيدة نال بها مالًا من الوالي ، منها قوله :

لا تعـــذليني سلمى اليـــوم وانتظـــري
ان يجمـــع الله شملًا طـــالما افترقـــا

ان شتّت الدهر شملاً بين جيرتكم
فطال في نعمة يا سلم ما اتفقا

وقد حللنا بتسري اخي ثقة
كالبدر يجلو دجى الظلماء والافقا

لا يجبر الناس شيئاً هاضه اسد
يوماً ولا يرتقون الدهر ما فتقا

كم من ثناء عظيم قد تداركه
وقد تفاقم فيه الامر وانخرقا

ولكن رواة الكوفة ومنهم ابو عمرو الشيباني يروون هذه الابيات لقيس بن الحدادية في مدح أسد بن كرز[٧٢] الذي أواه وأحسن اليه ، بيد ان اغرب ما نجده في صدد شاعرية حماد رواية وردت في كتاب الاغاني ايضاً تظهر حماداً شاعراً كبيراً متفوقاً في الشعر محسناً له ، فقد أورد ابو الفرج الاصفهاني قول المفضل الضبي في شاعرية حماد : « فلا يزال يقول الشعر ، يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الافاق ، فتختلط باشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد ، واين ذلك ! »[٧٤] ، وقد سبق ان اوردنا قصة قدوم حماد على بلال بن ابي بردة والي البصرة ، وكيف ان حماداً انشده شعراً على انه من نظمه ، يمدحه به ، وكان ذو الرمة حاضراً في مجلس بلال ، فنبه الوالي على ان الشعر ليس لحماد ، وانه « لم يقله » . وهذا امر مستبعد لان حماداً لم يقصد الخلفاء والولاة شاعراً بل قصدهم راوياً وناقداً للشعر وعالماً في الايام والانساب واللغات لغات العرب ، وكان له في هذه المعارف التي يحسنها مندوحة عن ان ينظم الشعر ، يمدح به ولاة الخلفاء .

اما تقويم المفضل الضبي لشعر حماد ، فهو مما وضع على لسان المفضل ، وقد سبق ان بينا ذلك . لم يكن حماد بذلك المستوى العالي الرفيع في قرض الشعر وتعاطيه ولم يعرف عنه انه كان ينهج نهج الشعراء القدماء ، وينسج على منوالهم ، فلم يبرز في الشعر من العلماء الرواة والنحويين اللغويين غير خلف الاحمر الذي كان « احد الشعراء المحسنين ، ليس في رواة الشعر احد أشعر منه »[٧٥] ، وكان خلف كما يقول هارون بن علي المنجم « يبلغ من حذقه واقتداره على الشعر ان يشبه شعره بشعر القدماء حتى يشتبه ذلك على جلة الرواة ، ولا يفرقون بينه وبين الشعر القديم »[٧٦] ، لم يكن حماد إذاً « يقول الشعر ، يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الافاق ، فتختلط باشعار القدماء »[٧٧] ، فكان خلطاً قد حصل بين شعر خلف وشعر حماد فانسحبت الاحكام التي قيلت في صدد شعر خلف على شعر حماد ، فالذي كان ينظم شعراً شبيهاً بشعر القدماء هو خلف لا حماد . وقد اورد ابن طيفور في كتابه « المنظوم والمنثور[٧٨] » لخلف قصيدة تبلغ سبعين بيتاً ، يجري فيها خلف على نمط القدماء كما ذكر ذلك مؤرخو الادب ورواته . فوصف شعر حماد بانه يشبه شعر القدماء امر مرفوض او انه في الاقل لا دليل عليه .

نقد حماد للشعر :

لم يكن حماد راوياً للشعر فقط ، بل كان ناقداً له ، وشهرته في نقد الشعر لم تكن باقل من شهرته بروايته ، وشان حماد هنا مثل شان معاصريه من العلماء الروة واللغويين النحويين كابي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب والكسائي وخلف الاحمر والمفضل الضبي والاصمعي وغيرهم فكان هؤلاء العلماء ينقدون قصائد الشعراء في المجالس التي يقيمها الخلفاء والولاة للاستماع الى الشعراء وهم يمدحونهم او في المجالس والحلقات العلمية في المساجد وكان لنقدهم اثر كبير في سيرورة شعر الشاعر ؛ فمن نوهوا به ، طارت شهرته وذاع صيته . فلذلك حرص الشعراء على معرفة رأي هؤلاء النقاد في شعرهم فسموا الى لقائهم واسماعهم قصائدهم قبل القائهم اياها في محافل الخلفاء والولاة وكان لحماد شان كبير ومنزلة مرموقة في النقد وقدرة على تقويم القصيدة وعلى ابداء الرأي الصريح في شانها من غير استرضاء للشاعر او اطراء في غير محله . فالطرماح بن حكيم الذي كان معجباً بحماد الراوية كما أشرنا الى ذلك من قبل نظم قصيدة ، فرأى ان يعرضها على ناقد للشعر ، فالتجأ الى حماد وانشده إياها ، لكنه خرج من عنده غير راض عنه متهماً اياه ـ بعد اخفاقه في امتاع الناقد ـ بانه رام ادعاءها لنفسه[٧٩] . وعرض ابو الغول النهشلي ، وهو علباء بن جوشن ، شعراً له على حماد ، لكن نقد حماد لشعر ابي الغول لم يكن ساراً للشاعر فانقلب الشاعر على الناقد يهجوه بقوله[٨٠] :

نعم الفتى لو كان يعرف به
ويقيم وقت صلاته حماد

هدلت مشافره الدنان فانفه
مثل القدوم يسنها الحداد

وابيض من شرب المدامة وجهه
فبياضه يوم الحساب سواد

لا يعجبنك بزه وثيابه
ان اليهود ترى لها اجلاد

حمـــاد يـا ضبعـاً تجـر جعـارهـا
أخنى لهـا بـالقـريتين جـراد
سبعـاً يـلاعبهـا ابنهـا وبنـاتهـا
ولهـا من الخـرق الكبـار وسـاد

وثمة شاعر لم يذكر اسمه قصد حماداً عارضاً عليه شيئاً من شعره . بيد ان حماداً رد الشاعر منكراً ان تكون القصيدة التي عرضها عليه من نظم ذلك الشاعر فجعل الشاعر يهجو حماداً بقوله[81] :

سيعلم حمـــاد انا مـا هجـوتـه
أأنتحـل الاشعـار ام انـا شـاعـر
الم تـر حمـاداً تقـدم بطنـه
واخـر عنـه مـا تجن المـآزر
فليس بـراء خصيتيـه ولـو جثـا
لـركبتـه مـا دام للـزيت عـاصـر
نيـا ليتـه أمسى قعيـدة بيتـه
لـه بعل صـدق كـومـه متـواتـر
فحمـاد نعم العرس للمرء يبتغي الـ
نكـاح وبئس المـرء فيمن يفـاخـر

ولا عبرة فيما ذكر في هذا الصدد من ان حماداً هو الذي طلب من الشاعر ان يهجوه ليكتشف قدرته على النظم ان كان شاعراً قادراً على نظم الشعر .

ويظهر ان الخلفاء الامويين كانوا يعتمدون تقويم حماد لشعر الشعراء الذين يقصدونهم مادحين ، فيحضرونه الى مجالس الشعر . ليستمعوا الى رأيه فيما ينشد في هذه المحافل الرسمية . ويذكر الشاعر مروان بن ابي حفصه انه وفد مع جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد ، فوجد عنده رجلاً كلما انشد شاعر شعراً . وقف على البيت والبيت من شعره قائلاً : هذا أخذه من موضع كذا وكذا . وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان حتى اتى على اكثر الشعر . قال مروان : فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية"[82] . فقد كان حماد إذاً يمارس النقد التطبيقي القائم على الموازنات وتبيان مدى تاثر الشاعر بالموروث من الشعر ومدى اقتفائه خطى غيره او قدرته على التوليد والابتكار في المعاني والتجويد في الاساليب ولذلك فان ما نسب الى المفضل من ان حماداً « عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم »[83] ، صحيح من حيث المضمون . وكأن الذي عزا هذا القول الى المفضل الضبي كان على علم بمعرفة حماد العميقة لمذاهب الشعراء معانيهم ، فوصف حماداً هذا الوصف ، ثم اسنده الى المفضل ، ليقوّل المفضل بعد ذلك في حماد ما لم يقله تلميذ في استاذ من طعن وتجريح .

كان النقد في عصر حماد يتجه الى البيت لا الى القصيدة عامة فاحسن الشعراء احسنهم بيتاً ومثلاً شارداً . فبراعة الشاعر وجودة شعره تتمثل عند المرزوقي في « ان يقوم كل بيت بنفسه غير مفتقر الى غيره الا مايكون مضمناً باخيه . وهو عيب فيه »[84] . والشاعر المفضل عند النقاد وعلى وفق قواعد عمود الشعر من « كثرت سوائر امثاله وشوارد ابياته »[85] ، فالشاعر يحمد ان هو اتى ببيت يستقل في المعنى بنفسه ويحمد اكثر اذا كان شطر البيت الواحد مستقلاً عن شطره الاخر مستغنياً عنه وعلى اساس هذه النظرة الى الشاعر وشعره كان حماد يقدم النابغة الذبياني على الشعراء المعاصرين له وقال مبيناً سبب تفضيله النابغة على سواه : « ان تمثلت ببيت من شعره . اكتفيت به . مثل قوله :

حلفت فلم اتـرك لنفسـك ريبـة
وليس وراء الله للمـرء مـذهب

وان تمثلت بنصف بيت من شعره . اكتفيت به . وهو : وليس وراء الله للمرء مذهب . بل ان تمثلت بربع بيت من شعره ، اكتفيت وهو قوله : اي الرجال المهذب"[86] ورجح حماد شعر امرىء القيس على شعر سواه من شعراء الجاهلية ورجح ايضاً شعر ذي الرمة على شعر اقرانه من الشعراء الاسلاميين لما في شعر هذين الشاعرين من تصوير فني جميل ، قال : « امرؤ القيس احسن الجاهلية تشبيها وذو الرمة احسن الاسلام تشبيها .وما اخر القوم ذكره الا لحداثة سنه وانهم حسدوه »[87] . ولاحظ حماد على شعر عمر بن أبي ربيعة ، وقد التقاه بمكة شيئاً من السمات المحببة من حيث رقة اللفظ وسهولة العبارة وقرب المأخذ فقال فيه : « ذلك الفستق المقشر »[88] واعجب بشعر عبد الله بن قيس الرقيات . فقال في شانه : « اذا اردت ان تقول الشعر ، فأرو شعر ابن الرقيات ، فانه ارق الناس حواشي شعر)"[89] . وذكر انه كان معجباً بشعر الاحوص وانه يقدم هذا الشاعر على شعراء النسيب المعاصرين له"[90] . اما اختيار حماد من الشعر الذي عرف بالقصائد السبع ، فهو في حد ذاته عمل نقدي ، لان الاختيار قائم على موقف ومستند الى نظرة فلابد من وجود اسس بمقتضاها يقدم الشعر الذي وقع عليه اختيار الناقد ، ويؤخر الشعر الذي قيل في بابه او موضوعه حين لا يحظى من صاحب الاختيار بالالتفات

اليه والوقوف عنده فيكون هذا الشعر غير المختار ادنى مرتبةً من المختار على وفق ذوق الناقد ومقياسه او معياره لقد بحث حماد في تراث شعري ضخم، وانتهى به البحث الى انتقاء سبع قصائد. عدت من خيار الشعر ونفائسه. وهكذا كان حماد ناقداً كبيراً للشعر العربي فضلًا عن طول باعه في العلوم والمعارف الاخرى. وقد توفي رحمه الله سنة ١٥٥هـ او ١٥٦هـ[35] بعد نشاط علمي وأدبي كبير وخلف تراثا كبيراً، تناقله تلاميذه من بعده. وكان اولئك التلاميذ معترفين بفضله مقدرين منزلته حق قدرها، وهذا احدهم ـ وهو الشاعر الراوية محمد بن كناسة يرثيه بقصيدة يقول فيها:

ابعـــدت من نـــوصـك الفـــرار فمـــا
جـــاوزت حيث انتهى بـــك القـــدر
لـــو كـــان ينجي من الـــردى حـــذر
نجـــاك ممـــا أصـــابـــك الحـــذر
يـــرحمـــك الله من اخٍ يـــا ابـــا
القـــاسم مـــا في صفـــائـــه كـــدر
فتهـــذا يـــذهب الـــزمـــان ويفنى
العلم منـــــه ويـــــدرس الاثـــــر

رحم الله حماداً فقد خدم العربية خدمة جليلة واخلص لابنائها اخلاصاً لا ينكر.

هوامش البحث ومصادره

١. الفهرست لابن النديم ١٠٤. طهران ١٩٧١ تحقيق رضا تجدد، معجم الادباء لياقوت الحموي ٢٥٨/٩ بيروت ١٩٨٠ دار الفكر. وفيات الاعيان لابن خلكان ٢٠٦/٢. بيروت ١٩٦٩ تحقيق الدكتور احسان عباس.

٢. الفهرست ١٠٤.

٣. المعارف لابن قتيبة ٢٣٢. طبقات النحويين واللغويين لابي بكر الزبيدي ١٩١. القاهرة ١٩٨٤ تحقيق محمد ابي الفضل.

٤. الفهرست ١٠٤.

٥. معجم الادباء ٢٦٦/٩.

٦. الاغاني لابي فرج الاصفهاني ٨٣/٦. بيروت ١٩٦٠ نشرة دار الثقافة. تحقيق عبد الستار احمد فراج.

٧. الاغاني ٨٧/٦.

٨. الاغاني ٦٨/٦، ٦٩.

٩. الاغاني ٦٨/٦.

١٠. الاغاني ٧٨/٦.

١١. الاغاني ٦٩/٦.

١٢. الاغاني ٩٠/٦.

١٣. الاغاني ٨٣/٧، ٢٨٥/٢١ «نشرة الهيأة المصرية العامة للكتاب». وانظر في هذا الشان المفضل الضبي حياته وأثاره ١٢٦ رسالة ماجستير غير منشورة لزكي ذاكر العاني. بغداد ١٩٨٨.

١٤. طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٨/١ ـ ٤٩، القاهرة ١٩٧٤، تحقيق محمود محمد شاكر.

١٥. الاغاني ٧١/٦.

١٦. مراتب النحويين لابي الطيب اللغوي ٤٧، القاهرة ١٩٥٥، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم.

١٧. الاغاني ٨٨/٦.

١٨. طبقات النحويين واللغويين ١٣٢، نزهة الالباء لابي البركات الانباري ٨١. «باختلاف يسير». الاردن ١٩٨٥ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي.

١٩. طبقات النحويين واللغويين ١٩٤.

٢٠. نزهة الالباء ٨٣.

٢١. الفهرست ٦٤.

٢٢. مراتب النحويين ٩٠ «في المطبوع. من الثقات عنهم بدل منهم وهو خطأ نسخي».

٢٣. مراتب النحويين ٧٤. معجم الادباء ١٩٠/٣.

٢٤. معجم الادباء ١٨٢/٣ ـ ١٨٣.

٢٥. مراتب النحويين ٤٧.

٢٦. الاغاني ٨٥/٦.

٢٧. مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد ص٤٤٣ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٨.

٢٨. الاغاني ٥٦/٦ ـ ٨٧.

٢٩. مصادر الشعر الجاهلي ٤٤٣.

٣٠. اشعار الشعراء الستة «شعر زهير» ٣٢٣، بيروت ١٩٨٣. نشر دار الافاق الجديدة.

٣١. مختارات ابن الشجري ٩/١، القاهرة ١٩٧٥ تحقيق علي محمد البجاوي.

٣٢. انظر في هذا الصدد: مصادر الشعر الجاهلي ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

٣٣. امالي الشريف المرتضى ١٣٢/١، القاهرة ١٩٥٤ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم.

٣٤. رأي جديد في حماد الراوية للاستاذ السيد يعقوب بكر ـ مجلة الرسالة المصرية في عددها ٦٤٣ وما بعدها لسنتها الثالثة عشرة ص١١٧٤.

٣٥. حياة الشعر في الكوفة للدكتور يوسف خليف ٢٧٩، القاهرة ١٩٦٨..

٣٦ . مصادر الشعر الجاهلي ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

٣٧ . شرح ديوان زهير بن ابي سلمى لابي العباس ثعلب ٣١١ « وردت العبارة في نسختين من مخطوطة الشرح فجعلها المحقق في الهامش » .

٣٨ . قطب السرور في اوصاف الخمور للرقيق النديم ٣٠٧ دمشق ١٩٦٩ ، تحقيق احمد الجندي ، ربيع الابرار للزمخشري ٦٣٣/٢ ، بغداد ١٩٨٢ ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي .

٣٩ . مراتب النحويين ٤١ .

٤٠ . فحولة الشعراء للاصمعي ٢٥ ، القاهرة ١٩٥٣ تحقيق خفاجي والزيني . الموشح للمرزباني ٣٣٣ . القاهرة ١٩٦٥ تحقيق علي محمد البجاوي .

٤١ . الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢/١ . بيروت ١٩٦٤ تحقيق احمد محمد شاكر .

٤٢ . بحث غير منشور مقدم الى مجلة آداب المستنصرية .

٤٣ . مراتب النحويين ٧٢ .

٤٤ . مراتب النحويين ٧٢ .

٤٥ . مراتب النحويين ٧٥ .

٤٦ . المزهر للسيوطي ٢٠٤/٢ ، القاهرة تحقيق جاد المولى والبجاوي وابي الفضل .

٤٧ . مراتب النحويين ٧٢ .

٤٨ . طبقات فحول الشعراء ٢٥/١ . الخصائص لابن جني ٢٨٧/١ . القاهرة ١٩٥٢ تحقيق محمد علي النجار .

٤٩ . الاغاني ٨٩/٦ .

٥٠ . الفهرست ١٠٢ . مصادر الشعر الجاهلي ١٥٧ .

٥١ . الفهرست ١٠٤ .

٥٢ . شرح ديوان زهير ٣١١ (وردت العبارة في نسختين من مخطوطة الشرح) .

٥٣ . ديوان المفضليات بشرح ابي محمد الانباري ٣٣ .

٥٤ . مختارات ابن الشجرى ١٦/٣ .

٥٥ . مختارات ابن الشجرى ١٢/٣ .

٥٦ . الاغاني ٢١٩/١٧ ، القاهرة ١٩٦٢ ـ ١٩٧٤ نشرة دار الكتب .

٥٧ . شرح ديوان زهير لثعلب ٢٨٣ ، ٣١٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

٥٨ . مختارات ابن الشجرى ١٦/٣ .

٥٩ . مختارات ابن الشجرى ١٢/٣ .

٦٠ . طبقات فحول الشعراء ٤٨/١ .

٦١ . مصادر الشعر الجاهلي ٤٨٨ .

٦٢ . الاغاني ٨٦/٦ .

٦٣ . العقد الفريد لابن عبد ربه ١٢١/٦ ، بيروت ١٩٨٧ تحقيق د . عبد المجيد الترحيني .

٦٤ . مجالس العلماء للزجاجي ١٨٠ . القاهرة ١٩٨٣ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

٦٥ . حلية المحاضرة للحاتمي ٣٩/٢ ، بغداد ١٩٧٩ ، تحقيق الدكتور جعفر الكتاني .

٦٦ . الخصائص ٣١٠/٣ .

٦٧ . شرح مقصورة ابن دريد لابن خالويه ٥٢٢ ، حققه الدكتور محمود جاسم الدرويش ضمن كتابه : ابن خالويه وجهوده في اللغة ، بغداد ١٩٩٠ .

٦٨ . طبقات فحول الشعراء ٤٩/١ .

٦٩ . مراتب النحويين ٧٢ .

٧٠ . المصون في الاداب لابي احمد العسكري ٧٥ ، القاهرة ١٩٨٢ تحقيق عبد السلام محمد هارون .

٧١ . الاغاني ١٩٢/٥ .

٧٢ . الاغاني ٧٩/٦ .

٧٣ . الاغاني ١٤٣/١٤ .

٧٤ . الاغاني ٨٥/٦ .

٧٥ . إنباه الرواة للقفطي ٣٤٨/١ .

٧٦ . حلية المحاضرة ٣٧/٢ .

٧٧ . الاغاني ٨٥/٦ .

٧٨ . نشر الدكتور محسن غياض فصله من هذا الكتاب وسمت به « القصائد التي لامثيل لها » في بيروت سنة ١٩٧٧ .

٧٩ . الاغاني ٩٠/٦ .

٨٠ . الاغاني ٨١/٦ .

٨١ . الاغاني ٨١/٦ .

٨٢ . شرح ديوان الحماسة ١٨/١ ـ ١٩ .

٨٥ . الوساطة للجرجاني ٣٣ ـ ٣٤ .

٨٦ . حلية المحاضرة ٢٤٣/١ العمدة لان رشيق ٢٨٢/١ .

٨٧ . خزانة الادب للبغدادي ١٠٧/١ ، القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

٨٨ . العقد الفريد ١٢١/٦ . وانظر كذلك العقد الفريد ١٥١/٨ .

٨٩ . خزانة الادب للبغدادي ٢١٧/١١ .

٩٠ . طبقات فحول الشعراء ٦٦٨/٢ ، ٩١ . الفهرست ٤٠١ . وفيات الاعيان ٢٠٧/٢ . معجم الادباء ٢٦٦/٩ . سير اعلام النبلاء للذهبي ١٥٧/٧ . بيروت ١٩٩٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي ٥٦/٦ ، القاهرة . مكتبة القدسي .

*

المرأة المسلمة ودورها الحضاري

عبدالعزيز بنعبد الله
مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي / المغرب

يعتقد المؤرخون أن جميع الاديان والامم قبل العرب أساءت الى المرأة ، فقد كان الاغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل ، وكان جميع قدماء المشرعين يظهرون القسوة نفسها على المرأة ، ومن ذلك قوانين الهندوس ، وكان الصينيون والروس والايطاليون والاسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة ، كما تدل على ذلك الامثال السائرة عندهم ، وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والاغريقية والرومانية والحديثة المرأة – كما يقول جوستاف لوبون – من فصيلة الاماء او الصبيان ، وقد انعقد ابان البعث النبوي مؤتمر في بلاد الرومان تساءل : هل للمرأة روح ؟ وأجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشترى ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء .

وتطورت الاراء في أوربا حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر في نظريات أوجست كونت Auguste Conte الذي نو أبعد الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الاباحية في المرأة .

فما هو الوضع الذي أعطاه هذا العالم للمرأة في فلسفته الايجابية التي كان لها أكبر الاثر في تكييف نظريات عصره في الميدان الاجتماعي ؟.

يقول الفيلسوف : إن الرجل والمرأة يهدفان الى غايات متباينة في الحياة ، فمرمى الرجل هو العمل ، وغاية المرأة الحب والحنان ، والواجب يدعو الرجل إلى قيادة نشاط الامة بينما على المرأة الانصياع وبذل النصيحة والتأثير الاخلاقي والتهذيب ، لانها تشخص الحب وترمز الى قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب ، فقوى الجنسين متكاملة ، واذا ما تنافست هذه القوى فيما بينها فانها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية .

وهذا النظام الذي يجعل المرأة خاضعة للرجل يسند إليها مهمة رائعة في الحياة الخاصة بينما يحظر عليها التسرب الى الحياة العمومية ، ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد « أوجست كونت » الذي اخذ عليه أنصار حرية المرأة حصرها في نطاق ضيق ، ولكن « الفيلسوف الايجابي » يرد على خصومه بان إنافة الرجل على المرأة هو ظاهري فقط لان للمرأة تفوقاً ناصعاً على الرجل في الميدان الاجتماعي لانها مجبولة على المرونة الاجتماعية وهي عامل المحافظة والتوازن في الهيكل الاجتماعي ، وحتى في الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة لان لهما حقوقاً وواجبات مختلفة ؛ فالرجل قوام على البيت وهو الذي يعيل المرأة كما يقول الفيلسوف المصري ، لان المرأة يجب أن تتجرد من هموم المادة ، فناموس التطور الحديث يقضي ، في فلسفة كونت الايجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوماً عن يوم ، وتجريدها أكثر ما يمكن من كل عمل خارجي لكفالة وجهتها العاطفية . ويذهب هذا الفيلسوف الى حد حرمان المرأة من الارث بالمرة نظرا لكون التكاليف المادية منوطة بالرجال وحدهم .

ثم جاء العالم برودون Proudhon فذكر في كتابه « العدالة » ان الرجل والمرأة غير متساويين وانهما متكاملان ، وبرهن على أن الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح ؛ مادياً وفكرياً وأدبياً ، فالتفوق المادي ظاهر ، والتفوق الفكري راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الاشياء فهي قادرة على تصور الامور منفصلة بعضها عن بعض ، ومن هنا جاء انصرافها للروحيات والشعر لا للعلوم ، فللمرأة القدرة على الاحتذاء لا على الابتكار والخلق ، لهذا لم نرها في مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافا علمياً أو أسست مدرسة أدبية أو فنية . وقد ذهبت مدام جورج صاند الروائية الفرنسية الشهيرة الى حد القول بان « المرأة بليدة بالطبع » . ولا شك ان هذا الحكم الصارم الذي صدر من امرأة ضد المرأة راجع الى الوضع الخاص الذي يجعل المرأة في نظر برودون محرومة من «روح الجمع والتأليف» عاجزة عن سبر غور الاشياء وادراك الروابط الدقيقة التي تجعل من جزئيات مختلفة كلاً متناسقاً ووحدة متراصة ، فهي تفهم كل فكرة على حدة ، ولكنها تتقاعس عن

تصور الفكرة العامة ، فالرجل أقوى فكرياً من المرأة بنسبة تسعة الى اربعة ، وخلقياً بنسبة ثلاثة الى اثنين ، ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بان الرجل يفوق المرأة في المجموع بنسبة سبعة وعشرين الى ثمانية .

والمرأة تفوق الرجل في الجمال ، ومن هنا تقيده وتحدوه الى العدالة ، وميزة الجمال هذه هي التي تضفي على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل .

والجمال هنا جسماني وفكري لان جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما يتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيتها التي هي مرأة للرجل ، فكثيراً ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية الا بفضل مثالية المرأة .

اما جول ويشليه Mikbelet فانه استمد نظريته في المرأة من الثورة الفرنسية ، وقد ذكر في كتابه « المرأة » ان دور هذه في الحياة هو اضفاء طابع السمو على كل شيء حولها ، فهي الشعر الذي يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته ، وهي الينبوع الخلقي في العائلة ، كما ان الدين هو منار الفضيلة في المجتمع ، فالمرأة هي الطبيب الحق .

تلك نظريات فلسفية في المرأة كان لها تاثير كبير في التطور النسوي في أوربا في العصر الحديث ، مما جعل المرأة تتحرر في جرمانيا ، مثلاً ، بفرض ثقة كاملة في دورها الاجتماعي والتهذيبي ، وكذلك في فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولمشاطرة الرجل في الحقل الادبي الكتابة والتاليف .

ولكن تطور العلوم ساعد المرأة أكثر من دعوة الفلاسفة الى الانبثاق ، فخرجت المرأة في أوربا الى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة .

واذا كانت المرأة الاوربية قد تحررت داخل اطار الاعراف فإن القوانين المتعلقة بها لم تتغير الا قليلاً ، فهي ما زالت سجينة القانون ، لا سيما في فرنسا ، حيث لا يطلق لها مثلاً كامل التصرف في مالها كما عند المرأة المسلمة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ ١٩٠٨ .

فقد تمتعت المرأة العربية حتى قبل الاسلام بمركز اجتماعي لم تحظ به النساء في كثير من أقطار أوربا حتى في العصور الحديثة ، وقد ذكر غوستاف لوبون ان الاسلام كان ذا تاثير عظيم في حال المرأة في الشرق ، فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعي خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى ، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية احسن بكثير مما في القوانين الاوربية .. واذا اردنا ان نعلم درجة تاثير القرآن في أمر النساء وجب ان ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب ، فقد ظهر مما قصه المؤرخون أنه كان لها من الشان ما اتفق لاخواتها حديثاً في اوربا ، وذلك حين انتشار فروسية عرب الاندلس [١] ، وقد لعبت المرأة المسلمة أدواراً في منتهى الخطورة ايام كان منها النساء العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق وفي العصر الاموي في الاندلس .

نعم ان المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامي الذي خولها الاسلام اياه مما جعل تطورها يتحجر أحيانا . وقد أشار ابن رشد الى سوء وضع المرأة في الشرق من عدم تمكينها من إظهار قواها كانها لم تخلق الا للولادة ، وارضاع الطفل .

ولعل الغريب في النظريات الفلسفية هو ان ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم ، وذلك حين أكد في تعليقه على جمهورية أفلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع وانما هو اختلاف في الحكم ، أي أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن أضعف منهم في الاعمال ، والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما ، ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال .

وقد صقلت الحياة العربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة ، وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين ، منهن : أروى بنت عبد المطلب ، وأم الخير الخطيبة ، وأميمة أم تابط شرا ، والحارثية المشهورة بالحماسة والفخر ، وحليمة الموصوفة بالحكمة ، وحميدة التي كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيباً تهجوه بالشعر حتى خشي لسانها العرب ، وسعدى التي تفننت بمشقها ، وصفية ابنة مسافر التي تلونت في أساليب البلاغة ، وعمرة ذات الشعر المحكم وراوية العرب ، وعمرة الخثعمية الحماسية ، وفاطمة الخثعمية الحماسية ، وفاطمة الخثعمية الكاهنة ، وفاطمة الخزاعية التي لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والامثال ، وناجية التي شاركت في الحروب وحرضت على القتال .

وفي هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما بلغته المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام من مكانة في الادب والشعر في أدق جوانبه وأعرق فنونه .

وعندما جاء الاسلام انفسح الميدان أمام المرأة ، فشاركت الرجل في العلوم النقلية والعقلية ، وطرقت أبواب الشعر وابتكرت في الغناء ، وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تقرض الشعر سليقة ، ذلك ان الاسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن ، منهن حفصة بنت عمر [٢] .

وقد ترعرعت في أحضان الاسلام الالاف من النساء اللواتي

عركن أصناف العلوم حتى نافسن الرجال ، وفرضن وجودهن وأصبحن أستاذات لكبار علماء عصرهن ، وقد ترجم ابن حجر في الاصابة لـ ١٠٤٣ امرأة كان من بينهن العالمات والفقيهات واللغويات والمحدثات [٣] وخصص الامام النووي في « تهذيب الاسماء » والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » والسخاوي في « الضوء اللامع » حيزاً كبيراً لترجمة النساء العالمات ، وقد ذكر السخاوي أن السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه في القاهرة وسمع هو منها في دمشق ، وقد اتهم الذهبي أربعة آلاف من المحدثين ، ولكنه قال عن النساء المحدثات « ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها » [٤] ، وترجم السيوطي لـ ٣٧ شاعرة واقتطف نماذج رائعة من أشعارهن في كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم بـ « نزهة الجلساء في أشعار النساء » [٥] ، وتتلمذ الامام ابن عساكر على احدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم [٥] ، وقد أفرد المقري فصلاً لنساء الاندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن كما تتلمذ عليهن ابن الاثير والحافظ الذهبي مؤرخ الاسلام .

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتات لامة أخرى أن تحظى بها في مختلف الاعصار والامصار ، وقد قال عروة في عائشة الصديقية : « ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا بطب من عائشة ، وقد وفدت الصحابية أم الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك ، وأخذ الامام الشافعي الحديث عن السيدة نفيسة وضمته حلقتها في القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته ، وحكى ابن خلكان [٦] عن نفيسة هذه أنها كانت تلقي محاضرات يجلس للانصات إليها مشاهير العلماء ، وكانت عائشة الحنبلية احدى أستاذات ابن حجر العسقلاني في الحديث ، وقد تتلمذ ابن حجر لزينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثة الفقيهة وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالباً للحديث ، كما تتلمذ ابن حجر ايضاً لزينب بنت عثمان بن محمد التي كانت لها اليد الطولى في علوم السنة ولها رسائل في الفقه والحديث استند عليها كثير من العلماء ، وفي العصر نفسه كانت فاطمة بنت المهدي زوجة لاحد العلماء وكان زوجها يرجع إليها فيما يشكل عليه فاذا ضايقه الطلبة استشارها ، وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد ، وأخذت هي عن الزمخشري « صاحب الكشاف » وذكر ابن العماد الحنبلي في شذراته عن أم الخير وتخصصها في علم الحديث « أن أهل الارض نزلوا درجة في العلم بموتها » ، وقد تتلمذ على عنيدة خمسمائة رجل وامرأة [٧] ، وقرأ الخطيب البغدادي صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد المروزي التي أسهمت بنصيب كبير في تكوينه [٨] وهي حافظة من رواة البخاري [٩] ، وقد حدثت رقية حفيدة ابن مزرع بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس والمزي وألقت محاضرات في المدينة وهي من مشاهير المحدثين ، وأخذت بمسند الشافعي عن الزبيدي ، وذكر الصفدي أنها كانت محدثة عصرها وروى عنها مشاهير العلماء ، وقد برعت عائشة بنت علي الدمشقية في النحو والصرف والبيان والعروض والحديث وفتحت حلقة للتدريس ، وكانت عائشة المقدسية (من حفدة ابن قدامة المقدسي) سيدة المحدثين بدمشق سمعت البخاري على الحجار وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتباً عديدة وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة في تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم ، وقد فاقت العروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون هذا الاخير في النحو واللغة والعروض وكانت تحفظ « كامل » المبرد و « نوادر » القالي وتشرحهما ، وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقي من المحدثات أجازها معظم علماء القرن السابع في الشام والعراق والحجاز وفارس ، والفقيهة فاطمة السمرقندية زوجة علاء الدين القاشاني ألفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء ، وبلغت شهدة الدينورية بين علماء القرن الثاني عشر منزلة في اسناد الحديث لم يبلغها أحد حتى نُعْتَتْ بـ « مسندة العراق » ولها رسائل عديدة في الحديث والفقه والتوحيد ، ولبنى الاندلسية العالمة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم ، وقد تولت عالمة زمانها فاطمة بنت قمر بزام المتوفاة عام ٩٦٦ مشيخة مدرسة الزجاجية ومدرسة العادلية وانتهت اليها الرياسة بحلب .

أما الشواعر والاديبات والكاتبات اللواتي نبغن في الاسلام فهن كثيرات جدا منهن حسب حروف الهجاء ، أسماء العامرية التي مدحت عبد المؤمن بن علي في قصيدة طلبت منه فيها رفع الضريبة عن دارها والحجر على أموالها ، وأم العلاء الحجارية التي لها قصائد وموشحات ذكرها صاحب المغرب ، وأم الكرام ابنة المعتصم صاحب المرية صاحبة الموشحات ، وأمة العزيز الاندلسية التي ذكر جملة من شعرها ابن دحية في « المطرب من أشعار المغرب » ، وبثينة ابنة المعتمد ، وتقية ابنة أبي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه وأخذت عنه العلم بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنة عن طول باع المرأة في كل ذلك ، وحفصة بنت حمدون الاندلسية ، وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب ، والشاعرة الشلبية التي كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتي وجهت الى يعقوب المنصور بقصيدة تتظلم فيها من ولاة شلب ، وعائشة القرطبية التي كانت تمدح الملوك وترتجل الشعر ارتجالاً ، وروى ابن حيان أنها أعقل بنات عصرها ،

وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التي نظمتها على منوال تقي الدين بن حجة والتي درست في الشام ومصر وأجاز لها العلماء بالافتاء والتدريس ولها مؤلفات في الادب والفقه وديوان شعر وكانت تكاتب الادباء وتستفتي في المشاكل اللغوية والفقهية والادارية وتجتمع بالملوك فتجد منهم آذاناً مصغية ، وعائشة التيمورية ، وعليه بنت المهدي أخت الرشيد لها ديوان شعر ، وعمرة ابنة الخنساء ، والشاعرة الغسانية من شواعر الاندلس الموصوفات في المائة الرابعة ، وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبانة زوجة الامين بن هارون الرشيد ، وليلى الاخيلية ، ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي كانت تناضل الشعراء وتجادل الادباء وتفوق البرعاء ، وكانت زوجة الفرزدق أديبة نقادة يحتكم إليها شعراء العصر ، كما كانت مريم بنت أبي يعقوب الانصاري تعلم النساء الادب ولا يخلو كتاب من كتب التراجم او الادب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية في مختلف الميادين .

وقد ساق غوستاف لوبون في « حضارة العرب » جملة من هؤلاء من بينهن فاطمة التي كانت تنسخ للحكم الثاني والتي أعجب العلماء برسائلها في الفنون والعلوم ، وخديجة الشاعرة ، ومريم التي كانت تعلم بنات الاسر الراقية في اشبيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات ، ورياضية نابغة عصرها في القريض والقصص الرائعة والتي جالت في الشرق حيث كانت محط هتاف العلماء في كل مصر . وورد في « خلاصة الاثر »[10] أن بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها .

ويذكرون من بين صالونات الادب التي كانت مجمعاً لكبار المفكرين مجلس سكينة في الحجاز ، ومجلس علية بنت المهدي ، ومجلس الفضل في بغداد ، ونزهون في غرناطة ، وولادة بنت المستكفي ، وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم والادب التي شاركت فيها المرأة بحضوره في القرن السادس .

وهكذا انفسح مجال العلم أمام المرأة المسلمة في مختلف الاعصار والامصار ، وقد أثار القلقشندي صاحب « صبح الاعشى » مشكلة الثقافة النسوية فقال : « لم يرو أن أحداً من المتقدمين أنكر على النساء هذا الحق » .

أما في الميدان العسكري فقد ذكر الطبري [11] أن النساء كن يجهزن الجيش في حروب القادسية ، وضربت صفية المثل الرفيع في البطولة الاولى للمرأة المسلمة[12] وشهدت أم سليم والدة أنس بن مالك المغازي كلها[13] ، وشاركت أم عمارة مع زوجها في غزوة أحد وحرب اليمامة ، وأصيبت اثنتي عشرة اصابة في غمرة المعارك ، وصاحت خولة في جموع النساء بدمشق فاسقطن ثلاثين جندياً للعدو ، ونقل ادوارد جيبن في تاريخه هذه الوقعة فقال : « كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديراً بالإجلال والتقدير اذ كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمي السهام واستطعن بتلك الخلال أن يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج » . وفي موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية في النساء فبرزن من خيامهن واقتلعن أعمدتها وحملن ما استطعن حمله من السلاح وأنزلن بالعدو هزيمة نكراء . وذكر ابن الاثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم . وتقدمت جورية أخت معاوية بفرقة من النساء وأخذت تناضل في اليرموك حتى جرحت . وفي يوم التعوير (اليرموك) كانت أسماء بنت أبي بكر تقاتل الى جانب زوجها الزبير بن العوام . وبارزت غزالة الحجاج فلاذ بالفرار . وكانت والدة أسامة وأخته تحاربان في الحروب الصليبية . وفي الهند قتلت رضية سلطانة الاسد بضربة من سيفها البتار ، وكانت تتخذ زينتها من الاسلحة والدروع . وفي احدى الغزوات نشر النساء خُمُرَهُنّ وجعلنها رايات وزحفن نحو العدو حتى ظن المشركون أنها نجدة وانهزموا[14] . وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الادب والفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص وخاضت معه المعامع وحضرت معركة الخزاة ، وكانت خولة الكندية تفوق الرجال فروسية وبسالة ، وحضرت مزروعة الحميرية وفتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد . وفي القرون الاخيرة ألقت نساء مصر العساكر الفرنسية الى دورهن وقتلنهم ورمينهم في الابار[15] .

أما في الموسيقى والغناء فهنالك المئات ممن كانَ لهن الباع الطويل والبراعة الخارقة وقد ذكر معبد عن جميلة الخزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنين وكان يتحاكم اليها أهل الفن في مكة والمدينة والبصرة . وتعتبر عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز وألفت الحاناً غريبة وفتنت أهل المدينة رجالاً ونساء .

ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الامصار الاسلامية الى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة . وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الاوربية ، ولكن مؤلف « حضارة العرب » الذي صنف كتابه عام ١٨٨٠ أكد « أن حالة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة أخواتهن في أوربا » . وأنه اذا كان هنالك انخفاض في مستواهن فقد حدث « خلافاً للقرآن لا بسبب القرآن » . وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعوراً بمركزها الممتاز الذي خوله الاسلام إياها الذي ضرب المثل السامي فيه نساء كن رمز النبوغ والطهر والعفاف أزيد من ثلاثة عشر قرناً وقد ذكر صاحب « تخريج الدلالات السمعية »[16] من ولاه عمر من النساء أمر السوق . وذكر صاحب « العقد الثمين »[17] الشفاء وتوليها أمر

السوق وتعليمها النساء الكتابة . وتولت قهرمانة لام المقتدر المظالم فكانت تجلس يوماً في كل أسبوع [١٨] .

هذا وقد لعبت المرأة المغربية دوراً بارزاً في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ ، واذا لم يكن هذا الدور ناصعاً في كثير من الاحيان فانه لم يكن كذلك باهتاً اذا لاحظنا أن الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملاً اقتصادياً ، فكانت المرأة ربة البيت وراعيته والمشرفة على الحقل والسوائم في البادية ، والصانعة الماهرة في الحضر والوبر ، وللمرأة حقوق اقتصادية أكثر مما للرجل لان الاسلام يخولها حق الانفاق في البر من مال زوجها بينما يحظر على هذا التصرف في مال زوجته بدون اذنها . وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومثار حيه الا في النادر ، بل ان بعض النساء أظهرن براعة ادارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لازواجهن الامراء والرؤساء ، وساهمت المرأة كذلك بحظ وافر في الاسعاف ورصد الاوقاف للمعوزين واقامة المعاهد ، ويكفي أن تعلم أن جامع القرويين انما أسسته فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام ٢٤٥ هـ ، بينما أقامت أختها مريم جامع الاندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري وصار بعد ذلك أكبر فروعها .

وقد نبغت في العهد الادريسي الاميرة الحسني بنت سليمان النجاعي زوجة المولى ادريس الازهر الذي كان لا يفعل شيئاً الا بموافقتها ، وكانت اليها المشورة في دولته [١٩] وقد أشار محمد الكانوني في مخطوط له حول « شهيرات المغرب » الى بعض من نبغ من النساء ، فذكر عاتكة بنت الامير علي بن عمر بن ادريس زوجة الامير يحيى بن يحيى بن محمد التي كان لها أثر في مصير السياسة المغربية وخروج الدولة من بني محمد بن ادريس الى بني عمر بن ادريس ، وكان الناس قد قاموا على زوجها الذي مات بفاس غماً ، فاستنجدت هي بوالدها علي بن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرهما من الريف المغربي ، فجيش الجيوش وأخمد الثورة واسترجع فاساً عام ٢٨١ هـ . وقد ذكر صاحب المعجب [٢٠] ان في دولة الحموديين الادارسة لم يثبت محمد بن ادريس الا بفضل رباطة جاش والدته التي كانت تقوى منه وتشرف على الحرب بنفسها .

وفي عهد المرابطين اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف بن تاشفين احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ، ولها بنى ابن تاشفين مدينة مراكش كما في « الاستبصار » ، وكذلك تميمة بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة النادرة ، جمعت ثروة أشرفت على ادارتها بنفسها وكان لها كاتب تحاسبه . وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دوراً في سياسة الدولة وكان الامير يدبر كل الشؤون العمومية باشارتها . وكانت حواء بنت ابراهيم المسوفي تقرأ وتحاضر بالادب . كما كانت أختها زينب تحفظ جملة وافرة من الشعر . وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها .

وقد قامت فانو بنت عمر بن ينتيان بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللمتونية ، فهي من البطلات التي يحق للمغرب ان يخلد ذكراهن ، فقد استماتت في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش ، وناضلت نصف يوم قبل ان يستسلم اسحق بن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام ٥٤٥ هـ ، وقد أثار استبسال هذه العذراء اللمتونية اعجاب الموحدين في ذلك العصر .

وفي ايام الموحدين درست أم بنت القاضي عبد الحق بن عطية على ولدها وأخذ الناس عنها العلوم ، وهي والدة أبي جعفر أحمد الاديب طبيب المنصور ولها تاليف في الوعظ والارشاد [٢١] . وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن علم الاصول على أبي عبد الله بن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة . وحفصة الركونية كانت أستاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت أديبة زمانها [٢٢] بل أستاذة عصرها [٢٣] وهناك ايضاً أم عمرو بنت أبي مروان ابن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوي نساء القصر وأطفاله وكانت تستفتى في الطب ، ولها بنت هي ابنة أبي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة ، وورقاء بنت ينتان الفاسية الاديبة الشاعرة ، وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بغرناطة ، وأمة العزيز السبتية لها أشعار رائقة ، وأم العز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن أبيها صحيح البخاري ، وزينب القرطولية سمعت على أبيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغساني نزيل مراكش والعمات أستاذة في القراءات السبع [٢٤] ، وأم المجد مريم بنت أبي الحسن الغافقي الذي فتح مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم أول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجوز المسندة محمد بن القاسم السبتي في « اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سني الاثار » [٢٥] ، وخيرونة الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلالجي امام اهل فاس في الاصول ولها الف العقيدة البرهانية على طريقة الاشعري .

ونبغت في عهد المرينيين فاطمة وأم هاني بنتا محمد بن موسى العبدوسي وهما فقيهتان ، وأم البنين الفقيهة جدة الشيخ زروق وسارة الحلبية الفاسية وهي استاذة شاعرة من طبقة عالية في الادب توفيت بفاس حيث اجازت عبد الله بن سلمون ولها قصيدة اجابت بها ابن رشد السبتي ومدحت في اخرى مالك بن المرحل . ومن النساء البارعات صفية العزفية السبتية وهي من فضليات نساء عصرها في العلم والصيانة ، وصبح جارية الحكيم الجزنائي فيلسوف المغرب وطبيب وكاتب

ديوان الانشاء في دولة أبي الحسن المريني لقنها العربية لنظمت الشعر ، وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي السبتي أجاز لها ابن رشيد عام وفاته ٧٢١ هـ [26] ، وأمة الرحيم السبتية أجاز لها جماعة ، وأم قاسم زهرة جدة الامام حسن المرادي الاسفي المعروفة بالشيخة .

ولم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن اختها العربية في شجاعتها ورباطة جاشها لا سيما في الصحراء أو الجبال التي انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون ، وكانت قبائل بني مرين تخرج بجميع العيالات في الحرب كما وقع في الغزاة التي تقابل فيها أبو يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان في تلمسان حيث برزت الجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجواري المولدات تقودها الرجال في احسن زي وأتم جمال [27] .

وفي عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسع في الميدان السياسي ، فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس (النصف الثاني لعام ١٩٥٦ ص ٢٢٢) وولدت هذه السيدة عام ٩٠٠ هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر أنها درست اللغة الاسبانية لان والدتها لالة زهرة أندلسية تزوجت على ابن راشد قائد شفشاون عندما كان يجاهد وهو شاب في العدوة ، وبذلك كان للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسي الذي لعبته فقد تزوجت علي المنظري وانتقلت معه الى تطوان ، حيث وجدت وسطاً أندلسياً متقفاً رقيق الحاشية كالذي ربيت فيه وكان زوجها في نضال مستمر مع البرتغاليين في طنجة واصيلاً ، وكذلك في سبتة مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التي كانت تحاك في ذلك العصر ضد المغرب ، وعندما مات المنظري تزوجت مولاي علي بن عمر الحسني الذي ولدت منه [28] بنتاً زوجتها لاحد حفدة المنظري الذي كان والده قائداً في تطوان والذي عرفت كيف تنحيه لتجعل صهرها الشاب في منصبه وتستبد هي نفسها بالقيادة المطلقة في تطوان وبالجهاد ضد المسيحيين ، وكان لها بواخر تقرصن في الشواطي الاسبانية كما كانت لها علائق طيبة مع الاتراك وسلطان فاس ، وفي عام ١٥٤١ تزوجت السيدة الحرة مولاي أحمد الوطاسي الذي تركها في تطوان وكلفها بالاتصال بالبرتغاليين ، وكان لها تشاحن مع والي سبتة التي كانت تطمح هي الى احتلالها بينما كان الوالي البرتغالي يطمع في تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب .

أما تمدين السعديين فقد تم على يد العريفة بنت بنجو التي لقنتهم مظاهر الحضارة الملوكية لا سيما داخل القصور والبيوتات [29] ، وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي عناية باصلاح السبل وعمارتها وتشييد الخانات بالامكنة الخالية وبناء القناطر (أصلحت جسر وادي أم الربيع عام ١٠٠٠ هـ) وتجهيز اليتامى وتزويج الارامل وهي التي أسست مسجد باب دكالة بمراكش عام ٩٦٥ واوقفت عليه نحو سبعين حانوتاً وغيرها وأقامت بازائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة وذخائر كتب على بعضها بخط يدها ، والاميرة سحابة الرحمانية أم عبد الملك الغازي التي لعبت دوراً كبيراً في حمل الخليفة التركي على اصدار أمره لوالي الجزائر بمساندة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام ٩٨٣ ، وأم كلثوم بنت الشيخ بناصر قرات الوغليسية في الفقه والبردة في السيرة . والنساء الناصريات في درعة متعلمات على وجه العموم ولا نطيل بسرد أسمائهن .

وفي العهد العلوي طار صيت الاميرة خناثة بنت بكار المغافرية زوج المولى اسماعيل ، فقد ذكر صاحب الجيش [30] أنها حصلت العلوم ، وقد كتبت على هامش « الاصابة » لابن حجر ، وكانت تصدر عنها ظهائر ومراسيم في بعض الشؤون القبائلية في عهدي مولاي اسماعيل وولده عبد الله . وكان زوجها يستشيرها في بعض الشؤون ، وقد قال عنها الرحالة الاسحاقي أنها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير .

ومن النساء العالمات عائشة بنت بونافع الفاسية والدة عبد المجيد الزيادي كانت تحضر مجالسه العلمية ، والزهراء بنت محمد الشرقي زوجة اليوسي كانت شيخة فقيهة أخذت عن زوجها بالاجازة جميع مروياته وأخذ عنها ابن أخيها اللغوي محمد بن الطيب الشرقي ، وخديجة بنت عبد الله الحوات كانت تعلم النساء المتعلمات ، وسكينة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين ، والفقيهة فاطمة زويتين ، وأم قاسم الحسناوية ، ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الاديبة الفقيهة العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة وأسرار الحروف والاسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون - كما يقول الكانوني - وكانت في مجالس التفسير تتوخى أسباب النزول وعلوم القرآن وأنساب العرب والتاريخ توفيت أوائل القرن الرابع عشر ، وصفية بنت المختار العالمة في التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهي شنكيطية ، ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمي التي كانت راوية للاشعار ومشاركة في العلوم ، وأختها ربيعة التي كانت لها عارضة في الادب والشعر نقادة للشعراء ، وهند زوجة ماء العينين المشاركة في مختلف الفنون ، وخديجة بنت الامام محمد العتيق وكانت تبذ في العلم عالمات عصرها بل وكثيراً من علمائه ، وقد نبغت في الشعر فتاة من شنكيط اسمها مريم كما في « الوسيط في أدباء شنكيط » [31] .

وفي أوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران

تدرس المنطق في جامع الاندلس من وراء حجاب ، وكان لها ضلع في مختلف الفنون ، وانقصدتنا رواية أحد طلبة القرويين الذين روى عنهم موليبراس حوالي سنة ١٨٩٥م نلاحظ أن غالب نساء فاس كن قارئات لهن المام بالادب خصوصاً قصائد الامام الغرناطي ، وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر ، وقد أورد السخاوي [٣٢] عشرات من النساء الفاسيات .

ولا نكاد نحصي الاستاذات أو النسوة المثقفات اللواتي كن يعشن في حواضر المغرب وبواديه .

الهوامش :

(١) حضارة العرب ؛ ص ٤٨٨
(٢) البلاذري ص ٤٥٨
(٣) الجزء الرابع ؛ ص ٤٢٤ – ٩٨٤
(٤) ميزان الاعتدال : جـ ٢ ص ٣٩٥
(٥) صدر الكتاب محققاً من قبل د . صلاح الدين المنجد – بيروت – دار الكتاب الجديد
(٥) ياقوت ؛ معجم الادباء ؛ ج ٥ ص ١٤٠ والنعيمي ؛ ج ١ ص ١٠١
(٦) الوفيات ؛ ج ٢ ص ٢٥١
(٧) المجلة الاسيوية سنة ١٩٢٠ ص ٥٠
(٨) ياقوت ؛ ج ١ ص ٢٤٧ ، صلة ابن بشكوال ؛ ج ١ ص ١٣٢
(٩) كامل ابن الاثير ؛ ج ١٠ ص٢٦
(١٠) ج ١ ص ٢٠٤
(١١) ج ٦ ص١٧ ، ٢٣
(١٢) ابن الاثير
(١٣) أسد الغابة
(١٤) كامل ابن الاثير ؛ ج ٢ ص ٢٠٧
(١٥) رسالة نقولا الترك ص ١١١
(١٦) ص ٢٧٥
(١٧) ج ٤ ص ٤٦١
(١٨) صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ص ٧١
(١٩) الدرر السنية ص ٨
(٢٠) ص ٤١
(٢١) ابن عبد الملك ؛ التكملة .
(٢٢) الدرالمنثور في طبقات ربات الخدور ص ١٦٥
(٢٣) ابن الخطيب ؛ الاحاطة
(٢٤) ابن عبد الملك ؛ التكملة
(٢٥) ص ٥
(٢٦) أزهار الرياض
(٢٧) الذخيرة السنية ص ١٤٦
(٢٨) وهم كاتب المقال فاعتقد ان الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو خلاف ما يفهم من ابن عسكر في « دوحة الناشر » (الطبعة الحجرية ص ١٩ وقد نبه على هذا الغلط صديقنا الاستاذ محمد داود في « مختصر تاريخ تطوان » ص ٣١)
(٢٩) تاريخ الدولة السعدية ص ٢٥
(٣٠) ص ٢٠٥
(٣١) ص ٣٢٧
(٣٢) الضوء اللامع ؛ ج ١٢

*

ملف المرأة

الاسهامات الجهادية للمرأة العربية في ملاحم الاسلام التاريخية

العميد : عبد الجبار محمود السامرائي

عضو اتحاد المؤرخين العرب

قبل ظهور الاسلام كان الخطر والتحدي يحيطان بالعرب من كل الجهات ويتقدمان شيئاً فشيئاً ليهددا وجودهم بالزوال . ففي الشرق ، كانت الامبراطورية الفارسية الساسانية تسيطر على عرب العراق والخليج ، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها الى اليمن في الجنوب ، وفي الغرب والشمال ، كان الروم (البيزنطيون) يفرضون سيطرتهم على عرب الشام ، وفي الجنوب ، احتلت الحبشة ، لفترات طويلة ، جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) ، ولم يبق حراً ومستقلاً في بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة ، الذي يتصف بالوعورة والتصحر والفقر المدقع ، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب ، عاشقة للحرية ، رافضة لاية قيود تفرضها أية حكومة من الحكومات ، وخاصة إذا كانت هذه الحكومة غير عربية .

لكن هذا الخطر ، وذلك التحدي ، قد بَثّا في الامة العربية ، عوامل اليقظة وروح المقاومة ، رجالاً ونساءً ، وبثّا بين أبنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد ، والتلاحم الكفاحي .

وفي واقعة ذي قار التي جرت أحداثها على أرض العراق ، ذاق العرب حلاوة النصر ، ويومها استبشر الرسول محمد (ﷺ) خيراً ، وتنبأ بان هذا النصر سيكون له ما بعده ، سيكون فاتحة انتصارات أكبر ، تحرر العرب من الفرس ، وتنتقل لتاريخ طويل ، سيطر فيه الفُرس على عرب الشرق والجنوب .

وبعد الهجرة النبوية الشريفة ، كانت الدولة العربية الاسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة ، هي سلاح العرب الاول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي ، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر ، وذلك التحدي ، حتى اذا استتب الامر للمسلمين بعد إيقاع الهزائم تلو الهزائم بالمشركين والمرتدين ، انفتحت صفحة جديدة في تاريخ الشرق ، أصبحت القيادة فيها للعرب ، وكان أمر منازلة العرب للفرس والروم حتمياً ، لتحرير الارض العربية الواقعة تحت سيطرتهم منذ قرون ، وهي: أرض العراق والشام .

لقد نهضت الدولة العربية الاسلامية بهذه المهمة التحريرية على عهد الخليفتين الراشدين ، أبي بكر الصديق (رض) وعمر بن الخطاب (رض) ، وحققت الانتصارات الحاسمة ، وجددت شباب المنطقة ، سياسياً وحضارياً ، بفكر الاسلام .

وإزاء هذه الاحداث وهذه التحديات ، تعاملت المرأة العربية ، بوعي كامل ، وتصرفت بمسؤولية كاملة ، وكان لها إسهامات مباشرة وواضحة ، سواء في حمل السلاح أو شحذ همم المقاتلين ، أو القيام بمعالجة الجرحى والمرضى في الميدان ، وبذلك حفظت الماجدة العربية اسمها في ثنايا تاريخ امتنا الجهادي ، كمقاتلة عنيدة ، جالدت الرجال بالسيوف ، وطعنتهم بالرماح ، وبقرت بطونهم بالخناجر ، وقاتلتهم

بالحجارة والفهد والاوتاد والهراوي ، وكانت من بين الماجدات العربيات من هي مشاة ، ومن هي فارسة تمتطي صهوة الجواد لتقاتل الاعداء .

لقد نشات المرأة العربية ، في قوم غلب عليهم دقة الحسّ ، وجدّة النفس ، وخوض أنهار الدم ، خوف انثلام الشرف ، واستباحة الحيّ ، فكانت هي أدق أوتار الحس في قلوب الرجال ، وأوضح مواطن الشرف في نفوسهم ، وحينما كانت تهتف بالرجل تحت ظلال السيوف ، وقد ملك الروع القلوب ، كان يستمد منها عزماً قد نبا ، ويسترد قوة قد عزبت ، لانها كانت مثار عاطفة الرجل ، ومدار وجدانه ، ورمز حياته وموته . لذا ، تنوعت سبل المرأة العربية في إثارة حمية الرجال واستنهاضهم للقتال أو دفعهم لمواصلة الجهاد باتجاه تحقيق النصر الناجز ، وربما شملت تلك السبل .. الكلمة الرنّانة ، والصرخة المدوية ، والقصيدة الحماسية ، أو ما تطلقُ من أهازيج وزغاريد ، وأناشيد ومعازف ، وقرع على الطبول في حومة الوغى . وقد كانت المرأة العربية تلجا في بعض الاحيان الى تقريع المتقاعسين والمتخاذلين وتوبيخهم ، كما سنرى في تضاعيف هذه الدراسة ، المعززة بالشواهد المستقاة من الوقائع الحربية الخالدة .

ومثلما كانت الماجدة العربية في صدر الاسلام ، قدوة في البذل والعطاء ، أصبحت الماجدة العراقية في عصرنا الراهن ، عصر التحدي والاستجابة ، مثلاً حياً للفداء والتضحية . ومثلما كان الكثير من عظماء العرب وأبطالهم منذ فجر الرسالة السمحاء ، ينتخون بالام أو الاخت أو العقيلة[١] ويقسم بهن على انجاز وعده وادراك بغيته أو الموت دون ذلك ، متخذاً من ذكره لاسمائهن وشاح فروسية يلبسه ويتدرع به ، فإن أبطال عراق اليوم ينتخون بالماجدات ، ويهبّون لمقارعة الاعداء ولسان حالهم يقول :

ولقــد ذكـرتـكِ ، والـرمـاحُ نـواهـلٌ
منيّ ، وبيض الهنــد تقطــز من دمي

فــوددت تقبيــل السيـوف لانهــا
لمعت ، كبــارقِ ثغــركِ المتبسّمِ

وتجدر الاشارة هنا إلى أن الباحث قد استفاد الى حدٍّ ما من بحث الاستاذ الدكتور محمد سعيد رضا الموسوم (الاسهامات الحربية للمرأة العربية في الخليج العربي والجزيرة العربية في صدر الاسلام) المنشور في كتاب (دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية) ، الذي نشره مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة عام ١٩٨٥ الصفحات من ٦٩ـ ١٠٠

وتبقى الحاجة ماسة الى دراسة الاسهامات الجهادية للمرأة العربية في نطاق أوسع ، وما دراستنا المتواضعة هذه إلا مجرد خطوة على الطريق ، ولله العصمة من الزلل .

واقعة ذي قار

في معركة ذي قار التي دارت رحاها بين العرب والفرس على أرض العراق سنة ٦٢٣م[٢] على الارجح ، كان للمرأة العربية دورها المتميز في إحراز النصر على الغزاة الفرس . ففي اليوم الثاني من المعركة ، جزعت جيوش الفرس من العطش ، فتراجعت الى (الجبابات) فتبعتهم بكر وعجل ، وأبلت عجل يومئذ بلاءً حسناً ، وتدافعت عليهم حشود الفرس ، وتكاثرت حتى أيقن القوم هلاكهم ، ثم حملت بكر لمؤازرة عجل ، فرأوا بني عجل يقاتلون في استبسال ، مما حدا بإحدى نسائهم إلى أن تقول :

إنْ يظفــروا ، يحـرزوا فينـا الغـرل[٣]
إيهـــا ! فــداء لكم بني عجــل

وفي اليوم الثالث من المعركة ، أولت (بكر) قيادتها إلى حنظلة العجلي بدلاً من هانيء بن قبيصة ، فبادر الى هودج (مارية) إبنته ، فقطع وضنيه فدفعت على الارض ، ولخذ يقطع وضن[٤] النساء ، فصرخت ابنة القرين الشيبانية تحثّ رجال قومها على الاستبسال :

ويهــا بني شيبــان صفــاً بعـد صف
إن تُهــزمــوا ، يصبغـوا فينـا القلف[٥]

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم حتى يسهل عليهم الطعن والضرب ، وتخفّ أيديهم بضرب السيوف .

وكانت صفية بنت ثعلبة الشيبانية تدور على القبائل تحرضهم قبيلة قبيلة ، حتى إذا رأت الدائرة ستدور على العرب ، قطّعت الحبال ، فسقطت النساء على الجمال ، ورأى الرجال نساءهم على هذه الحال فاستبسلوا ، وصاحت صفية :

يــاعمــرو ! يــاعمــرو الفتى بن ثعلبـة
حــامِ على جــارتــك المستقــربــة

كما أسفرت هند بنت النعمان عن وجهها وقالت لعمرو بن ثعلبة الشيباني أخي صفية :

حــافظ على الحسب النفيس الارفــع
بمــدججين ، صــمِّ الـرمــاح الشــرّع
ياعمرو ، ياعمرو الكفــاح لدى الـوغى
يــاليت غــاب في اجتمــاعِ المجْمَـعِ
إظهــر وفــاءً يــافتىً وعــزيمــة
أتضيــعُ مجــداً كــان غيــر مُضَيَّــعِ ؟

ولما كانت الحرب بين قبيلة أياد وكسرى أنوشروان في ذي قار ، حمّست (هند بنت طارق بن بياضة) قومها بالإنشاد :

نحنُ بنات طارق
نمشي على النمارق[1]
والمسك في المفارق[2]
مشي القطا النواتق[3]
إنْ تقبلوا ، نُعانق
ونفرش النمارق
أو تُدبروا ، نُفارق
فراقُ غير وامق[4]

ويبدو أن هذا المسار الشعريِ ، قد وقع على كاهل النساء الشواعر ، لما تحمله المرأة من معاني العفة عند الرجل ، وما يمكن أن تحويه من جوانب الضعف عند القبيلة ، لذلك نجد أنّ بعض الشواعر ، كانت تُقبل على كل قبيلة صارخة منادية ، من ذلك ما فعلته (صفية) حيث قالت لبني حنيفة :

إيهاً ! أجيدوا الضرب ياحنيفة
فأنتمْ الجمجمة الشريفة
أهل اللقا ، والعمدة المعروفة
والعدة المنسوجة الموصوفة
إنْ الجيوش حولكم كثيفة

ثم التفتت (صفية) صوب بني لجيم وقالت :

لجيمُ قومي ، وبني أبينا
ليسوا لدى الهيجا مغلَبينا
بل ظافرون ، وحماة فينا
العزُ فيهم ، حين يلجمونا
ويسرحون ثمّ يحملونا
إيهاً بني الاعمامِ فانصرونا

وخاطبت بني عجل ، وفيهم أبوها وأخوها :

الفخرُ فخري ، بسراة عجلِ
هم معشري ، في نجدهمْ والسهلِ
همْ السراةُ ، وحماة الاهلِ
والفائقون بشريف الفعلِ

إيهاً !! أبيدوا جمعهمْ بالقتلِ
ولا تكونوا غرضاً للنبلِ
واختلطوا فسبهم بغير مهلِ

ومن ثم نُظرت (صفية) الى بني ذهل منادية :
اليوم يومُ العزِّ ، لا يومُ الندمْ
يومُ رماحٍ وجيادٍ وخدمْ
يومٌ به الارواحِ جهراً تُصطلمْ
سوف تُرى البيضُ غداة المبتسمْ
للوائليات التي تحمي البُهَمْ
يا آل بكرٍ ، لا تهلكمُ العجمْ
إنْ صبرت ذهلُ فعزّي اليومَ تمْ

ثم اتجهت بعدها (صفية) صوب بني شيبان ، وهم خلفها وقالت مرتجزة :

إيهاً بني شيبانْ ، صفاً بعد صَفْ
من يُردِ العلياء لم يخش التلَفْ
منْ حاذرَ الموتَ تنحى ووقَفْ
إنَّ الشجاعَ باسلٌ فيه الصلَفْ
إن تُقبلوا ، نَظفر ، ونحذر ، ونجفْ
وفي الفرارِ ، يولجوا فينا القُلَفْ
اليوم يومُ العزِّ موصوفُ الشرفْ
إنْ حافظت قومي ، فما بي من أسَفْ
أنا ابنةُ العزِّ ، وعرضيَ اليومَ غفْ
بكلِ نصلٍ كالشهاب المختطفْ
نخطفُ قوماً ، قد عفونا بِشرَفْ

والذي يتفحص المعاني التي أشارت اليها الشاعرة (صفية) ، يدرك لاول وهلة ، وبوضوح ، المغزى الذي دفع العرب الى الثورة على الفُرس ، فكان موقفهم بـ « ذي قار » أشبه بانفجارٍ هائل ، كانوا ينتظرون حدوثه حتى تلتهب المشاعر ، وتثار الحمية دفاعاً عن الشرف والعرض والكرامة . وكان للمرأة العربية الشاعرة دورها في هذا الانفجار الذي أدى الى طرد الفرس من أرض العرب ، وحطم غرورهم وغطرستهم وعنجهيتهم المعروفة .

وفي وسْط ساحة المعركة في (ذي قار) ضرب (حنظلة بن ثعلبة) قبةً ، وجمع حولها النساء ، فاشتد قتال العرب ضد الفرس ، وقد وقفن أمام الجيش الفارسي حاسرات عن رؤوسهن الحجب ، صارخات بالفرسان ، باذلات لجمالهن الناعم الرخص ، فقد ألهاهن الرعب والذعر عن الخجل والتستر ، وقد

وصفهن الاعشى وهن في أول هذه المعركة بقوله :

لما أتونا ، كأنَّ الليل يقدمهم
مطبق الارض ، يغشاها بهم سدف
وظعننا خلفنا كحلاً مدامعها
أكبادها ، وجفٌ لنا ماترى تجف
حواسر عن خدود عايشت عبراً
ولاحها ، وعلاها ، عبرة كسف
من كل مرجانة في البحر أخرجها
غواصها ووقاها طينها الصدف

وكانت هذه الواقعة فاتحة خير لعمليات التحرير العربية الاسلامية ، ولذلك قال النبي محمد (ﷺ) مبتهجاً بهذا النصر الجليل : (هذا أول يوم فضَّ الله فيه جنود الفرس بفوارس من ذهل وشيبان ، وبي نُصروا)[10]

وخاطبت (حرقة) أبنة النعمان ، محرضة بني شيبان على مقاتلة العجم ، تقول لعمرو بن ثعلبة :

حافظ على الحسب[11] الشريف الارفع
بمدججين مع الرماح الشُرَّعِ
وصوارمٍ هندية مصقولة
بسواعدٍ مفتولة لم تُمنَعِ

وقالت تنذر بكر بن وائل في وقعة ذي قار :

الا ابلغ بني بكرٍ رسولاً
فقد جدَّ النفير بعنقفيرِ
فليت الجيش كلهم فداكم
ونفسي والسرير ، وذا السرير
كأني حين جدَّ بهم إليكم
معلقة الذوائب بالعبورِ
فلو أني أطقت لذاك دفعاً
إذاً لدفعته بدمي وزيري

ويبدو أن (الحرقة) بعد أن قتل كسرى أباها ، طلبها (كسرى) وألح في طلبها ، فابت الاقتران به ، واستجارت بحيي بكر وتغلب ، فاجتمعت القبائل ، وجرت وقائع ، وقالت لما استجارت ببني شيبان :
شيبانُ قومي ، هل قبيلٌ مثلهم
عند الكفاح وكرة الفرسان ؟[12]

هجرة الرسول الى يثرب
١٢ ربيع الاول | سنة ٦٢٢م

كان بيت ابي بكر الصديق ، يشهد طلعة الرسول (ﷺ) حين قام قائم الظهيرة ، وكان لا يخطئه يومٌ إلّا ياتي هذا البيت أول النهار وآخره ، وهو يدخل البيت ، وقد علت وجهه الكريم مسحة نور إلهي ، وارتسمت علامات رضىً هادىء ، فانفجرت إساريره عن طلعة بهية ، توحي بكل ما يحمله القلب الكبير من إيمان ، وتدل عليه العزيمة الصادقة التي ملأت كل جارحة من جوارحه .

كان وهج الشمس يتوزع على بيوت مكة ، وقد امتدَّ إلى طرقاتها سكون الظهيرة ، واستقرّ الناس في بيوتهم يتابعون أحداث (دار الندوة) ، وقد اجتمع فيها شيوخ قريش ليبيتوا أمراً ويدبروا مكيدة بليل ، وينهوا فكرة أقضت مضاجعهم ، وأقلقتهم وتركت قلوبهم نهباً لما بدأ يساورهم من شكوك فيما يذهبون إليه من معتقد .

ولم تكد خطوات الرسول (ﷺ) تقترب من البيت في هذا الوقت القائض ، حتى كانت خطوات أبي بكر(رضي الله عنه) تسرع الى الباب ، وقد عقدت الدهشة لسانه ، وعلت وجهه حيرة غريبة ، وهو يرى الرسول الكريم (ص) قد دخل عليه ظهراً .

وبصوت أقرب الى المناجاة ، وبحديث أدنى إلى الضراعة ، قال أبو بكر (رضي الله عنه) :
ـ ما جاء بك يانبي الله في هذا الوقت ؟ ألا لامرٍ حدث ؟!

وانقطعت أصوات الكلمات ، ووقفت دائرة الزمن ، ولم تتحدث في هذا الموقف إلا لغة العيون التي أمنت بكل توجيه ينطق به ، وأيقنت بكل عمل يقدم عليه . وبصوت هادىء ، قال الرسول الكريم (ﷺ) لابي بكر (رضي الله عنه) : (أخرج من عندك) ! ويسكت الصِّدّيق ، وتتحول نظرته الى جوانب البيت وبثقة كبيرة يقول :
ـ ليس علينا عين .. إنّما هما ابنتايَ ، عائشة وأسماء .. انهما تعرفان أسرار الرسالة ، وتعلمان التوجهات التي يتحرك بموجبها الرسول (ﷺ) وتشاركان في كل ما يدعو الى الحفاظ على أصحابها .

إذن ، هناك رحلة سيقوم بها الرسول (ﷺ) ، ولكن ، إلى اين ؟!

لم يعلم برحلة الرسول (ﷺ) الا علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) وأبو بكر الصديق وعائشة (رضي الله عنها) وأسماء بنت أبي بكر . وهو موقف يتجلّى فيه الإيمانُ ، وتتشتد في رحابه أهمية المرأة في أول مراحل الدعوة ، وكانت السيدة خديجة (رض) قدّمت النموذج الفريد ، فقد امتلكت وعاصرت وعرفت وقت الهجرة ، وحفظت السرّ الذي حدد موعدها وحركتها والخطة التي رُسمت لرحلة العقيدة .

وبعد أن توحدت جهود المشركين للإجهاز على الرسول (ﷺ) ، وانتهت الاراء الى ان دمه سيتوزع على كل المسهمين في القتل ، أدركت أسماء بنت أبي بكر بان الخطر يحدق بالرسول الكريم .

إنها لحظات المواجهة التي يمتحن فيها الانسان ، ولحظات المجابهة التي لم تترك له خياراً .

وتبدأ رحلة العقيدة من زاوية لابي بكر الصديق في ظهر بيته ، ثم الاتجاه الى غار بجبل ثور باسفل مكة ، وكانت مسالك الطريق وعرة ، وشعاب الجبل مؤلمة . وقد انقطع زمام نعل رسول الله (ﷺ) ، ففلق إبهامهُ حجر ، فكثر دمها ، وظلت تستنّ دماً حتى انتهى الى الغار مع الصبح .

قريش .. فوجئت برحلة الرسول الكريم (ﷺ) وصاحبه الصديق ، فانطلقت وهي تبث عيونها في كل صوب ، تترصد خطواته وصاحبه ، وتقتفي أثرهما ، بغية الوصول إليهما ، حتى جعلت قريش حين فقدته ، مائة ناقة لمن يردّه عليها .

هنا كانت أسماء بنت أبي بكر تاتيهما من الطعام إذا امست ، بما يصلحهما ، وهي تقطع الطريق المقفر ، وتتجاوز العيون التي توزعت في كل مكان ، وتعلم النتائج المترتبة على عملها هذا . ولكن إيمان (أسماء) بسلامة ما تعتقد ، كان أكبر من أسباب الخوف ، وأعظم من عيون الرصد الطائشة .

هنا كانت أسماء تشارك بكل ما منحها الله تعالى من أسباب المنعة والقوة والاقتدار ، للحفاظ على سرّ الدعوة ، وكتمان أمرها وأساليب تنظيمها ، وما كان يحيط بها من مخاطر ، ويعدّ لها من خطط لاغتيال اصحابها وإيقاف انتشارها .

كانت اسماء تعلم بهذا التخطيط ، وتعرف الوقت المحدد ، وتعلم المكان الذي اختبا به الرسول الكريم ورفيقه أبو بكر الصديق .

وكانت أسماء المرأة الثانية بعد خديجة التي تحفظ سر الهجرة ، وقد قطعت الرسالة مرحلة أولى ، فكتب عليها أن تحظى بشرف الدفاع عن الرسول الكريم ، وهو مُعرض لاخطر مؤامرة ، وتصاحبه في أصعب اللحظات ، وترعاه في أشد المواقف حراجة .

إنها المشاركة الاساسية في بناء الانسان المؤمن ، والاحساس بالمسؤولية في الانتقال من مرحلة الشرك الى مرحلة الايمان ، وامتلاك القدرة على التواصل والسير وفق الخط المحدد الذي أوصى به الله تعالى ، واهتدى به الرسول الكريم والتزم به الصحابة الكرام .

كانت أسماء تاتيهما بسفرتهما ، وفي إحدى المرات ، نسيت أن تجعل لها عصاماً (ما تعلّق به السفرة) ، فلما ارتحلا ، ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس فيها عصام ، فحلّت نطاقها ، فجعلته لها عصاماً ، ثم علقتها به ، وكان يقال لها (ذات النطاقين) ، وقيل انها لما أرادت أن تعلّق السفرة ، شقّت نطاقها ، اثنين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت الاخر ، فسماها رسول الله (ﷺ) ذات النطاقين . وقيل ان الرسول (ﷺ) قال لها : (أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة) .

وبعد أن جلست أسماء مع الابوين الكريمين وهما يطعمان ، وهي تبتسم للبشرى السعيدة حملت الاواني وعادت أدراجها ، وما إنْ ابتعدت عن الغار حتى اعترضها نفر من فرسان المشركين .

وعبثاً حاولوا استجواب أسماء واستجلاء ما وراءها ، ولم تفدهم المراوغة ، ولم يجدهم اللين ، ولا العنف ، حيث لطمها أحدهم على وجهها حتى أدماه ، فسقطت على الارض وتناثر قرطها من أذنها ، ومع ذلك ، لم تبح بشيء .

إنها اسماء بنت أبي بكر ، راضعة لبان الوفاء والصدق منذ الصغر ، وانها البطلة الشجاعة والمجاهدة الباسلة في سبيل العقيدة المحمدية . وعلى ذلك نشات ، تتابع الكفاح البطولي الذي يخوضه المسلمون دفاعاً عن الحق . وجاء وقت الهجرة ، فسلكت إسماء طريقها لاحقة بابيها الصديق ، مهاجرة بدينها ، كما أمر الله ، وكانت بعدُ صبية يافعة ترمقها العيون ، بكل احترام ، ويتمنى أن ينال يدها شبان الأوس والخزرج ، والمهاجرون ، الشبان ، بدينهم الى يثرب[١٢] .

معركة بدر الكبرى
الجمعة ١٧ رمضان ٢ هـ / ١٥ كانون الثاني ٦٢٤م

في معركة بـــدر الكبرى ، كانت نسيبة بنت كعب الانصارية .. أو المازنية ، التي تعرف بـ (أم عمارة) ، تحمل جرّة الماء لتسقي العطاشى من المحاربين ، ولم يكن مكانها في المعركة الا في المؤخرة مع النساء . وقد شهدت الانتصار العظيم لرسول الله وصحبه الميامين ، بعد أن تحدى كُفّار قريش رسول الله (ﷺ) وخرجوا الى ماء « بدر » بخيلهم وخيلائهم ليرهبوا المسلمين كما تصوروا .

لقد كانت نسيبة ترافق القلّة المؤمنة من فرسان الله الى الجهاد في سبيل الدين الحنيف ، ودارت رحى القتال عند ماء « بدر » ، وقد زلزل الله يقين قريش الباغية ، وحطم أحلامها وأذل كبرياء سفهائها وطواغيتها ، ومكّن المسلمين من رقابهم . وشهدت نسيبة آية النصر الكبرى ، النصر الذي أيّد به الله عباده الصابرين المؤمنين وخذل الكفار المتغطرسين .

أما (كعيبة الاسلمية) ، فقد عادت هي الاخرى مع المنتصرين ، وكان دورها اسعاف الجرحى ، لانها كانت تتقن مهنة التطبيب ورأت كعيبة ألا تقصر نشاطها على اسعاف الجرحى في ميدان القتال ، وآثرت أن يكون نشاطها في كل مجال ومقام ، وأن يكون عملها الانساني الرحيم على نطاق واسع ، وأن يستمر في وقت السلم ، وبنفس الهمة والاخلاص اللذين عرفا عنها في زمن القتال .

ومن أجل هذا ، أنشأت كُميبة أول (عيادة) للتطبيب ، جعلت مقرّها مسجد سيدنا الرسول الكريم (ﷺ) ، فاقامت فيه خيمة كان يتردد عليها المرضى في أي وقت يشاؤون ، وفيها كانت كميبة تمارس عملها في علاجهم .

وهكذا ، كانت كميبة ، أول ملاك رحيم يحوم بالحنان والحدب في سماء (يثرب) وبين نساء العرب جميعاً . فذاع صيتها بين الناس ، واستطاعت بذكائها وخبرتها وإخلاصها أن تحرز نجاحاً باهراً جعلها موضع الثقة والاعتزاز(١٤) .

أُحُد ـ السبت ١٥ شوال ٣ هـ
١ شباط ٦٢٥م

ما إن وصلت فلول قريش من معركة بدر الكبرى الى مكة ، حتى فكر من بقي من زعمائها على قيد الحياة ، بوجوب إعداد أكبر حملة عسكرية يستطيعون إخراجها لغزو محمد (ﷺ) في عقر داره ، والقضاء عليه ، قبل أن يستفحل أمره .

وبعد سنة من معركة بدر ، جهزت مكة ثلاثة آلاف مقاتل ، منهم سبعمائة راكب دارع ، وبينهم مائة رجل من ثقيف ، وساهم من مكة ساداتها ومواليها وأحابيشها ، وجهزوا لهذه الحملة ذخائر حربية كثيرة ، منها مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير . وقد سارت مع الجيش خمس عشرة إمرأة قرشية في هوادج ، وكانت مهمتهن : تذكير القرشيين بأبنائهم الذين قتلوا في غزوة بدر وتقوية معنوياتهم . وكانت (هند بنت عُتبة) زوج أبي سفيان قائدة النساء ، كما كانت بينهن زوج عكرمة ، وزوج عمرو بن العاص ، وشقيقة خالد بن الوليد ، وغمرة بنت الكمة ، إضافة الى عدد من النساء الناشدات اللواتي يحملن الزق والطبول .

لقد أصرت نساء قريش على الخروج مع الحملة ليوغرن الصدور ، ولكي يحول وجودهن دون فرار المقاتلين . وقد ردّت (هند) من يعترض على خروجهن بقولها :

(إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت الى نسائك ، نعم ، نخرج فنشهد القتال ، ولا يردنا أحد كما رُدّت الفتيات في سفرهم الى بدر ... فقتلت الاحبة يومئذ)(١٥) .

ووقفت نسوة المشركين مباشرة خلف القوة الرئيسة لقريش ، وقبل أن تبدأ المعركة ، انطلقت بإمرة (هند) بين رجال قريش تذكّرهم بمن قتلوا في وقعة بدر ، وقبل أن تعود النساء الى مواقعهن في مؤخرة الجيش ، ارتفع صوت هند عالياً قوياً .

ويهاً بني عبد الدار
ويهاً حماة الادبار
ضرباً بكل بتّار(١٦) .

وبعد استشهاد (حمزة بن عبد المطلب) ، بدأ جيش قريش يتقهقر تحت ضغط هجوم المسلمين . وبينما كان العديد من حاملي راية قريش يلاقون حتفهم أو يصابون بجراح ، حُملت رايتهم من قبل عبد استمر في القتال حتى قتل ، وسقطت الراية ، مرة أخرى ، وهُزِمَ القرشيون وفرّوا بدون نظام ، وأخذت نساء المشركين بالعويل عندما شاهدن ما حلّ برجالهن ، وأسرعن بالفرار باستثناء (غمرة بنت علقمة الحارثية) التي بقيت حيث هي ، واقفة خلف خط المعركة الرئيس للمشركين .

وحينما بدأ المسلمون بمنازلة فرسان المشركين ، اندفعت (عمرة) والتقطت راية قريش من الارض ، وأخذت تلوّح بها من فوق رأسها لكي تراها القوة الرئيسة لقريش . والى ذلك قال حسان بن ثابت الذي وجد اللواء صريعاً قبل أن تنهضه عمرة :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا
يباعون في الاسواق بيع الجلائب(١٧) .

أما في جبهة المسلمين ، فقد وقفت أربع عشرة إمرأة وراء المجاهدين ، بمهمة تقديم الماء للمطشى ، وحمل الجرحى خارج ميدان المعركة وتضميد جراحهم . وكانت في مقدمة أولئك النساء الماجدات (فاطمة بنت محمد) رسول الله (ﷺ) ، زوج علي بن أبي طالب (رض) ، وعائشة بنت أبي بكر الصديق (رض) زوج رسول الله (ﷺ) ، وأم سلمة وأم سليم سهلة بنت ملحان وأم عمارة نُسيبة بنت كعب المازنية ، وحمنة بنت جحش وأم أيمن ، وأم سليط(١٨) التي قدمها الفاروق عمر بن الخطاب (رض) على زوجه أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب (رض) ، حينما أشار عليه بعض الصحابة بمنحها قرطاً جيداً ، فقال : (أم سليط .. أحقّ به منها ، فإنها كانت تزفر لنا القِرَب يوم أحد)(١٩) ، كما روى البخاري في صحيحه .

وعن أنس بن مالك (رض) انه سمع أبا طلحة يقول : (لقد رأيتُ عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وانهما لمشمّرتان ، أرى خدم سوقهما تنقلان القِرَب على متونهما ، تُفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواههم(٢٠)

وهذه نُسيبة بنت كعب المازنية (أم عمارة) قاتلت في أحد قتال الابطال ، وهي تذب عن رسول الله (ﷺ) بسيفها رغم الجراح التي أثخنتها ، وقد بلغت اثنى عشر(٢١)

وقد عرف عنه (ﷺ) انه كان يقول دوماً لاصحابه : (ما التفتُ يميناً أو شمالاً الا ورأيتها تقاتل دوني)(٢٢) . وعندما التقى الجمعان عند أحد ، وكانت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب ، خرجت (أم عمارة) لتقوم بدورها في الجهاد ، وحملت سقاءها ، وسارت في مؤخرة الجيش الذي حقق نصراً على المشركين في بداية اليوم ، وضربهم ضربة مذهلة ، جعلتهم يفرون تاركين أمتعتهم ، وما كانوا يحملون من عروض ومتاع ، أغرت كثرتها رماة المسلمين على ترك مواقعهم التي أمرهم الرسول (ﷺ) بالثبات فيها مهما كانت الظروف ، ففتحوا بذلك

ثغرة خطيرة لفرسان قريش الذي كان في مقدمتهم خالد بن الوليد ـ قبل اسلامه ـ وكانت لهم فرصة ، فهجموا جميعاً هجمة أشاعت الفوضى بين صفوف المسلمين ، وغيرت مجرى الحرب ، وجعلت ريح النصر يميل في صف المشركين .

وعادت قريش الهاربة ، لتعزز هجوم فرسانها ، وتجمع فلولها ، لتلتقي مع فلول المسلمين الذين تفككت وحدة صفوفهم ، وشاعت الفوضى فيهم ، وتبلبلت خواطرهم ، وجعلتهم يفرون طلباً للنجدة ، وحتى صناديد الرجال فزوا ، فمن في هذا الموقف الرهيب ، وهذه المحنة ثبت ليدافع عن الدعوة وصاحبها ؟

لم يذكر لنا التاريخ الا نحو عشرة ، هم الذين ثبتوا حول رسول الله (ﷺ) ، كان في مقدمتهم البطل الفدائي (أبو دُجانة) الذي كان يتترس بجسده عن رسول الله (ﷺ) ووقف دون سهام قريش حتى لا تصيب جسد الرسول (ﷺ) . وكذلك وقفت الماجدة العربية الشجاعة (أم عمارة) التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ، فلقد وقفت الموقف نفسه (موقف أبي دجانة) ، حيث أخذت تترس عن رسول الله (ﷺ) بكل ما تستطيع ، فراحت تدافع عنه بحدّ السيف[20] .

ولما أشاع الكفار وقتها أنّ محمداً (ﷺ) قد قُتِل ، وزاغت الابصار ، وهانت الحياة في عيون القلّة التي ثبتت حول رسول الله (ﷺ) ، صاحت (أم عمارة) : (ما طعم الحياة بعد رسول الله ؟ ! وما قيمة الحرص عليها ؟!) . ووقفت وزوجها وولداها بين يديه (ﷺ) يذودون عنه ، والناس يمرون منهزمين . لكن (نُسيبة) أم عمارة ، بايعت الرسول (ﷺ) على السمع والطاعة والوفاء بالعهد ، وقد تصدت للدفاع عنه في حين فرّ الرجال ! وقد سجل التاريخ لها موقفاً مشرفاً ، حين ثبتت في معركة كان الثبات فيها صعب المنال .

لقد رأى الرسول (ﷺ) أم عمارة تترس عنه ، ولا تُرْس معها يحميها من وقوع السيوف وتكاثر النبال . وفي ذات المكان ، رأى (ﷺ) رجلاً مولياً ، وفي يده تُرسُ فناداه : أنْ ألقِ ترسك لمن يقاتل ؟

فرمى الرجل المتخاذل ترسه ، فاسرعت إليه (أم عمارة) فالتقطته بسرعة ، وعادت الى موقعها لتدافع وتذود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى آخر النهار حتى هدأ النقع[21] الثائر ، وخيمت الظلمة على الميدان ، وبدأ المسلمون يستردون روعهم ، ويندمون على ما فات من أمر عصيان رماتهم لتوجيهات الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الذي أدى الى هزيمة المسلمين يوم أحد[22]

ويحكي لنا (ابن هشام) عن (نُسيبة) نفسها هذه الحكاية : (أن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، دخلت على أم عمارة فقالت لها : ياخالة ... إخبريني خبرك ؟

فقالت : خرجت أول النهار ، ومعي بسقاءٍ فيه ماء ، فانتهيتُ إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في أصحابه ، والدولة والريحُ لهم . فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكنت أُباشر القتال حتى خلصت الجراح إليّ .

قالت : فرأيت على عاتقها جُرحاً أجوف له غور فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئة أقماه [= أذله] الله ! لما ولىّ الناس عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أقبل يقول : دلّوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، فضربني هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكنّ عدو الله كانت عليه (درعان)[23]

وبعد أُحد ، أوفت نُسيبة بالعهد كاملاً لله ورسوله ، وعادت مع العائدين الى يثرب ، وهي تحمل ثلاثة عشر جرحاً ، ووسام المعركة كان جرحاً على عاتقها ، أجوف له غور ، لكنه لم يعقها عن استئناف الجهاد يوم نادى مناديه ، بل كان حافزاً لها ، ومشجعاً لتثابر في جولة جديدة وجهاد مستمر ، في سبيل اعلاء كلمة الله .

ومما روت (أم عمارة) عن دور المرأة العربية في يوم أحد قولها : (ان النساء كان معهن المراود والمكاحل ، فكلما ولى رجل أو تكعكع[24] ناولته إحداهن مروداً ومكحلة ويقلن له : خذ .. تكحّل ! فانما أنت إمرأة) !

وذكر الواقدي في المغازي : ما فعلته (أم أيمن) واسمها (بركة) مولاة رسول الله (ﷺ) وحاضنته ، حين تصدت مع بعض النساء للناكصين في واقعة أُحد ، فحثت التراب في وجوههم وقالت للبعض منهم : (هناك المغزل ، اغزل به وهات سيفك ...)[25]

غزوة الخندق (الاحزاب)
٨ ذو القعدة ٥ هـ ـ شباط ٦٢٧م

وفي غزوة الخندق ، تبرز (صفية بنت عبد المطلب) عمة النبي (ﷺ) في ميدان المعركة . فقد لاحظت أن جاسوساً يهودياً توغل ليتعرف على قوة المسلمين واستعدادهم ومعنوياتهم ، فلم تمهله ليحصل على مبتغاه ، حيث أمسكت بقائم الخيمة ، وهوت به على رأسه فصرعته فمات في الحال[26]

وتعدّ السيدة رفيدة بنت سعد الاسلمية الطبيبة الاولى في بلاد العرب المسلمين ، ولخبرتها بالتطبيب خصص لها رسول الله (ﷺ) خيمة كبيرة ، تشبه المستشفى الميداني في الجيوش المعاصرة . وكان مع « رفيدة » عدد من نساء الصحابة يساعدنها . وكانت تنصب مستشفاها في خيمة قرب مسجد المدينة يوم الخندق لكي ينقل اليها الجرحى .

وبعد أن رحل الاحزاب مخذولين ، نقل الرسول (ﷺ) الى خيمة رُفيدة بعض الصحابة الجرحى مثل سعد بن معاذ ، حين أصابه سهم في الخندق ، وقال (ﷺ) : (اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب) . وكان (ﷺ) يعوده في كل يوم

ورفيدة موكلة بعنايته ، وقد تورم جرحه وانتفخت يده ونزفتا الدم ، ثم كتب الله له الشهادة بعد شهر[٣٠]

غزوة خيبر
محرم ٧ هـ ـ آب ٦٢٨م

وفي غزوة خيبر ، حين جاءت (أميمة بنت قيس بن أبي الصلت الغفارية) في نسوة من غفار الى رسول الله (ﷺ) وهي تقول : (إنا نريد أن نخرج معك ، فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا) فقال (ﷺ) : (على بركة الله) . وقد أكبر الرسول (ﷺ) حسن برنها في غزوة خيبر فقلدها بعد انتهاء هذه الغزوة قلادة تشبه الاوسمة الحربية في عصرنا الحديث . وظلت هذه القلادة تزين صدرها طول حياتها ، ولما توفيت دفنت معها عملاً بوصيتها[٣١]

أما المجاهدة (أم سنان الاسلمية) فقد جاءت النبي لما أراد الخروج الى خيبر فقالت له : (يارسول الله ، أخرج معك في وجهك هذا ، أخرز السقاء ، وأداوي المرضى والجرحى ، أن كانت جراح ، وإلا تكون وأبصر الرَحْل) فقال رسول الله (ﷺ) : (أخرجي على بركة الله تعالى) ، وخرجت مع أم سلمة زوج رسول الله (ﷺ) وشهدت خيبراً. حيث كان الرسول (ﷺ) يقرع بين نسائه في كل غزوة ويخرج معه في غزوه من خرجت قرعتها[٣٢]

وكانت (أم زياد الاشجعية) غازية ، غزت مع النبي (ﷺ) يوم خيبر ، وهي سادسة ست نسوة ، فقال لهن (ﷺ) : (بإذن من خرجتن) ؟ فقلن له : خرجنا ومعنا دواء نداوي الجرحى ونناول السهام ونسقي السويق[٣٣] ونغزل الشعر ونعين في سبيل الله)[٣٤]

غزوة حنين
١١ شوال ٨ هـ / ١ شباط ٦٣٠م

بعد أن اندلعت الحرب ـ بعد فتح مكة ـ بين المسلمين والمشركين ، تجمعت « هوازن » و « ثقيف » وغيرهم من القبائل الضارية حول مكة لمحاربة النبي (ﷺ) ومن معه من المسلمين ليبدأوه قبل أن يبدأهم ، فخرج اليهم (ﷺ) في اثني عشر ألفاً من المجاهدين ، وخرجت أم سليم سهلة بنت ملحان ـ الصحابية الجليلة ـ الملقبة بـ (الرميصاء) ، خرجت مع زوجها للجهاد ، ولم يمنعها الخذل وألامه عن تادية رسالة المرأة المسلمة .

وفي حنين ، الموضع الذي يقع بين مكة والطائف اشتبكت الرماح ، واشتجرت الاسنّة ، ونطقت السيوف ، واشتد الامر على المسلمين ، وضاقت عليهم انفسهم ، ذلك لانهم قد أعجبتهم كثرتهم ، فلم تُغنِ عنهم من الله شيئاً ، فكادت تفلت منهم فرصة النصر حين ولوا مدبرين ، إذ حمل عليهم الاعداء حملة شديدة ، ثم انزل الله سكينته على رسوله الكريم ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم يروها [= الملائكة] ، وأدركت (الرميصاء] حينذاك أن عليها أن تستعد للمعونة الصادقة ، وأن رسالتها أكثر من تشجيع الجند ، ونقل الجرحى ، وعلاج المرضى ، فحزمت وسطها ببُردٍ لها ، ووضعت في حزامها خنجراً ، واتخذت هيئة المقاتل من الرجال ، استعداداً للقتال . وحينما سألها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عن سبب حملها الخنجر قالت : (يارسول الله ، اتخذه إنْ دنا مني أحد من المشركين ، بقرت بطنه)[٣٥]

وبعد أن أذِنَ الله تبارك وتعالى للمؤمنين بالقتال ، حمل الرسول (ﷺ) والمسلمون على الكافرين حملة شديدة ، فهزموا هزيمة نكراء .

وبعد أن عاد الرسول (ﷺ) الى معسكره ودخل خباءه ، وتقاطر الذين فرّوا من المعركة على الرسول (ﷺ) مستغفرين مما حدث ، قالت الرميصاء للرسول الكريم :

ـ « بأبي أنت وأمي يارسول الله .. اقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك ، فإنهم يستحقون ذلك العقاب » .

واشرأبت الاعناق ليروا وقع هذا الرأي الجريء من نفس الرسول الكريم ، وما كان أسعدهم حينما أجاب الرميصاء بقوله (ﷺ) :

ـ « إنْ قد كفى وأحسن » .

وكَبّرَ الناس ، وعلموا انها المغفرة لذنب لن يعودوا الى مثله بعد ذلك . وانتهت غزوة حنين بنصر المسلمين ، وعادت الرميصاء مع زوجها الى المدينة واستقرت بها الحياة فيها .

عن جابر (رض) : قال رسول الله (ﷺ) : (رأيتني أدخل الجنة ، فإذا أنا بالرميصاء)[٣٦]

غزوة تبوك
١٥ رجب ٩ هـ أيلول ٦٣٠م

تبوك ، مكان يقع في منتصف طريق المدينة الى الشام ، بين وادي القرى والشام . وغزوة تبوك آخر الغزوات التي غزاها الرسول (ﷺ) بنفسه ، وكانت تعرف أيضاً بـ(غزوة العسرة) ، من قوله تعالى (الذين اتبعوه في ساعة العسرةِ) ، وكان الوقت حين خروجه (ﷺ) حرّاً شديداً وقحطاً شديداً .

وفي هذه الغزوة التي كانت قاصدة الروم بذلت الماجدة العربية جهداً كبيراً ، في دعم واسناد المقاتلين ، حيث كانت تقدم الخدمات الجليلة لهم ، وتمدهم بمستلزمات القوة المادية والمعنوية . فكانت تجود بمالها ، كما فعلت خديجة بنت

خويلد ، وأم شريك التي عرفت بنفقاتها العظيمة في سبيل الله .

كما ساهمت النساء في تجهيز جيش تبوك ، بما يمكن من حلي وأموال . وقد روت أم سنان الاسلمية : (لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة (رض) ، فيه مسك ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتم وخذمات ليمنَّ بها المسلمين في جهازهم)[38] للقتال ، بالاضافة الى تجهيزهم بما يحتاجون من البيت قبل المعركة .

معركة اليمامة
١ شوال ١١ هـ / ١٩ كانون الاول ٦٣٢م

بعد انتقال النبي محمد (ﷺ) الى الرفيق الاعلى في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول من السنة الحادية عشرة من الهجرة (٨ حزيران ٦٣٢م) اتخذ بعض القبائل ذريعة للارتداد عن الدين الجديد . ولما اختار المسلمون أبا بكر الصديق (رض) خليفة لهم ، عزم الخليفة المنتخب على استئصال حركة الردة . ومن بين الجيوش التي سيَّرها أبو بكر (رض) جيش خالد بن الوليد الذي أمره بالتوجه الى متنبيء اليمامة - مسيلمة بن ثمامة (الكذاب) - .

وكان من بين الشهداء الذين لقوا مصرعهم على يد مسيلمة الكذاب (حبيب) ، الذي قطعه مسيلمة إرباً إرباً ، ومثَّل به أشنع تمثيل ، فقد كان يقطع عضواً أو قطعة من لحمه كلما شهد بمحمدٍ وصلى عليه وأنكر نبوة مسيلمة . ولم يفتَّ كل هذا في عضد أمه (نُسيبة بنت كعب) ، ولم تهن ، ولم تضعف ، ولم تؤثر فيها الصدمة ، بل زادتها الصدمة تصميماً على القتال ، وجعلتها تعاهد الله أنها لن تترك مسيلمة الكذاب حتى يهلك أو تنال الشهادة .

وفي موقعة اليمامة ، قاتلت « نسيبة » تحت لواء خالد حتى أقرَّ الله عينها بهلاك مسيلمة الكذاب ، وانتصار دعوة الحق ، فقد قاتلت نسيبة في صفوف المقاتلين الى جانب ابنها الثاني (عبد الله) حتى تم النصر وقتل الكذاب . وخرجت نسيبة من المعركة الثانية تحمل وساماً آخر أرفع من وسامها الاول الفائر على عاتقها ، فقد فقدت إحدى ذراعيها ، وكسبت للمسلمين نصراً وللاسلام عزة وكرامة . ولم يكن فقد الذراع هو الوسام الوحيد الذي نالته نسيبة (يوم اليمامة) ، لان جراحها التي أصيبت بها فعلاً في الموقعة ، كانت اثني عشر جرحاً . تقول نسيبة ، في ما ورد في بعض المراجع : (تقطعت يدي يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة ، وما كان لي مقتولاً ، وإذا ابني عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت له : « أقتلته » ؟ قال : (نعم) فسجدت لله شكراً[39]

ولما عادت جيوش المسلمين المظفرة الى ديارها ، عادت نسيبة « أم عمارة » الى بيتها ، وجاءها خالد بن الوليد زائراً ، ورأى جراحها العديدة ، فأمر الرجال بمداواتها بالزيت المغلي ، فكان ذلك أشدّ عليها من البتر[40] !!

موقعة أجنادين
السبت ٢٧ جمادي الاولى ١٣ هـ / ٣٠ تموز ٦٣٤م

بعد أن تحرك الروم الى (أجنادين) ، في فلسطين ، واتخاذها قاعدة عسكرية لهم ، تحرك خالد بن الوليد إليها ، فاستغلت حامية دمشق هذه الفرصة ، فانقضّ (بولص) القائد الرومي ومعه الخيل على الغنائم التي غنمها العرب .

وفي الوقت الذي أحاط بطرس (أخو بولص) بالنساء العربيات ، وأسرهن جميعاً ، انتهى بهن الى مكانٍ أمين ، حيث عُرضت عليه الماسورات ، فلم تعجبه سوى (خولة بنت الأزور) فقال بطرس : هذه لي .. وأنا لها .. لا يعارضني فيها أحد .

وجلس بطرس وصحبه بانتظار عودة أخيه بولص ، دون أن يعلم بان بولص أسر وقتل أفراد حاميته .

وهنا ، وقفت خولة بين جموع الاسيرات ، تحضهنّ على التمرد والقتال :

(يابنات حمير ، أترضين لانفسكن علوج الروم ؟ ! ويكون أولادكن عبيداً . . . . . فأين شجاعتكنّ التي تتحدث بها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر ؟ ولا أراكن الا بمعزل عن ذلك .. وإني أرى عليكن القتل أهون من هذه المصائب ، وما نزل بكن من خدمة الروم اللئام .

وهنا أجابتها عفراء بنت غفار الحميرية : صدقتِ والله يا بنت الأزور ، نحن في الشجاعة كما ذكرتِ .

وهنا ، قالت خولة : يابنات التتابعة والعمالقة ، خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الاطناب ، واحملن بها على هؤلاء اللئام ، فلعلّ الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرَّة العرب .

ثم ، حملت خولة عامود الخيمة ، وتبعتها باقي النسوة ، وأوصتهن خولة في تشكيل حلقة حول بعضهن ، وعدم التفرق وتحطيم رماح القوم ، وكسر سيوفهم . وانطلقت خولة أمامهن ، فجندلت جندياً رومياً ، بضربة من عامودها على رأسه . واستمر العراك حتى قتل ثلاثون فارساً رومياً . وحينما رأى بطرس منها هذا ، وسمع ما سمع قال لها :

ياعربية .. اقصري عن فعالك ، فإني مكرمك . أما ترضين أن تكوني سيدةَ دمشقَ ؟ ! فلا تقتلي نفسك !!

فاجابته خولة : والله لئن ظفرت بك لاقطعن رأسك .. والله ما أرضى بك أن ترعى لي الإبل . فكيف أرضاك أن تكون لي كفؤاً ؟![41] فاستشاط بطرس غيظاً ، وحرَّض جنوده على القتال ، وصبرت النساء للروم صبر الكرام . وكانت قد وصفت

نجدة خالد يتقدمها ضرار بن الأزور ورافع ومسروق . فلما رأت خولة ضراراً قالت :

إلى أين يا ابن أمي ؟

فصاح بها بطرس : انطلقي إلى أخيك ، فقد وهبتكِ له ، ثم ولّى هارباً ! فقالت له خولة ، وهي تهزأ به : ليس هذا من شيم الكرام !! تُظهِرُ لنا المحبة والقُرب ، ثم تُظهِرُ لنا الساعة الجفاء والتباعد ؟! وخطت نحوه ، فقال لها : قد زال عنّي ما كنت أجد من محبتك . فقالت : لابد لي منك على كل حال ! ثم أسرعت إليه ، وقد قصده ضرار ، فجندله صريعاً ، وكان قتيله الخامس عشر ، بينما قتلت خولة خمسة ، وعفراء بنت غفار أربعة . وعاد الجميع لخوض معركة (أجنادين) التي حققت فيها خولة بطولتها مع باقي النساء ، حيث وقفت النساء خلف جيش خالد ، يستغثن بالله ، وكلما مرّ بهن رجل من المسلمين دفعنَ إليه أولادهن وقلن له : (قاتلوا دون أولادكم ونسائكم) ، كما أمرهن خالد أن يحرّمن على الرجال ما كان مباحاً لهم معهن ، فهن الآن في معركة وعدوهم قد صف لهم صفوفه ، وأصبحت المعركة دفاعاً عن العرض والشرف[11]

موقعة مرج الصُّفَّر
الخميس ١٧ جمادي الآخرة ١٣ هـ / ١٨ آب ٦٣٤ م

بعد أن فرغ خالد بن الوليد من عمليات مطاردة فلول الروم في (أجنادين) التقى بجيش الروم في « مرج الصُّفَّر » ، وهو سهل واسع جنوبي دمشق يبعد عنها زهاء ٣٨ كيلو متراً.

ولما دار القتال الشديد على شاطيء نهر كانت عليه طاحونة ، جرت الدماء في ماء النهر ، وطحنت بها الطاحونة ـ كما يقول البلاذري ـ

وكان خالد بن سعيد قد استشهد في هذا اليوم ، وفي عنقه سيفه « الصمصامة » ، وكان قد أعرس ليلتها بأم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي ، (وكانت زوجاً لعكرمة بن أبي جهل الذي قتل يوم أجنادين) .

ولما بلغ أم حكيم مصاب زوجها الجديد خالد بن سعيد في مرج الصُّفَّر ، انتزعت عمود الفسطاط[12] وخرجت به تقاتل حتى قتلت أربعة من الروم ، وقيل سبعة ، وكان بها أثر الطيب الذي تطيبت به ليلة عرسها[13]

حصار الروم في دمشق
٢٠ جمادي الآخرة ١٣ هـ / ٢٠ آب ٦٣٤ م

حينما ضرب الحصار على دمشق ، وأوكلت مهمة رصد تحركات الروم لضرار بن الأزور ، وقع أسيراً بيد العدو ، عقب معركة طاحنة ، وسيق الى حمص أسيراً.

انطلق خالد بن الوليد ليلاً مع أربعة آلاف فارس لينقذ ضرار من الاسر ، ويلتحم مع الروم . وفجأة ، وبينما كان يتملّى سير المعركة ، متفحصاً مدققاً ، ليختار الموقع الذي يجب أن يوجه منه الضربة ، وإذا بفارس على فرس أصيل وبيده رمح طويل ، وهو لا يبين منه إلا الحَدَق ، والفروسية تلوح من شمائله ، وعليه ثياب سود ، وقد حزم وسطه بعمامة خضراء سحبها على صدره ، ومن ورائه ، وقد سبق الناس وصار أمامهم ، كأنه نار[14]

فلما نظر خالد الى هذا الفارس قال :

ـ ليت شعري من هذا الفارس ؟! وأيْمُ الحق ، والله انه لفارس شجاع

ثم أتبعه خالد والناس ، وكان هذا الفارس أسبق الناس الى الروم فدهش خالد لضربات هذا الفارس وطعناته ، كيف لم يعرفه من قبل ؟

وراح هذا الفارس الغريب يتحرك بحصانه الامين في قلب المعركة ، وعلى المجنبتين معاً ، كأنما يريد لوحده أن يحدق بجند الروم .

وكان ضرام الحماسة في القلوب المؤمنة يتدفق باندفاع هذا الفارس الذي مازال مجهول الهوية . وهتف (رافع بن عميرة) مذهولاً : كأني بخالد ! لا .. انه ليس خالداً ، فهذا الخيّال نحيف ! وأحسّ الروم بوطأة الفارس الموشح بالسواد ، يرمي بصدر جواده في صفوفهم .. فراعوا ونزعوا . ما اقترب منه واحد منه فنجا ! وماغامرت جماعة بالتصدي له الا ذهبت بدداً.

وشدّ خالد راضياً بثقله القتالي في قلب الهيجاء ، بيد أنه كقائد عظيم ، ورجل حرب ، ما زال مشدوداً لمعرفة ذلك الفارس الصنديد الموشح بالسواد . فناداه : من أنت أيها الفارس ؟! لكن فارسنا انطلق لا يلوي على شيء ، يجندل أبطال الروم ، وقد تخضّب بالدماء . وناداه القوم : أميرك يخاطبك ، وأنت عنه ؟! اكشف عن اسمك وحسبك . لكن الفارس في شغلٍ شاغل عن كل نداء ، إلا نداء الجهاد في سبيل الله ، والوصول الى (ضرار بن الازور) الاسير لدى الروم .

وهنا يتقدم خالد ليقول للفارس المجهول : ويحك ! لقد شغلت قلوب الناس .. وقلبي بفعلك ! من انت ؟ ولما لم يكشف الفارس عن هويته ، استوقفه خالد بعد المعركة وقال له : احسر اللثام عن وجهك أيها الفاتك المكين !!

فاطاع البطل قائده خالد بن الوليد . وأغمد سيفه ، ثم حسر عن وجهه ، فإذا وجه امرأة يشع بهاءه ، ويسبي جماله ، فانسى الابطال حمحمات الخيول وجلجلات السلاح . فقال خالد : من تكونين أيتها المرأة ؟! فقالت : أنا (خولة بنت الازور الكندي) أخت ضرار بن الازور ، من بقايا الملوك . أتيتُ مع نسوة من قومي نشدّ عضدك في حرب الروم ، ثم انشدت بين يديه :

نحن بنـــات تُبّـــع وحِمْيـــر
وضـــربنـــا في القـــوم ليس يُنكـــر
لاننـــا في الحـــرب نـــارٌ تُسْعـــر
اليـــومَ يُسقـــون العـــذابَ الاكبـــر

وتنفيذاً لامر خالد انطلق رافع ومعه مائة فارس لنجدة واخذ خولة معه ، ولحقوا بالروم حتى وجدوهم قرب سلمية ، فانهوهم وانتزعوا ضراراً منهم[٣٥]

واقعة اليرموك
رجب ١٥ هـ / آب ٦٣٦م

في واقعة اليرموك الفاصلة التي خاضها العرب ضد الروم ، كانت النساء في المؤخرة ، وراء صفوف المقاتلين ، على تل محصن لحمايتهن وقد روى الواقدي أن بعض نساء المسلمين قد اشترك في القتال يومذاك ، مثل أسماء بنت أبي بكر ، وخولة بنت الازور ، وبنات عاصم الخولاني وسواهن وكان المسلمون يأخذون معهم في فتوحهم ، نساءهم وأولادهم وذراريهم ، آملين أن يستميت المقاتلون في قتالهم كي لا تُسبى نساؤهم ويقتل أولادهم وتُفنى ذراريهم[٣٦] وكانت مهمة النساء العناية بالجرحى والمرضى ، وسقاية المقاتلين في أثناء القتال ، وتشجيع المقاتلين وإثارة حماستهم ، وردّ الرجال الفارين الى المعركة ، والاشتراك بالقتال أحياناً .

وفي (تل السمن) المحصّن ، حيث كانت النساء تقيم فيه ، أمر أبو عبيدة النساء المحصنات في التل أن [خذن بايديكن أعمدة البيوت والخيام ، واجعلن الحجارة بين أيديكن ، وحرضن المؤمنين على القتال ، فإن كان الامر لنا والظفر ، فكن على ما انتن عليه ، فإن رأيتن أحداً من المسلمين منهزماً فاضربن وجهه باعمدتكن ، وأحصبنه بحجارتكن ، وارفعن إليه أولادكن وقلن له : (قاتل عن أهلك وولدك وعن دين الاسلام)[٣٧]

وخرج أبو سفيان بن حرب من بين الصفوف ، وأقبل على تل السمن حيث نساء المسلمين ومعهن أولادهن ، وقال لهن : (حرضن أزواجكن على القتال ، ومن رجع منهم فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد ، واظهرن أولادكن لازواجكن حتى يرجعوا)[٣٨]

وفي خلال اليوم الثاني من واقعة اليرموك ، وهو اليوم العاشر الذي يلي اليوم الاول ، والذي حدث بتاريخ (١ رجب ١٥ هـ - ٨ أب ٦٣٦م) اصطف المسلمون للقتال ، فكانت النساء يقفن على التل خلف الصفوف ، وقد تهيأن لاداء مهمة ردع الفارين والمنهزمين .

وبعد تراجع ميمنة المسلمين ، تدخلت النساء ، وقد رأين الرجال ينهزمون ، فاخذن يرجمنهم بالحجارة ويضربن خيلهم بالاعمدة ، ويعبن عليهم فرارهم ، ويهبن بهم أن يثبتوا في وجه العدو للدفاع عن شرفهم وعرضهم وعن كرامة الاسلام ، ويقلن لهم : (قبّح الله وجه رجل يفرّ عن حليلته) . و (لستم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الاعلاج)[٣٩] . ولما رأت (هند بنت عتبة) زوجها (أبو سفيان) منهزماً ، ضربت وجه حصانه بعمود وقالت له : (إلى أين ابن صخر ؟ ! إرجع الى القتال ، ابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .) عندها ارتد أبو سفيان ، وارتد معه المسلمون جميعاً للقتال[٤٠]

وفي اليوم الثالث من معركة اليرموك ، وهو (يوم ٢ رجب ١٥ هـ - ٩ أب ٦٣٦م) تراجعت ميسرة المسلمين بعد هجوم ميمنة الروم عليها ، فقامت نساء المسلمين بالدور نفسه الذي سبق وقمن به في اليوم الثاني للمعركة ، فرشقن المنهزمين وخيلهم بالحجارة والعصي صارخات : (أين أين عزّ الاسلام والامهات والازواج ؟ وأين تنهزمون يا أهل الاسلام عن الامهات والاخوات والبنين والبنات ؟ أتريدون أن تسلّمونا للاعلاج ؟) فخجل المنهزمون ، وأرتدوا نحو العدو يقاتلون بضراوة وبأس شديدين محاولين استعادة ما فقدوا من مواقع[٤١]

لقد كان اليوم الثالث من اليرموك يوماً شديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات ، وفي كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحن بالاطفال إليهم فيرجعون الى القتال .

وفي اليوم الرابع من معركة اليرموك وهو (يوم ٣ رجب ١٥ هـ / ١٠ آب ٦٣٦م) هجم الروم على ميمنة المسلمين ، ودخلوا معسكر المسلمين وكشفوهم ، حتى ألصقوهم بالتل الذي عليه النساء وأحاطوا بالتل) . فاندفعت نساء العرب عند رؤيتهن رجالهن منهزمين حتى التل الذي هنّ عليه ، فهبطن من مراكزهن وأخذن يدفعن بالرجال المنهزمين الى المعركة دفعاً ، صارخات في وجوههم ، وهن يضربنهم وخيلهم بالحجارة والعصى : (أين أنصار الدين ؟ أين حماة المسلمين ؟) وكان الزبير بن العوام ، في خيمة زوجته يداوي عينيه من رمد ، فسمع بما جرى للمسلمين ، وهبّ عندها مشرعاً سيفه ، ومندفعاً للقتال .

وفي يوم التعوير ، وهو اليوم الرابع ذاته من أيام اليرموك التي فقئت فيه للمسلمين ، نحو سبعمائة عين ، لسبعمائة رجل ، هلع المسلمون لما أصابهم واضطربوا ، وجفلت خيلهم وأرتدت على أعقابها ، فتراجعوا مبتعدين عن مرمى سهام الروم ، حتى وصلوا الى مضارب النساء .

وما إنْ رأى النساء المسلمات رجالهن منهزمين حتى نزلن عن التل ، وقد حمل بعضهن السيوف ثم اشتركن بالقتال ، وبرزت خولة بنت الازور وأم حكيم ابنة حكيم بن الحرث ، وسلمى بنت أوى ، فتصدين لنساء عرب الروم (لخم وجذام وخولان) وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعمد ويقلن : أخرجن من بيننا فانتنّ توهنّ جمعنا ، فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن ببسالة فائقة ، وقاتلت أم حكيم بنت الحارث امام الخيل بالسيف .

وهبّ المسلمون للقتال عندما رأوا نساءهم يقاتلن قتالاً أشدّ من قتال الرجال ، حتى قال فيهن عبد الله بن قرط : (لم أرَ امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا في اليمامة مع خالد بن الوليد مثل ماقاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال ، وخالط الروم المسلمين ، فضربن السيوف ضرباً وجيعاً)[٥٣]

وما إنْ رأى عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ، وكانا مع أبي عبيدة في القلب ، نساء المسلمين ، وقد أشرعن سيوفهن يقاتلن ، حتى دبّت الحماسة فيهما ، فوقف عكرمة على رأس كردوسه أمام فسطاط خالد وصاح : (قاتلت مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في كل موطن ثم أفرّ اليوم ؟) ثم نادى : (من يبايعني على الموت ؟) فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الازور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدّام فسطاط خالد حتى جرحوا جميعاً ، ومنهم من قتل[٥٤] وقد استمر القتال في (يوم التعوير) من أول النهار حتى حلول الظلام ، فتمكن المسلمون من دحر الروم ، واستعادوا مراكزهم ، وذلك بعد أنه (جرت الدماء بينهم وفرشت الارض بالقتلى) وكان الفضل للنساء العربيات في إحراز النصر على الروم في هذا اليوم .

واقعة القادسية

١٣ ـ ١٦ شعبان ١٥ هـ / ١٩ ـ ٢٢ أيلول ٦٣٦ م

في واقعة القادسية ، توقف القتال بعد العشاء في يوم (أرمات) ١٣ شعبان ١٥ هـ ، وباتت الجبهة في هدوء ، تحاجز هؤلاء عن هؤلاء ، ولذلك سُميت (ليلة الهدأة) . وقد أتاحت هذه الهدأة لبعضهم أن ينسلّ أثناء الليل إلى (العذيب) للقاء أهله ، ونقل الاخبار إليهم .

وفي مضارب نساء المسلمين بالعذيب ، جلست الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد) ، شاعرة بني سليم المخضرمة ، ومعها بنوها الاربعة ، تعظهم وتحرضهم على القتال قالت : (يابني ، إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين . وقد تعلمون ما أعدّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٥٦] فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين . فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها ، واضطرمت لظى على سياقها وجللت [تفجرت] ناراً على أوراقها [جوانبها] ، فتيمموا وطيسها [وسطها] وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها [جيشها] ، تظفروا بالغُنم والكرامة في دار الخلد المقامة) .

ففي يوم أغواث (١٤ شعبان ١٥ هـ) كان بنو سليم من قيس عيلان في الميمنة ، فخرج منها أبناء الخنساء الاربعة للقتال . قال أولهم ، متذكراً وصية أمه :

يا أخوتي ، إنّ العجوز الناصحة
قد نصحتنا ، إذْ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيانٍ واضحة
فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة
من آل ساسان الكلاب النابحة
أو ميتة تورث غُنماً رابحة

فتقدم ، وقاتل حتى استشهد ، فحمل الثاني وهو يقول :

إنّ العجوزَ ذات حزم وجَلَدْ
والنظر الاوفق والرأي السَدَدْ
قد أمرتنا بالسداد والرَشَد
نصيحة منها ، وبرّاً بالوَلَد
فباكروا الحرب حماة في العدد
إمّا لفوزٍ باردٍ على الكبد
أو ميتة تورثكم عزّ الابد
في جنّة الفردوس والعيش الرَغَد

فتقدم ، وقاتل حتى استشهد . وحمل الثالث وهو يقول :

واللهِ لا نعصي العجوزَ حرفا
قد أمرتنا حدباً وعطفا
نصحاً وبرّاً صادقاً ولطفا
فبادروا الحربَ الضروس زحفا
حتى تلفّوا آل كسرى لفّا
أو يكشفوكم عن حِماكم كشفا
إنّا نرى التقصير عنكم ضعفا
والقتل فيكم نجدة وزُلفى

فقاتل حتى استشهد ، وحمل الرابعِ وهو يقول :

لستُ لخنساء ولا للأخرَمِ
ولا لعمرو ذي السناء الاقدمِ
إنْ لم أردْ في الجيش ، جيش الاعجَمِ
ماضٍ على الهولِ خِضَمٍ خضرمِ
إمّا لفوزٍ عاجلٍ ومغنمِ
أو لوفاةٍ في السبيلِ الاكرم

فقاتل حتى استشهد . وبلغ الخنساء خبر استشهاد بنيها الاربعة ، وهي التي عاشت حياتها تبكي أخاها صخراً الذي قتل في الجاهلية ، فقالت : (الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .)[٥٥]

والشيء بالشيء يذكر ، فقد كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة ، شهدوا القتال في يوم أغواث فلما بدأ الصباح بتبلج قالت لهم : (انكم اسلمتم فلم تبدلوا وهاجرتم فلم تثربوا أي لم تكن هجرتكم الى يثرب ـ ولم تنبُ بكم البلاد ـ اي لم تلفظكم ـ تقحمكم السنة ـ اي القحط والجوع ـ ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين أيدي أهل فارس ، والله إنكم لبنو

رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة . ماخنت أباكم ، ولا فضحت خالكم . انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره) .

فانصرفوا عنها مسرعين يشتدون . فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول : (اللهم إدفع عن بنيّ) . فرجعوا اليها بعد ذلك ، وقد أحسنوا القتال ، ما جرح منهم رجل جرحاً .

وفي واقعة القادسية الشهيرة ، اشتركت ألف وسبعمائة امرأة من بجيلة ونخع ، كان لجميعهن دور بارز في المعركة ، حيث قدمّن كل ما يحقق للمعركة من أسباب النصر . وقد ذكر الطبري في تاريخه نموذجاً لادوار أولئك الماجدات ، متمثلاً بما نقله عن جهود (أم كثير) امرأة همام بن الحارث النخعي التي كانت تقاتل الفرس مع أخوتها بالهراوي[3] .

واقعة جلولاء الوقيعة

بينما كانت معركة جلولاء تدور رحاها بين العرب والفرس (أول ذي القعدة ١٦ هـ / ٢٤ تشرين الثاني ٦٣٧ م) تقدم عتبة بن غزوان نحو (ميسان) ، والتحم ببعض الفرس في نواحي (المذار) و (أبر قباذ) ، وكانت (أزدة بنت الحارث بن كلدة) امرأة (شبل بن معبد البجلي) ممن شهدها ، فكانت تحرض المسلمين على القتال أشد تحريض وتقول : (إن يهزموكم يولجوا فينا الغلف) ، فتمكن عتبة من ايقاع الهزيمة بالفرس وعاد الى البصرة[3]

معركة الاحواز

وخلال معركة تحرير الاحواز (عام ١٦ هـ) سار (المغيرة بن شُعبة) وقد خلّف النساء والاثقال وراءه لتاديب الفرس ، فلقيهم بـ « المرغاب » قبل دجلة ، وساهمت (أزدة) في الاحداث وقالت : (لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم) ، ثم تزعمت النساء وعقدت لواءً من خمارها (شالها) ، واتخذت النساء من خُمزهنّ رايات ، وخرجن في أثر الرجال ، فانتهين إليهم ، وهم ملتحمون بالاعداء .

ولما رأى الفرس على بُعد جمعاً مقبلاً يرفع رايات كثيرة ، حسبوه مدداً جاء الى المسلمين ، فعمدوا الى الفرار ، وتبعهم المسلمون يوقعون بهم الخسائر .[18]

خاتمة

وهكذا يتضح لنا مما تقدم أن تاريخنا العربي الاسلامي حافل بالبطولات النسائية ، فقد لعبت المرأة العربية دوراً بارزاً في تحرير الارض وطرد الغزاة ، جنباً الى جنب مع الرجل .

لقد كانت المرأة العربية ، سواء كانت أماً أو زوجة أو أختاً أو بنتاً أو شاعرة ، شعلة وهاجة يلهب لظاها المعتدين ، وكان لسانها براكين تتفجر لظىً في وجوه من تسول لهم انفسهم النيل من الارض والعرض ، حيث كان الرجل يهب للنجدة بمجرد أن يسمع نداء المرأة أو استصراخها له في الحوادث والملمات .

إن الماجدة العراقية في عصرنا الراهن ، تستلهم تراث حفيداتها اللاتي ضربن بسهم وافرٍ في ميدان الصبر والجهاد ، وستبقى مصدر ثورة الرجل على الطاغوت ، وينبوع إحساسه بالانتماء للارض والامة ، تشدّ من أزره ، وتقف إلى جانبه ، وتزغرد له عندما ينال شرف البطولة والجهاد ضد المعتدين الطامعين وتربي الاجيال على الحب والكرامة .

المصادر والمراجع والشروح

(١) من الامثلة على الانتخاء بالمرأة : انتخى (قرة بن الاشقر الصفاري) ثم (الضّنفي) الى أمه (لبنى) عند نزاله النعمان بن جمال حين رماه بسهم فاصابه في ركبته وهو يقول : (خذها وأنا ابن لبنى) ، كما ورد في تاريخ الطبري جـ ٣ ص ١٤١ ـ دار المعارف / ١٩٧٩ وقد عرف عن (معاوية بن أبي سفيان) أنه كان يُباهل خصمه بالانتساب الى امه ، فيصدع بذلك اسماعهم ... ففي سجل الدهر انبرى يقول : (أنا ابن هند : أطلقت عقال الحرب فأكلت السنام وشربت عنفوان المكرع وليس للآكل الا الفلذة ، ولا للشارب الا الرنق) كما ذكر الجاحظ في (البيان والتبيين) جـ٣ ص ٤٥ مطبعة الفتوح .

كما أن القبائل والعشائر والافخاذ كانت تنتسب إلى امهاتهم ، كان يقول : آل عفراء ، وآل خصفة ، وبجيلة ، وباهلة ، ومزينة ، وجهينة ، كما يقول الطبري في تاريخه جـ ٢ ص ٤٤٥ و ٤٦٠ وجـ ٣ ص ٥٤٨

(٢) ذكر بعض المؤرخين ان واقعة (ذي قار) كانت قد حدثت في سنة ٦١٠م ، لكن الاصوب هو سنة ٦٢٣م وفق العملية الحسابية الاتية :

في سنة ٥٧٠ م كان مولد الرسول (ﷺ) ، وبعد أربعين سنة بُعث الرسول (ﷺ) ، وبعد ١٣ سنة ، كانت بيعة العقبة ، وبذلك تكون المعركة قد حدثت في سنة ٦٢٣ م ، حيث ان اسلام الاوس والخزرج قد حدث في تلك البيعة الثانية في السنة الثالثة عشرة للبعثة النبوية .

(٣) الغُزل : جمع غُرْلة ، وهي القُلفة (يراجع لسان العرب ـ غرل) .

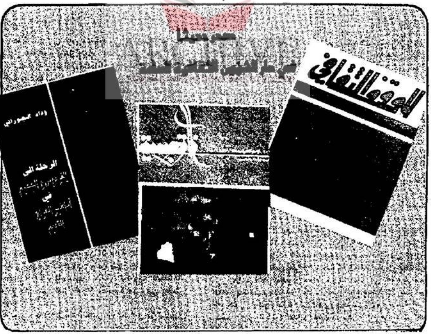
(٤) الوضن أو الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر .

والوضين للهودج بمنزلة البطان للقتب والتصدير للرحل والحزام للسرج . والوضن ، حزام الرحال (يراجع لسان العرب – وضن) .
(٥) القلف ، جمع قُلْفة ، وهي القُزلة – المتقدم ذكرها في الهامش الثالث – ورجل أقلف لم يختن . (يراجع لسان العرب – قلف) .
(٦) النمارق ، الوسائد .
(٧) المفارق ، جمع فرق ، موضع المفرق من الرأس . وفرق الرأس ، ما بين الجبين الى الدائرة (يراجع لسان العرب – فرق) .
(٨) النوائق ، الكثيرة الفواح .
(٩) الوامق ، المحب
(١٠) د . رمزية محمد الاطرقجي ،
قبيلة بكر بن وائل وحروبها في الاسلام مجلة (المؤرخ العربي) العدد ٢٤ | ١٩٨٤ ص٢١٤ – ١٥ ويراجع ، د . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام مؤسسة الثقافة الجامعية – الاسكندرية – مصر ١٩٧٣ ص ١٧٩ – ١٨٥
(١١) الخنب ، الشرف الثابت في الاباء . (يراجع لسان العرب – حسب) .
(١٢) ابن حنبل ، العلل جـ١ ص ٢ أنقرة ١٩٦٣ .
ويروى أن بني شيبان اتخذوا شعارهم باسم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، (يامحمد يامنصور) ، وذلك قبل إسلامهم ، كما يقول الاصمعي في (نهاية الارب في أخبار الفرس والعرب) الورقة ٢٥٠ ب ، ١٢٥١ أ ، مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم ٦١٣ المعروفة حالياً بـ(دار صدام للمخطوطات)
ويرى باحث معاصر أن بني شيبان ربما اتخذوا اسم (رسول الله) شعاراً لهم ، إذ سبق وأن التقاهم اثناء عرضه الاسلام على قبائل العرب في موسم الحج .
يراجع كتاب ، بنو شيبان للاستاذ محمود عبد الله العبيدي ص ١٥٠ بغداد .
(١٣) د . نوري حمودي القيسي ،
نساء من التاريخ .
مجلة (المرأة العربية) العدد الثالث – بغداد ١٩٨٦ ص ١٢٨ – ١٣٠
(١٤) شكري الشيخلي ،
كعيبة الاسلمية .. أول ممرضة في الاسلام .
مجلة (الجندي) – بغداد – تشرين الثاني ١٩٦٨
(١٥) سنية قراعة ،
أم الملوك .. هند بنت عتبة .
مجلة (العربي) العدد ٥٢ | ١٩٦٢
(١٦) ابن هشام ،
السيرة النبوية جـ ٣ ص ٧٢
دار احياء التراث العربي – بيروت .
(١٧) ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٨٤
الطبري ، تاريخ الرسل والملوك – تحقيق أبو الفضل ابراهيم – دار المعارف – القاهرة الطبعة الرابعة جـ ٣ ص ١٧ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٦٢ دار صادر – بيروت ١٩٦٥
(١٨) الواقدي ،
المغازي ، ص ٢٤٦ ، ٢٨٥ ، مطبعة جامعة لندن | ١٩٦٦

ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٨ | ٢١٣ ، ٢٩٣ دار صادر – بيروت ١٣٧٧ هـ | ١٩٥٨ م
(١٩) بدر الدين محمود بن أحمد العيني ،
من عمدة القارىء لشرح صحيح البخاري
(طبعة القاهرة | د . ت – الطبعة الاولى ٨ | ٢٢١) ،
ابو عبيدة ، كتاب الاموال ص ٢٤٢) ،
(٢٠) صحيح مسلم ، طبعة السعادة بمصر – الطبعة الاول ١٩٢٨
ارشاد الباري في شرح صحيح البخاري جـ ٥ ص ٥٨
(٢١) الواقدي ،
المغازي ١ | ٢٠٩ القاهرة | ١٩٤٨ ،
ابن سعد ، الطبقات ٨ | ٤١٢
(٢٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٨ | ٤١٢ بيروت – دار صادر ١٣٧٧ هـ | ١٩٥٨ م
(٢٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ | ٨٦ – ٨٧
(٢٤) النقع ، محبس الماء
(٢٥) سنية قراعة ،
نسيبة بنت كعب .
مجلة (العربي) العدد ٥٩
(٢٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ | ٨٧
(٢٧) تكعكع ، هاب القوم وتركهم بعد ما أرادهم وجبن عنهم . وتكعكع الرجل وتكاكأ إذا ارتدع .
(لسان العرب – كعع) .
(٢٨) الواقدي ، المغازي ص ٢٧٢ طبع لندن ١٩٦٦
(٢٩) المصدر نفسه ص ٢٨٢ ، تاريخ الطبري ٣٠ | ٥٠
(٣٠) تاريخ الطبري ٢ | ٥٨٦
(٣١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٨ | ٢٩٢ ،
ابن الاثير ، أسد الغابة ٥ | ٤٠٥
(٣٢) ابن الاثير ، اسد الغابة ٥ | ٣٦٤
(٣٣) السويق ، ما يتخذ من الحنطة والشعير .
(٣٤) ابن الاثير ، اسد الغابة جـ ٥ / ٣٦٤
(٣٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٨ | ٤٢٥
(٣٦) فتحية محمد عبد الهادي ،
الرميصاء المجاهدة الصابرة
مجلة (الدفاع) العدد ٦٤ الرياض ص ١٤٦ – ١٤٧
(٣٧) الواقدي ، المغازي ص ٩٩٢
(٣٨) ابن حجر ، الاصابة ٨ | ١٩٨
(٣٩) د . نوري حمودي القيسي ،
نساء من التاريخ
مجلة (المرأة العربية) العدد الثالث – بغداد | ١٩٨٦ ص ١٢٧ – ١٢٨
(٤٠) زكريا شمس الدين ،
نسيبة بنت كعب .
مجلة (الدفاع العدد العاشر – الرياض ص ١٠٩ – ١١٣
(٤١) الواقدي ، فتوح الشام ١ | ٥٢ – ٥٥ ،
العاملي ، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . (طبع أوفسيت –

بيروت ـ دار المعرفة ـ دون تاريخ ـ ص ١٨٤ ـ ١٨٧)
(٤٢) القسطاط : بيت من الشعر .
(٤٣) البلاذري :
فتوح البلدان ص ١٤٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .
(٤٤) الواقدي : فتوح الشام ١ /٤٥
(٤٥) أ. أكرم :
سيف الله خالد بن الوليد ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧
(٤٦) الواقدي : فتوح الشام ١ /٩٩
(٤٧) المصدر نفسه ١ /١٢٥
(٤٨) المصدر نفسه ١ /١٢٦
(٤٩) د . ياسين سويد :
الفن العسكري الاسلامي .
الطبعة الاولى ـ بيروت / ١٩٨٨ ص ٢١٣
(٥٠) الواقدي : فتوح الشام ١ /١٢٧ ـ ١٢٨
(٥١) د . ياسين سويد : المرجع نفسه ص ٢١٤
(٥٢) الواقدي : فتوح الشام ١ /١٣٦
(٥٣) تاريخ الطبري ٣ /٤٠١ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ـ ١٩٦٩
ابن الاثير : الكامل في التاريخ . دار صادر ، ودار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٢ ، ٢ /٤١٢
(٥٤) القرآن الكريم : (سورة آل عمران ـ الاية / ٢٠٠)
(٥٥) البغدادي :
خزانة الادب ص ٣٣ ويراجع تاريخ الطبري وغيره .
(٥٦) الطبري :
تاريخ الرسل والملوك ٣ /٥٨١ و ٥٦٤ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٩ ص ٤٩٤
(٥٧) تاريخ الطبري ٣ /٥٩٧ ، أحمد عادل كمال : سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية .
دار النفائس ـ الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ١٢٢ .
(٥٨) تاريخ الطبري ٣ /٥٩٤ ، والمرجع السابق ذكره .

*



ملف
المرأة

المرأة الاندلسية
ودورها في الحياة الثقافية

« في عصري الامارة والخلافة »

١٣٨ - ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٢ م

د . أحلام حسن مصطفى النقيب

كلية التربية - جامعة الموصل

يتفق الباحثون على ان عصر الامارة في الاندلس يبدأ منذ عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وهو العام الذي اعلن فيه الامير عبد الرحمن بن معاوية (الملقب بالداخل) الحكم الاموي في العاصمة قرطبة والذي استمر في احفاده من بعده حتى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م وهو العام نفسه الذي اعلن فيه الخليفة عبد الرحمن الناصر من الامويين ايضاً عصر الخلافة في الاندلس بعد ان فرض شخصيته وسلطته على البلاد ، ذلك العصر الذي يعد من الناحية الواقعية والسياسية تتويجاً لعصر الامارة وامتداداً طبيعياً له ، والذي استمر حتى سنة ٤٢٢ هـ / وهي السنة التي أعلن فيه انتهاء عصر الخلافة بخلع الخليفة هشام المعتد بالله الذي يعد آخر اموي حكم بلاد الاندلس .

لقد تميزت المرأة العربية في الاندلس بحكم طبيعة المجتمع بنشاطها المتنوع وذلك للظروف الاجتماعية التي منحها لها ، الامر الذي ساعد فيه اظهار قابلياتها في العديد من النواحي العامة من الحياة .

ولو تاملنا واقع الناحية الثقافية في الاندلس للمسنا العناية الواضحة التي كان يوليها المجتمع للمرأة من حيث توفير فرصة التعليم لها ، فضلاً عن الرعاية التي خصصها الامراء والخلفاء لهن ، وتشجيعهن ، من خلال اغداق الاموال عليهن ، وتحفيز العلماء لتعليمهن حسب الظروف المناسبة لذلك لما يمثله ذلك في نظر الدولة الاموية من رقي علمي وتمدن حضاري[1] .

على أية حال ، فقد اسهمت الكثير من العوامل في تطوير الحياة الثقافية والعلمية في الاندلس التي وصلت أوج ازدهارها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، اذ حظيت العلوم والمعارف باهتمام متزايد من لدن الامويين في الاندلس ، فالامير عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل مؤسس دولتهم (١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٥ - ٧٨٨ م) ، يشار الى انه من اهل العلم ، وعرف بفصاحته وكتابته للشعر[2] ، وعرف عن الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) علمه بالحساب[3] ، وانه اغدق على العلماء والفقهاء عناية واضحة واموالاً طائلة[4] ، وكان الامير المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م) معروفاً بعطائه الجزيل للشعراء الذين ينشدون قصائدهم في مجلسه[5] ، واهتم الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله (٣١٦ - ٣٥٠ هـ / ٩٢٨ - ٩٦١ م) بتشجيع العلماء واستقدام المشارقة منهم الى الاندلس بعد ترغيبهم بالاموال الطائلة ، ومن أبرز من وفدوا على بلاده ابو علي القالي البغدادي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠١ - ٩٦٧ م) الذي أكرمه الناصر وأحسن وفادته[6] . وقد سار على نهجه ولده الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦٧ - ٩٧٦ م) الذي كان من أبرز سمات حكمه عنايته الفائقة بالعلم والعلماء وليس غريباً ان يصفه أحد الباحثين بقوله « الخليفة العالم الجماع للكتب »[7]

لقد شملت النهضة العلمية والثقافية في الاندلس معظم الناس بما فيهم النساء . فكانت المرأة الاندلسية اكثر قدرة على الحركة . تتعلم وتتفقه في الدين وتدرس الادب وتنظم الشعر وتشارك في الحياة العامة فتبوأت مكانة في مجالات الحياة المختلفة وتمتعت بحرية واسعة فاصبح لها شخصيتها

المستقلة[8] .

ولعل استخدام المرأة ككاتبة على عهد الناصر وولده الحكم[9] يعد بحد ذاته تشجيعاً لها ولمقدرتها الادبية والثقافية وفي الوقت نفسه يعد مساهمة منها في رفد الحياة الثقافية .

أن مراجعة سريعة للمصادر الاندلسية ، تكشف عن انتشار التعليم بينهن واحترافهن لمهنة الخط والكتابة ، ولعل الرواية التي قيلت بشان النساء اللواتي احترفن الخط الكوفي في الربض الشرقي في قرطبة خير مثال على ذلك فقد ذكر المراكشي[10] ، ما نصه : « كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي » . ومن بينهن عائشة بنت احمد بن محمد القادم القرطبية التي اشتهرت بكتابة المصاحف وكانت تتميز بخطها الجميل[11] ولم يكن في زمانها من يعد لها فهماً وعلماً وادباً وشعراً وفصاحة وعفة وجزالة وكانت تجمع الكتب وتعتني بالعلم ولها منه خزانة كبيرة ومن شعرها الى بعض الرؤساء قولها :-

نــولا الــدمــوع لمــا خشيتُ عــدوّلا
فهي التي جعلتْ اليــكَ سبيــلا[12]

فضلاً عن الكثير من النساء اللواتي احترفن كتابة ونسخ المصاحف واصبحت بالنسبة لهن مهنة[13] ، لكسب الرزق اذ لقيت تلك الحرفة رواجاً من حواضر الاندلس بوجه عام وذلك لاقبال طلبة العلم الى المساجد والتحلق حول العلماء لتعلم القرآن والكتابة[14] .

وبرزت المرأة الاندلسية بدراسة علم الحديث باعتباره الاساس الثاني في الشريعة الاسلامية بعد القرآن الكريم[15] . فظهرت نساء حدثن عن ازواجهن أو ابائهن امثال خديجة بنت جعفر بن نصير بن التحار التميمي زوجة الفقيه عبد الله بن أسد الذي ذكر بانها حدثت عن زوجها عبد الله بموطأ القعني سنة أربع وتسعين وثلاثمائة[16] ، كما حدثت علة عن ابيها سليمان بن منقوش وهو من اهل مدينة شذونه[17] ، واشتهرت أسماء بنت أبي داؤد بانها روت عن أبيها الذي كان مولى هشام المؤيد بالله وشاركته في بعض شيوخه[18] .

ويبدو أن بعض النساء وصلن الى مرتبة (الشيخة) وهذا ما أكد عليه ابن بشكوال[19] فقد اشار الى تلقي احد العلماء وهو عبد الله بن اسماعيل (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) العلم عن امرأتين من الاندلس كانتا ضمن شيوخه ، وتميزت بعضهن بمعرفتهن في الفقه فقد اشتهرت فاطمة بنت يحيى بن يوسف اخت الفقيه يوسف بن يحيى المغامي بقيامها بدراسة الفقه[20] .

أما في مجال الادب ، فقد نالت المرأة الاندلسية مكانة واضحه فيه وقد وصف المقري[21] حال المرأة الاندلسية في مضمار فنون العربية ومنها البلاغة بقوله (لهن اليد الطولى في البلاغة) ، ويمكن ان نميز جانبين واضحين في مجال ابداع المرأة الادبي وهما اولاً :

قيام المرأة الاندلسية بدور المؤثر في الادب لما لها من أثر اجتماعي اذ حركت نفسية الاديب الاندلسي فتغزل بها[22] ووصفها ، فظهر أثرها البارز في نتاجه الادبي بوجه عام .

وثانياً تفاعل وتاثير المرأة الاندلسية بالحركة الادبية التي راجت في تلك البلاد بفعل الاعلام الذين عاشوا في ظل عصري الامارة والخلافة .

على أية حال فقد أجادت المرأة الاندلسية في نظم الشعر وحفظت لنا كتب التراجم الكثير منهن ، فعلى صعيد عصر الامارة اشتهرت الشاعرة حسانة التميمية ابنة الشاعر ابي المخشى عاصم بن زيد وتميزت بكونها « شاعرة مطبوعة »[23] فكان شعرها مزيجاً من الرثاء والشكوى والمدح ، ويعد قمة في ما وصلن اليه من النضج الفني والاصالة الشعرية[24] . وكان ابوها قد ادبها وعلمها الشعر فلما مات ابوها كتبت الى الحكم ابن هشام مشتكية من والي البيرة (جابر بن لبيد) وكان الحكم قد وقع لها بخط يده بتحرير املاكها برد املاك ابيها اليها ولما مات الحكم امتنع جابر عليها فدخلت الى الامام عبد الرحمن وقصت عليه جميع امرها ودفعت اليه خط يد والده الحكم بتحرير املاكها ، فعزله ووقع لها بمثل توقيع ابيه وامر لها بجائزة فانصرفت وبعثت اليه بقصيدة من البيرة منها هذه الابيات :-

ابن الهشــامين خيــر النــاس مــاثــرة
وخيــر منتــجــع يــومــاً لــرواد
ان هــزّ يــوم الــوغى اثنــاء صعــدتــه
روى انــا بيبهــا من صــرف فــرصــاد
قــل لــلامــام أيــا خيــر الــورى نسبــاً
مقــابــلاً بين أبــاء واجــداد[25]

كما برزت في عصر الخلافة شاعرات كثيرات منهن عائشة بنت احمد القرطبية التي فاقت نساء عصرها من الناحية العلمية والادبية فامتازت بالفصاحة وجزالة الشعر فمدحت امراء الاندلس وقصدتهم في حاجتها[26] ، فقالت ما نريد قياساً الى اديبات غيرها وبلغت شاناً كبيراً ، فاذا ما تشفعت الى احد لا ترد شفاعتها[27] . وكذلك حفصة بنت حمدون الحجارية المنسوبة الى وادي الحجارة[28] ، التي تمتعت بمكانة ادبية وعلمية مرموقة مما جعل ابن سعيد[29] يقول عنها (إن بلدها يفخر بها) ، ولها شعر كثير منه قولها :

يــاربُّ اني من عبيــدي على
جمــر الغضى مــافيهم من نجيب
إمــا جَهــولٌ أبلــهٌ مُتعبٌ
او فَطِنٌ من كيــده لا لحيب[30]

وكذلك مريم بنت أبي يعقوب الانصاري التي وصفتها المصادر بالاديبة والشاعرة فكانت في شعرها ذات جزالة واضحة[31] ، وقد قال في حقها شاعر من عصرها بانها « فاقت

الخنساء في الشعر »[٣٣]

سكنت اشبيلية واشتهرت بها وكانت تعلم النساء الادب وعمرت عمراً طويلاً ومن شعرها :

ومـــا يُــرتجى من بنت سبعين حجــة
وسبــــع كنســـج العنكبـــوت المهلْهـــل
تــدبُ دبيب الطفـــل تسعى الى العصـــا
وتمشي بهـــا مشي الاسيـــر المكبَّـــلِ[٣٣]

وبرز منهن أيضاً ام العلاء بنت يوسف الحجارية فقد ذكرها ابن سعيد قائلاً :[٣٤] « انها ممن تفخر بها بلدها وقبيلها » ومن شعرها

كـــــل مـــــا يصـــــدر عنكم حَسَنُ
وبعَلْيـــــاكم يُحلى الـــــزمنُ
تعكفُ العين على منظـــــركم
وبـــــذكـــــراكم تَلَـــــذُّ الأذُنُ
من يعش دونكم في عمـــــره
فهـــــو في نيـــــل الامـــــاني يُغبَنُ

فضلاً عن الشاعرة حمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب على الرغم من ان شعرها ليس في الرثاء بل في الغزل ومن جميل ما قالت :[٣٥]

ولمـــا أبى الـــواشـــون الافـــراقنـــا
ومـــالهم عنـــدي وعنـــدك من ثـــارِ
وشنـــوا على اسمـــاعنـــا كـــل غـــارةٍ
وقـــلَّ حُمـــاتي عنـــد ذاك وأنصـــاري
غـــــزوتهم من مقلتيـــــك وأدمعي
ومن نفسي بـــالسيف والسَّيـــل والنـــار

كما برزت الشاعرة الغسانية المشهورة التي كانت تمدح الملوك ولها قصيدة طويلة في الامير خيران العامري صاحب المرية تعارض بها ابا عمر احمد بن دراج في قصيدته التي مطلعها .

لـــك الخيـــر قـــد اوفى بعهـــدك خيـــران
وبشـــراك قـــد اواك عِـــزٌّ وسلطـــانُ

فتقول :

اتجـــزع أن قـــالـــوا ستظعن أظعـــان
وكيف تطيق الصبـــر ويحـــك إن بـــانـــوا
ومـــا هـــو الا المـــوتُ عنـــد رحيلهم
والّا فعيش تجتنى منـــه أحـــزانُ
عهـــدتهم والعيش في ظـــل وصلهم
انيق وروض الـــدهـــر أزهـــر ريـــانُ[٣٦]

وشهد اواخر عصر الخلافة الشاعرة ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن ابن محمد الذي بويع بالخلافة سنة (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)[٣٧] . ويبدو ان اباها قد اهتم بتثقيفها فاحضر لها المعلمين والمؤدبين فتفتحت مواهبها ، وقد نعتت ولادة بالفصاحة والنباهة واجادة الشعر وجزالة القول[٣٨] فكانت تعقد المجالس الادبية في قرطبة[٣٩] ، اذ يتناظر الشعراء والادباء[٤٠] في مجلسها الادبي كما اسهمت بشكل كبير في تطوير الحركة الادبية في الاندلس فكانت تشترك في المساجلات الادبية فضلاً عن انها تباري الشعراء ولعل هذا في حد ذاته يعد قفزة نوعية في تاريخ الادب النسوي الاندلسي .

وفضلاً عن ميلها للادب ونظمها للشعر كانت مولعة بالحب مستسلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طول حياتها وقد اولع بها ابن زيدون[٤١] واوقعت به وربط المؤرخون ذكرها بذكره ، ومن جميل ما كتبته له في ايام الشباب .

ترقب إذا جَنَّ الظـــلامُ زيـــارتي
فـــاني رأيتُ الليـــل أكتمَ للســـرِّ

وبي منك ما لـــو كان بـــالبدر مـــابدا
وبـــالشمس لم تطلع وبـــالبـــدر لم يسرِ

وقد حصلت جفوة بينهما فكتبت اليه :

الا هـــل لنـــا من بعـــد هـــذا التفـــرق
سبيـــلٌ فيشكـــو كـــلُّ صبٍّ بمـــا لقي
وقـــد كنت اوقـــات التـــزاور في الشتـــا
أبيتُ على جمـــرٍ من الشـــوقِ يحـــرقِ
فكيف وقـــد امسيت في حـــال قطعـــه
لقـــد عجـــلَ المقـــدور مـــا كنتُ أتقي[٤٢]

والى جانب ولادة نبغت شاعرات كدن يضاهين الشعراء في الشعر والارتباط بنظمه مثل مهجة القرطبية تلميذة ولادة وجاريتها ، وبثينة بنت المعتمد بن عباد وغيرهن .

وفوق هذا فقد اهتمت المرأة الاندلسية بالناحية العلمية أيضاً ، ومما يؤيد ذلك ان بعضهن وصفن بكونهن « عالمات » فقد قيل بحق فاطمة بنت يحيى بن يوسف المغامي تلك الصفة العلمية[٤٣] وكذلك بحق الشاعرة حفصة بنت حمدون[٤٤] ، كما اشتهرت بعضهن بالعلم فقد قيل عن لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بانها مهيمنة بالعلم ولها معرفة بالحساب وعلم العروض[٤٥] .

وفضلاً عن ذلك فقد اسهمت المرأة الاندلسية في اقتناء الكتب العلمية حيث وجدت مكتبات خاصة لهن مما يدل على اهتمامهن بالحركة العلمية ورغبتهن الذاتية في التزود بالعلم

والاطلاع على المؤلفات العلمية ، فقد عرف عن عائشة بنت احمد القرطبية انها كانت لها خزانة علم كبيرة حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب توفيت سنة ٤٠٠ هـ[٤٦] .

ولم تتوقف المرأة الاندلسية عند حدود التعلم بل راحت تشارك في الوظائف العلمية والرسمية فقد مارست المرأة الاندلسية مهنة التاديب (المؤدبة او المعلمة) ولم يكن بوسعها ان تمارس هذه المهنة في الكتاتيب كما هو الحال بالنسبة للرجل بل مارستها داخل البيت . فقد ذكر ان اخت محمد بن حزم[٤٧] كانت تمارس التاديب داخل الدار وكانت هي وابوها واخوها يمارسون التعليم في دار واحدة[٤٨] . واشار كذلك احمد بن محمد الرازي[٤٩] الى المعلمة فخر التي توفيت سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م .

اما على صعيد الادب وتعليمه فقد ذكرت المصادر ان الشاعرة مريم بنت ابي يعقوب الانصاري كانت تمارس تعليم النساء الادب[٥٠] كما مارست المرأة الاندلسية الكتابة وشغفت بها وتميزت بالخط الجميل سواء كتابة الرسائل او نسخ الكتب مما يدل على تميز بعضهن بثقافة عالية واسلوب رفيع مكنهن من اداء تلك الوظائف بشكل مرضي ، فكانت صفية بنت عبد الله الرّيّ موصوفة بحسن الخط وقد عابت امرأة خطها فقالت :

وعـــائبـــة خطي فقلت لهـــا اقصـــري
فســوف أريــك الــدرّ في نظم أسطــري
ونـــاديت كفي كي تجـــود بخطهـــا
وقـــربت اقـــلامي ورقي ومحبـــري
فخطت بـــأبيـــات ثـــلاث نظمتهـــا
ليبـــدو بهـا خطي وقلت لهـــا أنظـري[٥١]

واخيراً فقد عملت النساء ككاتبات في قصور الخلافة ، فقد شهدت الاندلس في عصر الخلافة وخاصة على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر تطورات سياسية اقتضت المزيد من المخاطبات والمراسلات والسفارات التي كانت تفد الى بلاط الناصر .

فاشتهرت مزنة (ت ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م) بوصفها كاتبة الخليفة الناصر لدين الله لما تمتعت به من جودة في الخط فاقت غيرها[٥٢] كما برزت الكاتبة لبنى (ت ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م) على عهد ولده الحكم فقد وصفها ابن بشكوال بقوله : « حاذقة ، نحوية ، شاعرة ، بصيرة بالحساب ، عروضية ، خطاطة ، ولم يكن في قصر الحكم أنبل منها »[٥٣] كما اشارت بعض المصادر الى كاتبات مارسن الكتابة خارج نطاق البلاط فقد اشتهرت زمرد (ت ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م) بانها كاتبة حاذقة[٥٤] ، وفاطمة بنت زكريا ابن عبد الله الكاتب التي امتازت بأنها كاتبة جزلة تكتب الكتب الطوال وتحسن اجادة الخط والالقاء[٥٥] .

وهكذا نرى ان المرأة الاندلسية لا تقل عن الرجل في المضمار الثقافي فكانت اهتماماتها العلمية والثقافية مبكرة بحيث اظهرت نتائجها الكبيرة في العهود اللاحقة فظهرت نساء كثيرات طرقن مجالات أوسع في العلوم والاداب .

الهوامش والمصادر

(١) الحميدي ، محمد بن ابي نصر فتوح بن عبد الله الازدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس الدار المصرية للتاليف والترجمة ، مطابع سجل العرب (القاهرة – ١٩٦٦) ص ٤١٢ – ٤١٤ ، ابن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبد الملك ، كتاب الصلة ، (القاهرة – ١٩٦٦) حـ ٢ ، ص ٦٩١ ، ومابعدها ، الضبي ، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة ، بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، (مدريد – ١٨٨٤) ، ص ٥٣٠ – ٥٣١ .

(٢) ابن عذاري ، احمد بن محمد المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ج .س كولان وأ . ليفي بروفنسال . دار الثقافة (بيروت . لا ت) جـ٢ ، ص ٦٠ ؛ ابن الخطيب ، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، دار المكشوف (بيروت – ١٩٥٦) ، ص ١٠

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق : محمود علي مكي ، جـ٢ (بيروت – ١٩٧٣) ، ص ٣٦ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ، حـ٢ ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن حيان ، المقتبس ، نح ، مكي جـ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٥) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ١٢٠ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس ، نح ، شالميتا ، حـ٥ ، ص ٤٧٩ – ٤٨٠ ؛ الحميدي جذوة المقتبس ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ، الضبي ، بغية الملتمس ، ص ٢١٦ – ٢١٧

(٧) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة : حسين مؤنس ، ط١ القاهرة – ١٩٥٥ ، ص ٦٠

(٨) محمد عبد العزيز عثمان ، دور المرأة العربية في الاندلس ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١٣ ، السنة ١٩٨٠ ، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٩) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ص ٦٩٢ ، الضبي ، ص ٥٣٠ – ٥٣١

(١٠) عبد الواحد بن علي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان . (القاهرة – ١٩٦٣) ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧

(١١) مجهول المؤلف . ذكر بلاد الاندلس ، تح لويس موليتا ، ط١ (مدريد – ١٩٨٣) ، ص ٣٢ ؛ المقري ، شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق :

احسان عباس ، دار صادر (بيروت ـ ١٩٦٨) حـ٤ ، ص ٢٩٠ .
(١٢) ابن بشكوال ، الصلة ، حـ٢ ، ص ٦٩٢
(١٣) ابراهيم علي العكش ، التربية والتعليم في الاندلس ، ط ١ ، دار الفيحاء ـ دار عمار ، (عمان ـ ١٩٨٦) ، ص ٦٥
(١٤) خوليان ريبيرا ، المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية ، ترجمة : جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، (القاهرة ـ ١٩٥٩) م ٤ ، جـ١ ، ص ٩٤ .
(١٥) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق : علي عبد الواحد وافي ، ط١ ، لجنة البيان العربي (بلا ـ ١٩٦٠) جـ٣ ، ص ١٠١٠
(١٦) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ص ٦٩٣
(١٧) ابن الفرضي ، عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي ، تاريخ علماء الاندلس ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، مطابع سجل العرب (القاهرة ـ ١٩٦٦) ق ـ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٥
(١٨) المراكشي ، محمد بن محمد بن عبد الملك ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، السفر الثامن ، تحقيق : محمد بن شريفة ، مطبعة المعارف الجديدة (الرباط ـ ١٩٨٤ ق ٢ ص ٤٧٨
(١٩) الصلة ، جـ١ ، ص ٢٨٤
(٢٠) المصدر نفسه جـ٢ ص ٦٩١ ، الضبي ، بغية الملتمس ، ص ٥٣١
(٢١) نفح الطيب ، جـ٤ ص ١٦٦
(٢٢) احمد امين ، ظهر الاسلام ، ط٦ ، (القاهرة ـ ١٩٨٣) جـ٣ ، ص ٢٢٨ ؛ سلمى سلمان علي ، المرأة في الشعر الاندلسي (عصر الطوائف) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة المستنصرية كلية الاداب ـ بغداد (ـ ١٩٨٦) ، ص ٤٢
(٢٣) المراكشي ، السفر الثامن ، ق ٢ ص ٤٨٤
(٢٤) احمد هيكل ، الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، ط٢ دار المعارف بمصر ، (القاهرة ـ ١٩٧٠) ، ص ١٢٤
(٢٥) مجهول ، ذكر بلاد الاندلس ، ص ١٣٠ ؛ ١٤٢ ؛ بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ؛ ص ٥٧.
(٢٦) ابن بشكوال جـ٢ ص ٦٩٢ ، المغرب جـ١ ص ٦٩٠ ؛ علي المرأة في الشعر الاندلس ، ص ٢٨ ، ٢٣٩
(٢٧) ابن بشكوال جـ٢ ص ٦٩٢
(٢٨) السيوطي ، جلال الدين ، نزهة الجلساء في أشعار النساء ، تحقيق : عبد اللطيف عاشور ، مكتبة التراث (القاهرة ـ بلا تاريخ ، ص ٤٣
(٢٩) المغرب في حُلى المغرب : تحقيق : شوقي ضيف ، ط٢ ، دار المعارف بمصر ، (القاهرة ـ ١٩٦٤) جـ٢ ص ٣٧ .
(٣٠) ابن سعيد ، المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٧
(٣١) الحميدي ، ص ٤١٢ ؛ الضبي ، ص٥٢٨ ؛ ابن بشكوال جـ٢ ، ص ٦٩٤ ـ ٦٩٥
(٣٢) ابن بشكوال جـ٢ ص٦٩٥ ؛ الحميدي ، ص ٤١٢ ، الضبي ، ص٥٢٨
(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، جـ٢ ص ٦٩٤ ؛ الحميدي ص ٤١٢
(٣٤) المغرب في حُلى المغرب جـ٢ ص٣٨ ؛ بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ص٧٣
(٣٥) جودت الركابي ، في الادب الاندلسي ، ط٤ دار المعارف بمصر ص٩٨
(٣٦) الحميدي ، جذوة المقتبس ص٤١٣
(٣٧) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، ص١٣٥ ـ ١٣٦ المقري ، نفح الطيب ، جـ١ ص٤٣٧
(٣٨) ابن بشكوال ، جـ٢ ص ٦٩٦ ، الضبي ، ص٥٣٢
(٣٩) ابن بسام ، ابو الحسن علي ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، تحقيق : احسان عباس ، دار الثقافة (بيروت ـ ١٩٧٩) ، ق ١ مج ١ ص٤٢٩ ؛ المقري ، نفح الطيب ، جـ٤ ص ٢٠٨
(٤٠) ابن بشكوال ، جـ٢ ص ٦٩٦ ، الضبي ص٥٣٢
(٤١) ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣ م وهو ابو الوليد احمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي الاندلسي القرشي وهو عربي ينتمي الى قبيلة مخزوم القرشية التي ذكرها المقري بين القبائل التي رحلت الى الاندلس وذكر منها ابن زيدون وكان ابوه قاضياً في قرطبة وجيهاً ثرياً غزير العلم والادب . جودت الركابي ، في الادب الاندلسي ، ص١٦٣
(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٠
(٤٣) ابن بشكوال ، جـ٢ ص٦٩١ ، الضبي ، ص٥٣١
(٤٤) المقري ، نفح الطيب ، جـ١ ص٢٤٦
(٤٥) ابن بشكوال ، جـ٢ ص٦٩٢ ، محمد ماهر حمادة ، المكتبات في الاسلام ، ط٣ ، (بيروت ـ ١٩٨١) ، ص١٨
(٤٧) ابن الابار ، ابي عبد الله محمد بن ابي بكر ، التكملة لكتاب الصلة ، نشر وتصحيح عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة (مصر ـ ١٩٥٦) جـ١ ص٣٥٨ ؛ المراكشي ، السفر السادس ، تحقيق : احسان عباس (بيروت ـ ١٩٧٣) ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨
(٤٨) ابن الابار ، التكملة جـ١ ص٢٨١ ، ٣٥٨ ؛ المراكشي ، السفر السادس ص١٥٨
(٤٩) ابن الفرضي ، جـ١ ص٢٥٣
(٥٠) الحميدي ص٤١٢ ؛ ابن بشكوال جـ٢ ص٦٩٤ ـ ٦٩٥ ؛ الضبي ، ص٢٥٨ .
(٥١) ابن بشكوال ، الصلة جـ٢ ص ٦٩٣ ؛ الحميدي ، ص٤١٢
(٥٢) ابن بشكوال ، جـ٢ ص ٦٩٢ ؛ الضبي ص ٥٣١ ؛ المراكشي ، السفر الثامن ق٢ ص٤٩٢
(٥٣) ابن بشكوال ، جـ٢ ص٦٩٢ ؛ الضبي ص٥٣٠ ؛ المراكشي ، السفر الثامن ، ق٢ ص٤٩٢ .
(٥٤) المراكشي ، السفر الثامن ، ق٢ ص٤٨٥
(٥٥) ابن بشكوال ، جـ٢ ص٦٩٤

*

ملف المرأة

لعبة الوهم والحقيقة :

دلالات الرمز الإنثوي في شعر المعري

د . نادية غازي العزاوي

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

المدخل : أشتات

• (وحدانية الخالق إزاء ثنائية المخلوق) مقولة جوهرية التقت عندها الأديان وأغلب العقائد والحضارات على هذه الأرض تعبيراً عن كمال الخالق (الواحد الأوحد) ونقص المخلوق المبتلى بمحنة انشطاره ذكراً وأنثى وتشتت طاقاته بينهما والمغزى لذلك بالبحث الوجودي عن شقه الآخر المتمم والمكمل له، مما أسفر على مر العصور عن حكايات وقصص متجددة ومتشابهة أحياناً في مضامينها وإن اختلفت الأسماء والأشكال : (آدم وحواء) ، (تموز وعشتار) ، (أوزيس وايزيس) ، (روميو وجولييت) ، (انطونيو وكليوباترا) ، (قيس وليلى) ... الخ ، حكايات أبقتها ذاكرة الزمن للأجيال أمثلة حية لرحلة المخلوق المحتجة في تحدي نقصه ومقاومة ضعفه للاقتراب من الكمال .

• أدى الصراع من اجل العيش في الصحراء القاحلة الى تعظيم معاني القوة الجسديّة والجلد والشدّة والقدرة على الاحتمال ، فكانت (الذكورة) عند العرب القوة المهيمنة على الفكر والسلوك في سياقات الحياة المختلفة ، وانبثقت (الفحولة) تعبيراً طبيعياً عن هذه الهيمنة وعلى مستويات مختلفة : الفحل من الجمال ، والفحل من الشعراء ، واستقرت (الفحولة) يوحي من ذلك مصطلحاً نقدياً بمعطيات فنية مخصوصة تُبوّيء صاحبها مكاناً سامقاً في سلم الإبداع ، ووسموا الاشياء بطوابع ولوازم (ذكريّة) تفخيماً لها[1] ، فوصف كعب بن زهير الصحراء بقوله :

وصـــرمـــــاء مـــــذكــــار كـــانّ دويّـهـــا
بُعيـد جَـلـان اللـيـل متـا يخيّـلُ[2]

وزهو (مزرّد) بقصيدته سوّغ له تذكيرها في قوله :

مـــــذكّـــــرة تلقى كثيـــراً رواتهـــا
ضـواحٍ لهـا في كـلّ أرضٍ أزامـلُ[3]

وتحددت مكانة الفرد الاجتماعية في المجتمع بهويته القبلية التي تشكلها أنساب الاباء والاجداد .

ولكن تلك الهيمنة لم تلغِ (الانوثة) ولم تهمش تجلياتها في جوانب متنوعة من الحياة آنذاك ومهمة كالانساب ـ مثلاً ـ فمع سيادة النسب الابوي عرف المجتمع الجاهلي والإسلامي ظاهرة لها جذورها التاريخية الموغلة في القدم[1] أوجدتها إفرازات الواقع الإجتماعي ومشكلاته ؛ (الرقّ ، الحروب ، السبيّ ... الخ) هي (النسب الى الأمّ) وكانعكاس لها ظهر في بعض كتب التراجم باب (مَنْ نسب الى أمه من الشعراء)[4] ـ مثلاً ـ .

ولم يحل وصف (الصحراء) بطوابع ذكرية دون دوران الاسماء والنعوت المعززة لمعنى (الانوثة) فيها في اشعارهم وخطبهم : (الفلاة ، الموماة ، التيهاء ، التنوفة ، البيهماء ... الخ) ، وإذا بدت القصيدة عند شاعرٍ (مذكرة) فان القرون اللاحقة شهدت ولادة رؤىً مغايرة تلوّح ضمناً او تصرح بأنوثة الشعر ، كقول أبي تمام :

والشعـــر فـــرج ليستْ خصيصتـــه
طـــول الليـــالي الّا لمفتـــرِعـــةْ[٦]

وبلغ من حضور (الانوثة) أنها تمكنت من النفاذ الى زوايا قد تبدو وقفاً على (الذكورة) مثل (الحرب) لعبة الرجال الدموية العاتية ، فقد تسللت ملامحها وطوابعها الى لغة الشعراء الفرسان وداخلت استعاراتهم وتشبيهاتهم :

ولقـــد ذكـــرتُـــكِ والـــرمـــاحُ نـــواهـــلُ
منّي وبيضُ الهنـــدِ تقطـــرُ من دمي
فـــوددتُ تقبيـــل السيـــوفِ لانهـــا
لمعتْ كبـــارقِ ثغـــركِ المتبسم

واكتست صورهم بوحي منها حللًا شفيفة مزجت رموز الحرب بالحب :

شجـــاع كـــأنّ الحـــربَ عـــاشقـــة لـــه
إذا زارهـــا فـــدتـــه بـــالخيـــل والـــرَّجْـــلِ[٧]

● وقد تبدو (اللغة) من الخارج مستقلة بقوانينها الداخلية النحوية والصرفية ولكنها في الحقيقة لا تتحرك بمنأىً عن إسقاطات معتقدات البشر واساليب تفكيرهم عليها ، وهكذا انسحبت المساجلات (الذكرية / الانثوية) على قوانين اللغة ، فاكدت بعض صيغ (التغليب) السماعية ـ مثلًا ـ قوة الذكورة ، حيث يقضي اجتماع اسمين : مذكر (القمر مثلًا) ومؤنث (الشمس) بتغليب الاول على الثاني في التثنية اي (قمران)[٨] ، ومثلها الشمس والقمر (يخسفان) بتغليب (الخسوف) على (الكسوف)[٩] . ولان الذكورة من الوجهة اللغوية هي الاصل والتانيث فرع عليها احتيج الى تمييز المؤنث بعلامات فارقة تميزه : (التاء والالف المقصورة والممدودة) بينما تحرر المذكر من ذلك[١٠] ، ولكن الادوار بينهما تبقى مع ذلك سجالًا في اللغة كما في الطبيعة والحياة ، فثمة اساليب في اللغة رجحت ميزان الانوثة وابرزت تاثيرها او انتصفت لها في الاقل ، منها ـ مثلًا ـ : ما جاء في باب (الممنوع من الصرف) ، فالعلمية والتانيث في الاسم تكفيان لمنعه من الصرف ـ الا ما كان ثلاثياً ـ ، ومجيء الاسم مختوماً بالف تانيث ممدودة او مقصورة كافياً لتحقيقه ايضاً ، بينما تقصر العلمية والذكورة وحدها عن ذلك[١١] ، وبالمقابل تساوي (صيغ المبالغة) بين الطرفين على وجه من وجوه العدالة[١٢] .

● من عزلته الذاتية حاول المعري حسم هذه القضية الشائكة برؤية متاملة ومتدبرة قادته الى قناعة بالمساواة بين ذكورية الكون وانثويته :

للمليـــك المـــذكـــراتُ عبيـــدٌ
وكـــذاك المـــؤنثـــات إمـــاءُ
فـــالهـــلال المنيفُ والبـــدر والفـــرقـــدُ
(م) والصبـــحُ والثـــرى والمـــاءُ
والثـــريـــا والشمسُ والنـــارُ والنثـــرة
(م) والارض والضحى والسمـــاء[١٣]
(ل : ١ / ٥٧) .

في الشطار منهل توازناً وتضاداً حيث تتطابق العناصر مع اضدادها : (العبد / الامة) ، (البدر / الشمس) ، (الفرقد / الثريا) ، (الماء / النار) ، (الصبح / الضحى) ، وتنقاد جميعاً لتبعيه مطلقة اقرها توظيفه البارع لـ(لام التملك) في مفتتح البيت الاول :

(للمليك .....) ، منتهياً عوداً على بدء الى الحقيقة الازلية : (وحدانية الخالق وثنائية المخلوق) .

البحث عن البديل :

- ١ -

لعل ابرز ما يشد القارىء الى شعر المعري الروح العبثية الحرة والمتمردة فيه : في تعامله مع اللغة واسلوب تشكيله للالفاظ والتراكيب ، وفي وعيه المخترق للاعماق وفي تحطيمه لسكونية الرؤى التقليدية المتخثرة وفي تشكيكه بالثوابت والحدود الفاصلة بين القيم : (الخير والشر) ، (السواد والبياض) ، (الحزن والفرح) ، (الخطأ والصواب) ... الخ على نحو تتداخل الاوراق وتختلط فيه :

- ويصيـــرُ الاقـــوامِ مثلي أعمى
فهلمّوا في حِندِسٍ نتصادمْ (ل : ٢ / ٤٨٨)
- خمســـون قـــد عشتُهـــا فـــلا تمشِ
والنعشُ لفظ من قولك انتعشِ (ل : ٢ / ٧٨)
- وجُـــزمٍ في الحقيقـــة مثـــلُ جِســـرٍ
ولكنّ الحروفَ به عُكِسَتْ (ل : ٢ / ٥٢٥)

من تجليات رؤيته المولعة بقلب الصور وعكس الموازين واستبدالها[١٤] موقفه من (الانوثة) مفهوماً وواقعاً ، نظرية وتطبيقاً .

. تقودنا القراءة الاولى في رصدها الخارجي لهذه الظاهرة في شعره الى تصور قاصر قد لا يغطي اجزاء الصورة كاملةً ، وهو ما سبق ان انساق اليه اغلب دارسيه حيث شخّصوا رفضه للمرأة وبغضه وعداءه لها على المستويين : الحياتي والإبداعي ، وكادوا ان يتفقوا في تحديدهم لاسباب هذا الرفض على ثلاثة جوانب رئيسة :

١ ـ جانب فكري يتعلق برفضه العام لمطلق الوجود والتحرق الى راحة العدم ، الامر الذي قاده الى الإعراض عن المرأة

بوصفها رمزاً لديمومة الحياة واستمرارها .

٢ ـ جانب اجتماعيّ يمثّل رد فعل على شيوع النمط النسوي المبتذل بتأثير الترديّ والانحطاط في القيم الاخلاقية في مجتمع القرنين : الرابع والخامس الهجريين .

٣ ـ جانب نفسي يتعلق باخفاقة في تجربة حب شخصية افقدته الثقة بالمرأة ودفعته الى الا[illegible] بها[15] .

على اننا يمكن ان نمتز في عدائه لها ثلاثة مواقف متلازمة ومنبثقة عن بعضها بمؤشرات تحولية وتراجعية ـ اذا صح التعبير ـ لانها تبدأ من الرفض الكلي لتنتهي الى القبول والتسليم وعلى النحو التالي :

١ ـ موقف مبدئي رافض لاصل وجودها وكينونتها جزءاً من فلسفته من رفض الوجود وتوخّي العدم[16] ـ كما سبق :

بـــدءُ السعـــادة أنْ لم تخلقِ أمـــرأة
فهل تودّ جمادى أنها رَجَبُ (ل : ١ / ٩١)

٢ ـ موقف واقعيّ يعي استحالة القضاء على وجودها ، ولذلك يتحايل في الالتفاف عليها بتجميد فاعليتها وتغييبها بالحجب والإقصاء او بمعنى اخر تعجيل موتها معنوياً :

إذا احتـــوى الـــريمُ على رمـــامهـــا
لـــزومهـــا البيث مـــع اهتمـــامهـــا
حتى يجيهـــا الـــوفـــدُ من جمـــامهـــا
وخلهـــا المغـــزلَ في إتمـــامهـــا
اوفى بمـــا تعقـــد من نمـــامهـــا . (ل : ٢ / ٤٧١)

وحبذ ـ تحت ذرائع معينة ـ وأدها ودفنها[17] ، كقوله :

ودَفْن والحـــوادثُ فـــاجعـــاتٌ
لإحداهنّ إحدى المكرمات . (ل : ١ / ٢٣٣)

وقوله :

ودفنُ الغـــانيـــاتِ لهنّ اوفى
من الكِلَلِ المنيعةِ والخدور (ل : ١ / ٥٥٧)

او بالتنفير من مفاتنها ومسخ ادميتها صوراً حيوانية كريهة وقد لوحظ في هذا الاتجاه تكرار اقتران صورة المرأة في شعره برموز حيوانية معينة عمّق الوعي الاسطوريّ دلالاتها على الفتك والخديعة ، كقوله :

وإنّمـــا الخـــودُ في مســـاربهـــا
كـــريّـــة الشمّ في تســـربهـــا
فـــلا تكـــوني مثـــل التي لـــدغتْ
تبدأ في شرّها باقربها . (ل : ١ / ١٧٦)

وقوله :

عـــروسُـــك افعى فهبْ قـــربهـــا
وخفْ من سليلك فهو الخنَش . (ل : ٢ / ٨١)

وقوله :

جـــذْرُ العـــروسِ وان كـــانت محبّبـــةً
ادهى وأفتـــك من عِـــرّيســـةِ الأسد . (ل : ١ / ٣٧٥)

وقد أباح حتى الإخصاء سبيلًا الى إيقاف الحياة داخلها وبالضدّ من قوانين الطبيعة والشرائع :

خصـــاؤك خيـــر من زواجـــك حـــرّةً
فكيف إذا أصبحت زوجـــاً لمـــومسِ . (ل : ٢ / ٤٢)

وكثّف في رسم مسوخه النسويّة تلك استخدام التقنيات الإسلوبية التي يجيدها ومنها : الجناس والتلاعب بالصيغ الاشتقاقية والتوظيف التناصيّ للآيات القرآنية على نحوٍ يصرف فيه دلالاتها من وجهة الى اخرى . كقوله :

إنْ صـــحّ عقلُـــك فـــالتفـــرّد نعمـــة
ونـــوى الاوانس غـــايـــةُ الإينـــاس
أبلسْتُ من وســـواسِ خلْقٍ خِلْتُـــهُ
إبليس وســـوسَ في صـــدورِ النـــاسِ
مـــا شِمْتُ من شمّـــاء قبلُ وهـــل نـــاتْ
خنساءُ عن شيطانها الخنّاسِ . (ل : ٢ / ٦١)

٣ ـ القبول بها عقيماً غير قادرة على فعل (الإنجاب) لان « العقم وجه من وجوه العدم »[18] :

إنْ شئت يـــومـــاً وصلـــةً بقـــرينـــةٍ
فخيرُ نساء العالمين عقيمها . (ل : ٢ / ٣٩١)

وبما يشبه الرخصة أباحها على وجه من الاضطرار والاستثناء الذي لا يلغي القاعدة ولكن يؤكّدها لانّها حالات محدودة ومحكومة بظروف قسريّة توجّهها ، بينما ظلت امانيه العدميّة المفضّلة تتردّد اصداؤها في جنبات شعره :

كـــوني الثـــريـــا أو حضـــارِ او الجـــوزاء
(م) او كـــالشمسِ لا تلـــدُ
فلتلـــك اشـــرفُ من مـــؤنثـــةٍ
نجلت فضاق بنسلها البلدُ . (ل : ١ / ٢٤٣)

ـ ٢ ـ

كلّ ما تقدم يمثل حصيلة القراءة الاولى ، اما القراءات التالية المتمعّنة فيمكنها ان تهدينا الى تصور جديد ومنظور اخر مخالف تماماً للرأي المعروف والسائد ، لاننا بدءاً سنتميّز في شعره عدة مستويات من التعامل مع الانثى وليس موقفاً واحداً موحداً كما يظن وثمة أنماط مختلفة للانوثة فيه تتوزع على محورين : انوثة حقيقية في الكائنات الحية ، وانوثة متوهمة في الجماد

وما لا يعقل من ظواهر الطبيعة .

وكأنه إذ افتقد حواءه في البشر راح يتلمس اخرى بديلة في مظاهر الطبيعة والكون كي تبدد عذاباته وتؤنس وحشته ، ولهذا تجده يستلب من الاولى نقمةً وغضباً اخصّ صفاتها من الخصوبة وديمومة الحياة وجمالية المظهر ويهبها عن طيب خاطر الى أنثاه الاخرى .

واذا ما تجسمت حواء البشرية امامه امثولة للمفاسد والشرور غالباً فانه ادخر لأنثاه الوهمية ما يهيئها لان تقوم بالضد من ذلك أنموذجاً للخير والوفاء وعلى نحو يشي بمرارة دفينة وراء الكلمات . وتقدم في هذا المضمار نصوصه النثرة في (ديوان الالغاز) مادة دسمة ، فقد الغز عن (العصا) - مثلاً - بالقول :

وحـــاملـــةٍ تقـــلّ الخليـــل وإنّهـــا
لـــذات اغتـــرابٍ غيـــرهـــا من يُنـــاسبُـــه
وليست لـــــه عِـــــرْســـــاً ولا هي قينـــــة
يســـراهـــا ولكن أوتيَ الحظّ صـــاحبـــه
تُـــــرافقـــــه في دهـــــره لا تملـــــه
اذا مَلّـه إخـوانُـــهُ واقـارِبُـــه . (غ : ٤٩)

وقد هداه حس الموازنة المستتر في عقله الواعي والباطن بين (الانثيين) الى ان يظفر بتفصيلات مثيرة تجمع او تميز بينهما مُرجحاً دائماً كفة انثاه المتخيرة ، كما في لغز (الغضارة) - طبق الطعام - :

مـــدورة خضـــراء يُغـــرى بهـــا الفتى
غـــذاهـــا النـــدى من قبـــل ذلـــك والنـــار
منـــاسبـــة حـــواء في أنْ جسمهـــا
تـــراب ومـــاء والخـــلائق اطـــوار
وحـــواءُ كـــانت في الجنـــان فـــاخرجت
وعهدي بهذي والجحيم لها دار . (غ : ٦٣، ٦٤)

تبدأ الموازنة الشعرية بين (الانثيين) في هذا النص اولًا من معطيات الشكل الخارجي ومن قسمات الجسد تحديداً ، فتثبت للغضارة قبل كل شيء سمة الاستدارة (مدورة) وليس ذلك غريباً في ظني لان التكور مَعْلم اساسي في تاريخ جسدية المرأة منذ ان جسمه الوعي البدائي للانسان في منحوتات طينية وحجرية انثوية مبالغ في نسب اجزائها لدلالات معينة ، ثم اكده الوعي الشعري بعد ذلك في قصائد غزلية حاولت الارتقاء بتفصيلات جسد الحبيبة من مستوى الواقع الى المثال ، وبدءاً من امرىء القيس الذي اشر الخطوط الاولى في شعرية هذا التكور وانفتاحه على ظواهر الطبيعة ، كقوله :

وكشـــحٍ لطيفٍ كـــالجـــديـــل مخصـــر
وســـاقٍ كـــانبـــوب السقي المـــذَلَّلِ[19]

وقوله :

كحِقْفِ النقـــا يمشي الـــوليـــدان فـــوقـــه
بمـــا احتسبا من لين مس وتسهـــالِ[20]

وتوالت خطوط الشعراء بعده تعمق هذا الجانب في استطرادات تفصيلية اوضح :

وامتـــدّ من أعضـــائهـــا قصب
فعم تلتـــــــقـــــهُ مـــــــرافق نُزُرُ
وبصـــــدرهـــا حُقـــان خِلْتُهمـــا
كـــافـــورتين عـــلاهمـــا نُـــدُ
والتف فخـــذاهـــا وفـــوقهمـــا
كفـــل يجـــاذب خصـــرهـــا نهـــدُ
والســـاق خُـــرْعبـــة ملمـــة
عبلت فطـــوق الحِجْـــلِ مُنْســـدُّ[21]

ولكن المعري لم يكتف لغضارته بالتكور بل رفدها بما عزز (الانوثة) فيها : بالخصوبة (خضراء) وبالقدرة على الغواية (يغرى بها الفتى) ، وخص تكوين جسدها بتركيبة وجودية عجيبة في تضاد عناصرها (النار والماء) في قوله : (غذاها الندى من قبل ذلك والنار) ، واذا كان الماء والتراب رمزين لما هو ارضي وآدمي ودنيوي ، فان النار والنور ظلا مرتبطين في معتقدات الإنسان بالمخلوقات السماوية غير المرئية ، وكان العناصر الارضية والسماوية قد تضافرتا معاً على خلق انثاه (الانموذج والمثال) .

ثم تتدرج الموازنة من :

الخارجي (ملامح الجسد ، التكوين ، التركيب) الى الداخلي (الروحي والمعنوي الذي تتضمنه عبارته « الخلائق اطوار ») ثم اخيراً وحدة المصير وفجيعة النهاية الجامعة بينهما : الطرد من الجنة بالنسبة الى (حواء آدم) ، وسكنى الجحيم بالنسبة الى (حواء المعري) .

وكما يتضح فان مسار الموازنة مر بثلاثة تحولات :

من التشابه : (الشبه في الجسد) الى الاختلاف : (التركيب والدواخل النفسية والمعنوية) ثم الى التشابه ثانية حيث (وحدة الموت) ، وهي تحولات سوغتها رغبة الشاعر في ان يحقق لانثاه واقعيتها من جهة باقترانها بالانثى البشرية في الشكل والمصير ، وان يحقق لها من جهة ثانية تميزها وتفوقها على نظيرتها البشرية المبغضة اليه بان يفردها (اي انثاه) بنقاء السريرة والطوية .

يرتبط الغياب الكامل للوصف الحسي للمرأة عن شعر المعري بما ذكرناه من إعراضه المبدئي عن ملذات الحياة وزهده فيها ولكن ما يثير التساؤل مجدداً ويستدعي تفسيراً جديداً ان تستيقظ تلك المفاتن والمباهج المغيبة مع انثاه الموهومة في نزوع

تعويضي أشبع من خلاله جوع الحرمان والقهر الذي عاناه في صراع محموم في اعماقه بين حب غريزي مقبل على (الحياة / المرأة) وبين نفور متولد عن قسوة تحكيمه للمعايير العقلانية[٢٢] فيها ، والتي لم يحل تشددها وإحكام قبضتها دون انفلات بعض الصور النزقة من الوصف الشهواني والمتحررة من كل ما بدا محظوراً داخل دائرة الرقابة العقلية ، فقد الغز عن (الملح) بقوله :

وبيضـــاء من ســـرِّ الصـــلاح ملكتُهـــا
فلمـــا قضت إربي حبـــوت بهـــا صحبي
فبـــاتـــوا بهـــا مستمتعين ولم تـــزل
تحتهم بعد الطعام على الشرب . (غ : ٤١)

تتبتق اسئلة القراءة مع هذه النصوص بعد إقصاء الاراء التي تعول في تفسير الظواهر على المصادفة سواء في اختيار (الانوثة) للملح ام في رص الكنايات داخل النص بتتابع ملحوظ : (ملكتها) ، (قضت اربي) ، (فباتوا بها) ، وان تضمنت بعض تلك الكنايات قيماً اخلاقية مرفوضة ومدانة كفكرة (الانثى المشاعة) في قوله : (حبوت بها صحبي) ، ثم استكمال مشهد المحظورات بذكر فعل (الشرب) في استخدام مزدوج وَرّى به عن شرب الماء وأومأ به من جهة ثانية الى شرب (الخمرة) ثالث ثلاث انثوي (الدنيا ، المرأة ، الخمرة) صب المعري عليه لعنته وغضبه في اكثر من قصيدة وبتتابع ملحوظ[٢٣] ، ولكن فعل شربها هذا اي الخمرة وضمن الجو الإباحي الوهمي قد غدا مستطاباً بدلالة معاني الإغراء على المشاركة التي ينطوي عليها الفعل (حثّ) .

والغز عن (النار) بصورة (العري) والعري الدائم في رؤية مجونية تتقاطع وقمعيته في حجب المرأة وعزلها :

زهـــراء احسنُ مـــا كـــانت اذا عـــريتْ
فما يُخاط عليها الدهر جِلبابُ (غ : ٤٦)

وتلحّ عليه موضوعة (العري) ثانية وفي نص يلغز به هذه المرة عن (اللحية) ومن خلال توريات تجسد الطابع الحسي لهذا اللغز :

ومـــا استتـــرت عمـــا رآهـــا بمئـــزرٍ
ولا صـــدهـــا عن تلـــك الفعـــل مسلمُ
وتغـــدو اذا بـــاشـــرت اهلـــك واجبـــاً
عليها اغتسال وهي في الحق أيِّمُ (غ : ١٠٢)

ويبارك لانثاه في احدى النصوص اللغزية قدرتها على تحدي فعل الزمن وتاثيره فيها ، فجعل شباك غوايتها قادرة على استدراج الرجال مطلقاً (الفتى والكهل) منهم ، كما في قوله عن (المحبرة) :

مـــؤنثـــة فيهـــا مـــآربُ للفتى
وللكهل تُكسى وهي بالعري تقنع . (غ : ٨٠)

واعاد الصورة ثانية في نص اخر عن (رقاقة الخبز) :

لهـــا من هـــوى الشيـــخ الكبير نصيبهـــا
ولم يقلهـــا خلقاً صبـــاً وشبـــاب (غ : ٤٩)

وتكررت الإشارات الكنائية التي تترشح منها دلالات جنسية معينة في نصوص اخرى بدا فيها وكأنه قد اطلق العنان لغريزته لان تتدفق في افعال وصفات وحالات مخصوصة ، فقد الغز عن (النعل) مثلاً بالقول :

وقـــد حملتني في هـــزيـــعٍ من الـــدجى
على صدرها حتى ظفرتُ بمطلبي (غ : ٤٧)

فـ (الهزيع) ، و (على صدرها) ، و (ظفرت بمطلبي) تصب جميعاً في هذا الاتجاه ، ويلاحظ على هذه النصوص تاكيدها لحالة امتلاكه لانثاه سواء بالتصريح بالفعل او مرادفاته : (سبيتها) (شربتها) ... الخ ، كقوله في (نحلة) :

وبيضـــاء من حـــور الجنـــان سبيتُهـــا
ولمتُ عليها صاحبي ولي العذر (غ : ٦٠)

والغز عن (حلقة الباب) بـ :

ويلمسهـــا من كـــان طـــالبَ حـــاجـــةٍ
ويكره في غير المـــآرب لمسُها (غ : ٧٣)

وبلغة احتفائية وحسية مشيوبة الغز عن (القمح) بقوله :

فـــاهـــلاً ببيلتي لم تـــردْ يـــد لامس
بسوء ولا ابدت نفاراً من اللمس (غ : ١٢١)

وتلوح في تركيزه على فعل (الملامسة) في هذه النصوص واخرى غيرها بعض انعكاسات تاثيرها في حياة (الاعمى) التي تمده بمتعتين معاً : القدرة على الكشف فهو يستكشف الكون من حوله من خلال اللمس ، والإحساس باللذة ، فلا عجب ان يتردد ذكرها في شعره ، وصف الدرع في احدى درعياته بقوله :

حَصَـــان بغيٌّ مـــا تنثُ يـــد لامسٍ
ذكت واحسُّ القُـــرُّ فيهـــا اللـــوامسُ
كـــأن صبيَّ البيض ان شـــاء مسُّهـــا
صبي أناسٍ عضه الفقر بائس (س : ٢٣٤ ، ٢٣٦)

فالجمع بين (الإنكاء) ـ اقصى الاحتراق ـ وبين القرورة المتولدة عن اللمس يقتحبنا الى الثنائية ذاتها المالوفة في قصائد الغزل : لواعج المحبين المشتعلة وبرودة رضاب الحبيبة وملمسها[٢٤] ، وقد كرس الجمع بين التورية والجناس في الكلمات : (الحصان) ، (البغي) ، (اللامس) ، (الصبي : الفتى من

الناس ، وما دون ظبة السيوف) الملامح الانثوية التي اضفاها على الدرع [٢٥] ، واغراء الامر بمحاولات مماثلة فاتت السراب في الصحراء ، بقوله :

وجبت سرابياً كأنْ إكسامه
جوارٍ ولكن مالهن نهود (ل : ١ / ٣١٤)

وتوهم الانوثة في صورة (افراس) في معركة خلخل الحدود القائمة في مخيلته بين الحرب والسلم ، فبدت له المعركة عرساً من نوع خاص :

مثل العرائس ما انثنت من غارةٍ
الا مخضبة السنابك بالدم (س : ٤٠)

وهي لقطة استعادها ثانية ولكن بتشكيل عكسي لعناصرها (العرس / المعركة) وباستثمار ذكي لايحاءات الظواهر الطبيعية وفي نفس وصفي تصاعدي يصل الى الذروة حين تتداخل لحظة الحب بالحرب ، وبايماءات لا تخفى :

زُفت الى داركَ شمسُ الضحى
وحولها من شمعٍ أنجمُ
لم يزل الليلُ مقيماً يسرى
ما لا رأت عاذٌ ولا جُرهمُ
في ساعةٍ هشتْ الى مثلها
مكة وارتاحت لها زمزمُ
للطيب في جنبيها سَوْرة
متاخر البدر به تُفغمُ
حتى بدا الفجرُ به حمرة
كصارمٍ غير منه الدم (س : ٩٥ - ٩٧) .

وكثيراً ما غامرت تاملاته في اختراق عالم الافلاك العصية بعلوها على تكهنات الانسان وظنونه ، فتوهمت فيها شخوصاً ذكرية وانثوية ، وسحبت ظواهر الحياة الادمية عليها ، مؤكدة في اكثر من موضع وبشكل ملح على اقتران الذكر بالانثى في علاقات عاطفية سوية تتحرك بعيداً تماماً عن العزلة في تجربته :

لعلْ شهيلاً وهو فحل كواكب
تزوج بنتاً للسِّماك على مَهْرٍ (ل : ١ / ٥١٩)

وبتساؤلات تتحرى المزيد من تفصيلات تلك العلاقات وخطواتها : مغازلة ولهواً وحباً ، كقوله :

أمْ هل لانثاها الحصان بذي التذكير
(م) من قربى ومن صِهْرِ
أم يخطب العوّا انسماك ويعطيها
(م) الذي ترضاه من مهرٍ (ل : ١ / ٥٩٦)

وكقوله :

اترى الهلال وليس فيه مظنة
يصبو الى جوزائه ويغازل
ايقنت من قبل النهى أنْ السهى
ساهٍ يُضاحك جاره ويهازل (ل : ٢ / ٢٧٤)

● من جهة ثانية تكاد لا تجتمع في شعره أطوار تجربة الحب ومراحله المختلفة من لوعة واشتياق واسترضاء ونفور وبذل وجفاء ، على درجة من العنف إلّا في تجربته مع الدنيا :

نحن البريةُ امسى كلُّنا دنفاً
يحبُ دنياه حباً فوق ما يجب (ل : ١ / ٩٢)

التي تتلبّس دائماً هيأة الانثى المعشوقة تحاصر خيالاتها وطيوفها العاشق في حالاته المختلفة :

العقلُ إنْ يضعف يكن صبَّ هذه
(م) الدنيا كعاشق مومسٍ تغويه
او يقوَ فهي له كحرة عاقلٍ
حسناء يهواها ولا تهويه (ل : ٢ / ٦٣٣)

وبتفان عشقي خالص يسمو على اية اعتبارات نفعية يمكننا ان تشين هذه الحالة المخصوصة من (العشق لذات العشق) في صوفية من نوع خاص تطوح باصحابها الى نهايات مهلكة : موتاً او جنوناً او قتلاً :

لقد غلرت الدنيا بنيها بمنقها
وإنْ سمحوا من ودها بصريح
أليلى وكلُّ اصبح ابن ملوحٍ
وليلى وما فينا سوى ابن ذريح
وفي كل حين يونس القوم آية
بشخص قتيلٍ او بشخص جريح (ل : ١ / ٢٩٧)

وبانجذاب كلي اليها وغياب عما حولها حتى لتبدو هذه الانثى عند عشاقها ـ فقيرهم وغنيهم ، ناسكهم وماجنهم ـ الوسيلة والغاية معاً ، وكلّ يمارس عشقه معها من زاويته ويسلك للوصول اليها واسترضائها طريقه الخاص وهي متمنعة ومتابية لا تتكشف حجُبها الا لانداها :

هويتْ ولم تسعف وراح غنيها
تعباً وفاز براحةٍ فقراؤها
وتجاهلت فقهاؤها من حبها
وتقرأت لتنالها قراؤها
واذا زجرت النفس عن شغف بها
فكان زجر غويها إغراؤها (ل : ١ / ٥٥)

وهم إذ يدركون خداعها وغدرها ويعون حقيقة المصير المر الذي تجرهم اليه لا يملكون الا التضحية والبذل لها (واي عشق باختيار ؟) :

ولم تفتأ الدنيا تغر خليلها
وتبدله من غمض اجفانه سهدا
تريه الدجى في هيئة النور خدعة
وتطعمه صاباً فيحسبه شهدا
وقد حملته فوق نعشي وطالما
سرى فوق عنسٍ او علا فرساً نهدا
ولم تترك من حيلة لتغره
ولم يبقِ في اخلاصه حبها جهدا (ل : ١ / ٣٤٨)

ولا تخلو تجربته في التمثّل الانثوي للدنيا من إشارات حسية ايضا تدور حول الوصف الجسدي جزءاً متمماً لطقوس هذا العشق ، كقوله :

وكأنما الدنيا كعاب أيْنَا
رجّى لها صلة فذاك يسار (ل : ١ / ٤٥٠)

فالطابع الحسي يغلب على الجو العام للبيت من جانبين : الاول : (الدنيا / المعشوقة) وقد ميزها هنا بسمة معينة تحيل على دلالات جسدية واضحة (كعاب) اي التي نهد ثديها إشارة الى فوران شبابها وتألقه ، والثاني : (العاشق / يسار) اي يسار العبد او يسار النساء في تسمية ثانية ، وقد « كان عبداً اسود يرعى لاهله إبلاً ... وكان لمولى يسار بنت ، فمرت يوماً بإبله وهي ترتع في روض معشب ، فجاء يسار بعلبة لبن فسقاها وكان افحج الرجلين فنظرت الى فحجه فتبسمت ثم شربت وجزته خيراً ، فانعنق فرحاً حتى اتى العبد الراعي وقص عليه القصة ، وذكر له فرحها وتبسمها فقال له صاحبه : ... إياك وبنات الاحرار ، فقال : ضحكتْ إليّ ضحكةً لا أخيبها ، يقول : ضحكت ضحكة ثم قام الى علبة فملأها واتى بها ابنة مولاه فنبهها فشربت ثم اضطجعت وجلس العبد حذاءها فقالت : ما جاء بك ؟ ... قال : ضحكك الذي ضحكتِ اليّ ، فقالت : حياك الله وقامت الى سفط لها فاخرجت منه بخوراً ودهناً وتممت الى موسى ودعت بمجمرة وقالت له : إن ريحك ريح الإبل وهذا دهن طيب فوضعت البخور تحته وطأطأت كأنها تصلح البخور واخذت مذاكيره وقطعتها بالموسى ثم شمته الدهن فسلتت أنفه وأذنيه وتركته »[٢٦] .

كما تقدم فإن ذاكرة الامثال في تراثنا احتفظت ليسار بصورة مركبة من حالات متنافرة او متقاطعة تستدر شفقة القارىء ، حيث تجتمع البلاهة بالخديعة ، والبراءة بالشهوانية المحمومة ، والرغبة في كسر القيود الطبقية المقيتة من خلال تجربة حب ، وقمع الواقع السلطوي لمثل تلك الاندفاعات قمعاً تعسفياً اجهض مشروع الحب وانتهى به الى الفشل الذريع والخيبة ، تماماً كخيبة المعري مع عاشقته الدنيا .

- ٣ -

أشار الباحثون الى خصوصية موقع (الام) في حياة المعري وشعره ، ووجدوا في موقفه منها خروجاً على موقفه العام بازاء المرأة[٢٧] ، وكأنه بنى لها « صرحاً هائلاً من الحب بمنأى عن عقلانيته ... وجمع كل ما عساه ان يصدر عن جنس المرأة من خير ثم ركزه واسبغه على ذات امه ..... [وضرب] صفحاً عن كينونتها النسوية »[٢٨] وربط اغلبهم بين عزلته وبين موتها بدلالة تلاحق زمن الحادثتين ، ولا ادل على عظم موقعها عنده من احاسيسه الملتاعة التي تفيض بها مراثيه لها الى حد التصريح بما قد لا يجرؤ رجل اخر على البوح به ، مبيحاً لرواسب الطفولة المبكرة لان تطفو صورها على سطح النص :

- مضت وقد اكتهلتُ فخلتُ أني
رضيع ما بلغتُ مدى الفطام
كفاني ريّها من كل ريّ
الى أنْ كدتُ أحسبُ في النعام (س : ١٦٦ - ١٧٠) .

وكقوله :

مضت . وكأني مُرضع وقد ارتقت
بي السنُّ حتى شكلُ فوديّ اشكالُ (س : ١٩٢) .

وسما في لحظة استذكار معينة بتعلّق (الرضيع / الكهل) بالأم الى مستوى (الغرام) في قوله ملغزاً عن (الثديين) - اختيار الثديين بحدّ ذاته يعدّ مؤشراً - :

عزيزين محمولين ما بقيا معاً
وكنتُ بها حيناً من الدهر مُغرما (غ : ١٠٠) .

وعزا الشاعر تعلّقه بها الى حمايتها التي احتوت ضعفه وعجزه ومخاوفه وهواجسه المتوفزة من (الاخرين / الجحيم) فكانت درعه الحصين وجداره ، وقد صرّح بذلك في أبياته التي كتبها الى ابن أخيه ممتّناً :

اعبد الله ما أسدى جميلاً
نظير جميل فعلك غيرُ أمي
سقتني درّها وذعَتْ وباتتْ
تعوّذني وتقرأ او تسمّي
هممتُ بأن تجنّبني الرزايا
فرمت وقايتي من كل همّ[٢٩]

ومن الطبيعيّ وقد فقدها ان ينطلق في البحث عن دروع اخرى يتوارى خلفها ، فكانت العزلة أول تلك الدروع . ولكن الدارسين لم يخرجوا - فيما أعلم - في رصدهم لهذا الجانب من

دائرة الشخصيّ او الخاصّ الى دائرة العام واعني انّهم لم يلحظوا ان إحساس الشاعر المرهف بالأمومة ولهفته اليها قادته الى ان يكتشف في مظاهر الطبيعة والحياة ضروباً رمزية من الامومة التي فقدها في الواقع ، فاستشعر في (الارض) ـ مثلاً ـ نبض الامومة التي تشدّه اليها بما تمنحه إياه من طمانينة الرقاد في احضانها :

أهـــال من الثـــرى والارض أمٌ
وأمك جِجزها نعم المهادُ (ل : ١ / ٣٣٦).

وعرف في (الدنيا) معنىً من الامومة المرضية بالرغم من قهرها وتسلطها وبعبودية لافكاك منها :

يـا أمّ دَفْـرٍ لحـاكِ اللّـهُ والـدةً
منـكِ الإضـاعـةُ والتفـريطُ والسَّـرَفُ
لـو أنّـك العِـرسُ اوقعتُ الطـلاقَ بهـا
لكنك الام هل لي عنكِ مُنْصَرفُ (ل : ٢ / ١٤٨).

ورآه من أمومة (السنبلة) ثراء عاطفتها لنسلها (حبّاتها) وحنوها عليهم ، في قوله :

اولادُهـــا من حـــولهـــا جُثم
تحت اصـــول الشَّعـــر كـــالنمـــلِ
مـــا إنّ لهـــا في جسمهـــا شَعْـــرة
إلّا وقـــد كُبِّت على طفـــل (غ : ٩١).

ولم تسلم هذه الضروب من (الأمومة) من عبثه وتدخلاته القسرية فيها وبازدواجية سببها موقفه المبدئي الرافض للنسل والداعي الى تعطيل الحياة ، فإذ يستطيب من الامومة العاطفة والعلاقة البريئة والراقية بالطفولة فانّ نفسه تعاف من جهة ثانية الوسائل الموصلة الى هذه العلاقة والمحققة لها ، ولذلك يعمد الى نفي افعال النكاح والحمل والإنجاب واستبعادها عنها ، ألغز عن حبل (سلمى) بقوله :

حملتْ ومـــــــا نُكحتْ وكم
وضعتْ لهـــا حَمْـــلًا متمـــاً
بنت لأمٍ لم تـــــــدغ
بنتـــاً ولم تستبق أمّـــا (غ : ٣٩).

ودفعته انوثة (النمل) في احد الغازه الى القول :

والتى لهـــا عَقْب وليست بـــوالـــدٍ
ولا عُـــرِيَتْ يـــومـــاً لامٍّ ولا أبٍ (غ : ٤٧)

وعبرّ عن حرف النداء (يا) على سبيل اللغز بالقول :

أعـــــايبيـــــك أمّ اثنين : حيٌّ وميّتٌ
قـــريذين لقـــا يشعـــرا بتنـــامِ

وامهمـــا إنسيـــة مـــا تحملتْ
جنينـــاً ولا كانت عـــروش هِداء (غ : ٣٧).

وفي لغزه عن (السنبلة) اهتدى الى افتراض غريب :

مـــــا حَبلتْ قطّ ولكنّهـــــا
كثيـــرةُ الاولاد والنســـلِ (غ : ٩١).

ولم تنقطع ابداً مناجاته الى الكائنات في تحبيذ العزلة وتفضيلها على المعاشرة ، كقوله :

إن كنتِ يـــا ورقـــاءُ مهـــديّـــة
فـــلا تُبنّي الـــوكـــرَ لـــلافـــرخ
وانفـــردي في بلـــد عـــازبٍ
عنّا وعيشي ذات بالٍ رخيٍ (ل : ١ / ٣٠٨).

ـ ٤ ـ

اعترافات :

ويعد فثمة اعترافات غير منظورة سلّم فيها المعريّ بفضل الانثى عليه بعد طول إدانة وإعراض عنها ، وتكتسبُ هذه الاعترافات قيمتها من ارتباطها بقضايا مهمة او لحظات فاصلة في حياته :

١ ـ عن شعره : وقد أقرّ بما لا يقبل الشكّ بانثوية مرتكزة واساسه واعلي به (القافية) ، الانثى التي تمنح الشعر مشروعيته :

وبيت اذا لم ابنـــه بلطـــافـــةٍ
على ظهر انثى فهو غيرُ سليم (غ : ١٠٣).

٢ ـ عن النفس : بابعادها الفلسفية الشائكة التي اعياه البحث في حقيقتها وكنهها فلم ينته معها من كل ذلك الّا الى يقين انوثتها التي تطوي داخلها اللحظتين الوجوديتين الفاصلتين : العرس والموت ، وذلك في قوله :

لا تفـــرق النفسُ من حتفٍ يحـــلُّ بهـــا
فالنفس انثى لها بالموت إعراس (ل : ٢ / ٢٧).

٣ ـ عن الوجود : وقد اقر ـ بخلاف ما هو متوقع ـ بالانوثة المهيمنة عليه بين مبتداه : (الحياة / الدنيا) ومنتهاه (المنايا) ، متلاعباً في ذلك بمضامين الصيغ اللغوية في تغليب الذكر على الانثى ومتحدياً صحة افتراضاتها ونتائجها :

زعمـــوا أنّ مـــا يـــنكَـــر إنْ قـــارن
(م) انثى لم يعـــــدِم التغليبـــــا
بـــاطـــل ذاك إنّ لبّي الى الـــدنيـــا
(م) قـــرين ومـــا يـــزال سليبـــا

والمنـــايـــا كـــالأســـد تفتـــرس الاحيـــاء
(م) جمعـــاً ولا تعـــاف الكليبـــا
تفـــرغ الشـــامـــخ المنيفَ من الشُمّ
(م) وتهوي فستبيح القليبا. (ل : ١ / ١٣٣).

٤ ـ عن الموت : في اعتراف أخير منه صاغه عنواناً على شاهدة قبره حمّل فيه (الرجل / الاب) جناية الحياة عليه واقصى التهمة عن (حواء / الام) :

هـــــــذا جنــــــاه ابي عليّ
ومـــــا جنيتُ على احـــــد

ولم ينقّص عليه فرحة تحرزه من هذه الجناية إلّا أبوّته لاثامه في قوله :

أبـــوتُـــك يـــا إثمي ومَنْ لي بـــانني
اتيتك فاشكرَ لاشكرتُ أبوتي (ل : ١ / ٢٢٠).

المهم أنّ الانثى غابت عن الجنايتين في هذا الاعتراف الاخير.

الهوامش :

(١) ينظر : الشعراء نقاداً : ٢١٩.
(٢) شرح ديوانِ كعب بن زهير : ٤٥.
(٣) ديوان مُزرّد بن ضرار : ٤٧.
(٤) تنظر : قصة الحضارة : حـ ١ / م ١ / ٥٥ ـ ٧٨، تحدث المؤلف عن هذه المرحلة من فجر التاريخ : « فالانساب في هذه الحالة يقتفى اثرها في جانب الإناث، والتوريث يكون عن طريق الامّ، حتى حقّ العرش احياناً كان يهبط الى الوارث عن طريق الام ... إنّ الامّ كانت وسيلة تعقّب الانساب لانه لولا ذلك لأدّى ... الى انبهام معالم القربى » : ص ٥٩.
(٥) تنظر : نوادر المخطوطات، ط ١، المجلد الاول : ٨٣ ـ ٩٦ كتاب (من نسب الى أمّه من الشعراء) صنعة محمد بن حبيب وتصنيفه، من رواية ابن جني.
(٦) شرح الصولي لديوان أبي تمام : ٢ / ٢٨.
(٧) العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب : ٥٦٣.
(٨) ينظر : جامع الدروس العربية : ٢ / ٩.
(٩) ينظر : لسان العرب : ١ / ٨٣٠ مادة (خسف).
(١٠) ينظر : جامع الدروس العربية : ١ / ٩٩ ـ ١٠٠.
(١١) (١٢) ينظر : م. ن : ٢ / ٢١٦ ـ ٢٢٩، ١ / ١٠٠، ١٠١.
(١٣) للتخفيف من الهوامش والإحالات ساضع الى جانب ابيات المعري وبين قوسين إشارات مختصرة الى مواضعها في الدواوين الثلاثة مع رقم الجزء والصفحة :
س = سقط الزند.
ل = اللزوميات.
غ = الالغاز.
(١٤) شخّص الشاعر صلاح عبد الصبور ملامح من صورة (الدنيا / المرأة) في شعر المعريّ واقترح قراءتها بمنهج إبداليّ ـ على حد تعبيره ـ تنظر دراسته : (المنحنى الشخصيّ في حياة ابي العلاء المعري) ضمن كتابه : (نبض الفكر : قراءات في الفن والأدب).
(١٥) ينظر : المهرجان الالفيّ لأبي العلاء المعريّ البحث الموسوم بـ (المعري والمرأة)، جيهان الموصلي : ٣٣٠ ـ ٣٣١، ابو العلاء المعري (الشاعر الحكيم)، عمر فروخ : ١٠٣، الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعريّ : ٢١٤، ابو العلاء ناقد المجتمع، د. زكي المحاسنيّ : ٢٦، ٢٧، ٤٩.
(١٦) ينظر : الفكر والفن : ٢١٤.
(١٧) ينظر : ابو العلاء (الشاعر الحكيم) : ١٠٨.
(١٨) ينظر : الفكر والفن : ٢٧٢، ٢٧٤.
(١٩) (٢٠) ديوان امرىء القيس : ١٧، ٣٠، الانبوب : البرديّ. حقف النقا : ما استدار من الرمل.
(٢١) ديوان أبي الشيص الخزاعي : ٤٥ ـ ٤٧ من القصيدة (الدعدية).
(٢٢) ينظر : الفكر والفن : ٤١.
(٢٣) ينظر : م. ن : ٢٤.
(٢٤) ينظر : مواقف في الادب والنقد : ٤٦، ٤٧ يعالج د. عبد الجبار المطلبي هذه الثنائية من زاوية طريفة جداً.
(٢٥) ذكر الشرّاح القدامى في تفسير البيتين بعض القضايا المتعلقة بالبحث : « التبريزي : البغيّ ضد الحصان وقد اجتمع في هذه الدرع هذان الوصفان كما اجتمع فيها الحزّ والقزّ بقوله : ذكت وأحش القر من يلمسها.
الخوارزمي : الحصان في الاصل هي المرأة العفيفة سميت بذلك لانها احصنت فرجها، وجعل الدرع ها هنا حصاناً لانها تحصّن لابسها، وجعلها بغيّاً لانها لا ترد يد لامسٍ، يُريد : كل من رآها لمسها لحسنها وغرابتها » (شروح سقط الزند، السفر الثاني / القسم الخامس : ١٩٥٤). (٢٦) مجمع الامثال للميداني : ٢ / ٤١٢، ٤١٣.
(٢٧) ينظر : ابو العلاء المعري، د. عائشة عبد الرحمن : ١٢٩ ـ ١٣٨. (٢٨) ينظر : الفكر والفن : ٣٤، ٤١.
(٢٩) الإنصاف والتحري لابن العديم ضمن كتاب (تعريف القدماء بابي العلاء) : ١ / ٤٩٧.

المصادر والمراجع :

- أبو العلاء المعري ، د . عائشة عبد الرحمن ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مصر (د . ت) .
- أبو العلاء المعري (الشاعر الحكيم) ، عمر فروخ ، منشورات دار الشرق الجديد ، ط ١ ، بيروت ١٩٦٠ .
- ابو العلاء ناقد المجتمع ، د . زكي المحاسني ، دار المعارف بيروت ١٩٦٣ .
- تعريف القدماء بأبي العلاء ، جمعه وحققه لجنة من وزارة المعارف العمومية ، اشراف د . طه حسين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م .
- جامع الدروس العربية ، الشيخ مصطفى الغلاييني منشورات المكتبة العصرية ، ط ٥ ، بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ .
- ديوان ابي الشيص الخزاعي ، جمع وتحقيق عبد الله الجبوري ، مطبعة الاداب ، ساعدت وزارة التربية على نشره بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ديوان الالغاز ، ابو العلاء المعري ، رواية الحظيري ، تحقيق د . محمود عبد الرحيم صالح ، معهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الكويت ١٩٩٠ .
- ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة (د . ت) .
- ديوان المزرّد بن ضرار الغطفاني برواية ابن السكيت وغيره وشرح ثعلب ، تحقيق د . خليل العطيه ، مطبعة اسعد ، بغداد ١٩٦٢ .
- شرح ديوان سقط الزند ، ابو العلاء المعري ، شرح وتعليق د . ن . رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة .
- شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة ابي سعيد السكري ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، القاهرة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .
- شرح الصولي لديوان أبي تمام ، دراسة وتحقيق د . خلف رشيد نعمان ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، العراق ١٩٧٨ .
- شروح سقط الزند ، السفر الثاني ، القسم الخامس ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ م .
- الشعراء نقاداً ، د . عبد الجبار المطلبي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط ١ ، بغداد ١٩٨٦ .
- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، شرح الشيخ ناصيف اليازجي ، ط ٢ ، دار القلم ، بيروت (د . ت) .
- الفكر والفن في شعر ابي العلاء المعري ، د . صالح حسن اليظي ، دار المعارف ، مصر (د . ت) .
- قصة الحضارة ، ول . ديورانت ، حـ ١ ، م ١ ، ترجمة د . زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، دمشق ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .
- لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) ، أبو العلاء المعري ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ .
- لسان العرب ، ابن منظور ، اعداد يوسف الخياط ، دار لسان العرب ، بيروت (د . ت) .
- المهرجان الالفي لابي العلاء المعري ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، مطبعة الترقي ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ .
- مواقف في الادب والنقد ، د . عبد الجبار المطلبي ، دار الرشيد للنشر ، العراق ١٩٨٠ .

*

ملف المرأة

الآلهة الإناث

في الموروث الاسطوري والشعري

• قبل الاسلام •

د . أحمد إسماعيل النعيمي •

كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد

كثيرة هي الدراسات التي رصدت مكانة المرأة ودورها الفاعل في المجتمعات الانسانية ، عبر العصور التاريخية المختلفة . بوصفها ـ اي المرأة ـ كائناً بشرياً رديفاً للرجل في مجالات الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والادبية والثقافية ، وحتى العلمية لا سيما في العصور الحديثة .

بكلمة موجزة ان المرأة قد حضت بعناية الباحثين من منظور دورها التاريخي الواقعي ، المتباين السمات والملامح والتأثير من مرحلة الى اخرى ، تبعاً لعوامل تارة تسهم في فرض وجودها المؤثر ، وتارة اخرى تقيد من طاقاتها ونشاطاتها وامكاناتها في خدمة مجتمعها .

ومن الجدير بالذكر ان بعض الباحثين لم ينطلق في دراسته للمرأة من نظرة موضوعية بعد ان اتخذ الاستنتاجات التي تبرز المرأة كائناً ضعيفاً او مستلباً او مقهوراً مسوغاً للحكم عليها ، وتجاوز مكانتها ، والتقليل من شأنها .

وحسبنا ان نقول ان هذه النظرة القاصرة لم تلق قبولاً لدى جمهور واسع لا بسبب تعاطف هذا الجمهور مع المرأة ، بقدر تيقنه من تعصب هؤلاء الباحثين على المرأة ، ومجانبتهم الصواب في ما انتهوا اليه من احكام ونتائج بحقها .

وإذ نطمئن الى طبيعة تلك الدراسات المهتمة بشخصية المرأة من تلك النواحي ، فحريٌ بنا ان نعرج على المرأة من زاوية نظر اخرى تشكل استكمالاً لمعطيات دورها الواقعي في الحياة الانسانية .

ولا نغالي اذا قلنا ان عنايتنا بالمرأة من منظور الفكر الاسطوري ، هو ما يكمل ذلك الدور التاريخي .

من منطلق ان هذا الفكر فرض وجوده طوال حقب زمنية عدة على المجتمع البشري منذ انبثاقه من عهود سحيقة في القدم . عندما كانت الالهة العظام في وعي الشعوب القديمة هي المتحكمة بالمصائر ، بعد ان خصت نفسها بالخلود ، وقدرت الموت على البشرية ، وما كان من المجتمع الانساني الا ان يفزع اليها في الخطوب والكوارث . ويستغيث بها لدرء الشر واكتساب الخير وتبديد المخاوف والقلق ، من خلال اداء طقوس وشعائر تتلى فيها كلمات منطوقة ، هي جوهر مفهوم الاسطورة[1] المأخوذة عن الاصل اليوناني (Mythos) أو ما يعبر عنه الاوربيون بـ(الميثولوجيا) وهي نفسها (Myth) والمعنى الشيء المنطوق ، والعلاقة بين هاتين الكلمتين وكلمة (Mouth) اي فم واضحة .

ولا ادل على ذلك ، من كون لفظة اسطورة تقابلها في كثير من اللغات الاجنبية كلمتا (Myth) او (Mythos)[2] .

وذلك ايضاً ما يفسر لنا دواعي (رولان بارت) للاسطورة بـ« الكلمة »[3] . والاساطير (اباطيل) بدلالاتها اللغوية والدينية في رأي علماء العرب[4] .

ويمكن القول ان الاسطورة في طورها الاول هي الكلام المنطوق المقترن بالشعائر والطقوس ، قبل ان تتحول الى قصة تقليدية حول كائنات ما فوق الطبيعية او اعمال ما فوق الطبيعية لكائنات حية او غير حية ، او ادوات جامدة معروضة في شكل قصصي ، تكون فيه فعاليات الكون قد صورت كائنات شخصية ، كما جسمت قوى الطبيعة وعناصرها كآلهة وعفاريت[5] .

وخلاصة القول ان القاسم المشترك في كل اساطير العالم القديم ، هو وجود الآلهة والكائنات الخارقة ، التي تؤدي دور الوسيط بين القوى العليا والشخوص المتعبدة لها .

واما بواعث تبلور المعتقد الاسطوري في الفكر الانساني فترجع الى ثمرة جهود الانسان البدائي في فهم طبيعة الكون ،

إذ كان ما حوله من مدهشات الكون واعاجيبه ، مما لم يستطع إستيعابها علمياً ، حمله ان يتوهم تفسيراً او يتخيل اصولاً ، ووقائع يرتاح اليها ، وتزيل حيرة نفسه[٦] . أما اهتداؤه الى وجود (الالهة) فقد إنبثق من فكرة فحواها :

« ان الانسان القديم كان يميل الى تصور العالم الخارجي على نحو شبيه بتصوره لذاته ، ولما كانت فكرته عن ذاته ان له جسماً مادياً محسوساً يتحرك ، وروحاً غير محسوسة تكمن في الجسم ، وتحركه بارادتها ، فقد توهم ان ما يحيط به من كائنات واشياء على نفس صورته »[٧] ، حتى غدت الدنيا في نظره عارمة بالحياة ، لا جماداً او فراغاً ، فضلاً عن سيادة عنصرين احدهما (نظري) يتصل بالاعتقاد بالقوى الغيبية المتحكمة في شؤون حياته ، والاخرى (عملي) يتجسد في الشعائر والطقوس التي يؤديها مصحوبة بكلمات استرضاء لتلك القوى لغايات عدة .

وقد يوجه الينا التساؤل الاتي : (كيف عرف الانسان البدائي وجود نوعين من الالهة (الذكرية والانثوية) ؟!

وجوابنا عن هذا التساؤل نلخصه بقولنا : ان وجود المرأة وتخصصها بعملية التكاثر والاخصاب والنسل ، أوحى له ان يكون مجتمع الالهة على غرار وضعه في الطبيعة ، من حيث ان هذا المجتمع هو الاخر يتوالد ويتناسل ويتكاثر على شاكلته .

وما شيوع (الثالوث الالهي المقدس) في معظم حضارات الامم القديمة ، إلّا اوضح دليل على هذا الاستنتاج .

من منطلق ان مصدر تكون ذلك الثالوث هو الزواج يتم بين الذكور والاناث من الالهة ، وثمرته هو إبن أو إبنة على غرار المجتمع الانساني .

ومن اشهر انواع الثالوث الالهي المنبثق عن ذلك الزواج الاسطوري ، الاسطورة المتعلقة بـ (الشمس والقمر) بوصفهما الهين قائمين بذاتهما ، خلع عليهما الانسان صفات الاسرة البشرية وخصائصها من أب وأم وإبن ، بعد ان وقر في النفوس ـ في العصر القديم ـ « إن زواجاً يتم بين القمر والشمس ، لاجتماعهما مرةً في كل شهر . وعند اتجاههما نحو الارض »[٨] . ويبدو ان (الزهرة) كانت ثمرة ذلك الزواج ، ليتشكل بذلك « الثالوث الالهي الرئيس »[٩] . لا عند عرب الجاهلية حسب ، انما كان هو نفسه في حضارات وادي الرافدين ، ووادي النيل ، واليونان مما يحمل على الاعتقاد . « بانتقال هذا الشكل في دورة متصلة ، في اساطير تلك الحضارات »[١٠] .

ويبدو أن ظاهرة (الثالوث الالهي) وجدت في غير هذه الحضارات مع اختلاف مكوناته ، اذ كان ثالوث الصين المقدس : هو الشمس ، السماء ، الارض ، وثالوث الهند يتجسد في (آله العاصفة والحرب وآله النار ، والنظام)[١١] .

إن هذه المعتقدات الاسطورية حول الثالوث الالهي تفضي بنا الى حقائق كثيرة ، في مقدمتها : ان الهة السماء هي اقدم انواع الالهة قبل ان تنزل منزلة البشر ، وان لالهة السماء ، صلة بالهة الارض من حجارة وجبال واشجار ، بوصفها رموزاً معبرة عنها .

معنى ذلك أن اشكال العبادة كانت تتردد بين التجريد والتجسيم في آن واحد معززين هذا التصور برأي المسعودي (٣٤٦ هـ) ساقه في معرض اشاراته الى تحول بعض الامم من عبادة الكواكب الى الاصنام ، اذ يقول : « إن كل ما في هذا العالم انما هو على قدر ما تجري به الكواكب ، عن امر الله ، فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهراً ، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار ، او في بعض اوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر امرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم ان يجعلوا لها اصناماً وتماثيل على صورها واشكالها »[١٢] . وبذلك يغدو التمثال او الصنم او الوثن صورة محاكية للاله نفسه ، والتمثال ـ والحالة هذه ـ ليس الا وسيلة قد يكون مصنوعاً من الخشب او الذهب او الفضة ، ويكون على صور مختلفة ايضاً (انسان او حيوان) ولكن المهم « ان الاله يحضر في مكان ظهوره ... عندما يدعوه نمل العبادة امام التمثال الى الحلول فيه »[١٣] .

وقد قال المصريون ذلك في احدى قصص الخليقه ، عندما ناب الاله عن الالهة الاخرى ، كما في هذا النص :

« وضع اجسادهم وفق رضاهم ، فدخل الالهة اجسادهم من كل نوع من الخشب ، الحجر ... واتخذوا لانفسهم شكلاً ، فهذه التماثيل انما هيئت لتكون امكنة (للالهة) يتخذون فيها شكلاً تراه العين »[١٤] .

ونظير ذلك نجده عند عرب الجاهلية ، إذ توزعت آلهتهم بين السماء والارض ، وقد جسدوا الهتهم الارضية في الاصنام ، والاوثان والجبال وغيرها من مظاهر الطبيعة (الصامتة منها والمتحركة) . بوصفها رموزاً لتلك الاجرام السماوية المؤلهه ، لان الوثنيين ماديون في تفكيرهم ، والموحدين روحيون ، وما مزاعمهم من « انهم كانوا يسمعون من اجواف الاوثان همهمة »[١٥] الا دليل على ان تلك الاصنام لم تعبد لذاتها انما للارواح المظنية التي تحل فيها .

والاهم من ذلك كله ان (الشمس) في ذلك الثالوث الوثني المقدس هي اقدم انواع الالهه الاناث ، وقد وصفت (بالام العظمى المقدسة)[١٦] وقد سميت (إلاهه) ، كما يوله كل طفل الى امه[١٧] .

كما عرفت بـ« ذات حمم » اي ذات الحرارة الشديدة ، والحمى الموضع الذي يحمى ، ويخصص بالاله او المعبد[١٨] . وذلك يتطابق مع شريعة العرب ـ الوثنية ـ في عبادتها باتخاذهم صنماً لها ، وله بيت خاص سموه باسمه[١٩] .

وما يؤكد حقيقة ان الشمس (الهة مؤنثة) ، لا اله ذكر ـ كما « يرى احد الباحثين »[٢٠] ـ قول القدماء « ان الالهة تانيث اله ، وان الشمس سميت بها لانها كانت تعبد »[٢١] .

كما نعتت بـ(الالاهة او الاهة) فضلاً عن القسم بها ، إذ كانت العرب تقول « لا وسجرى الالهة او الاهة يجعلها معرفة

علماً هي اسم شمس »[٢٢] .

وهذه التسمية هي التي وردت ضمن قول مية بنت ام عتبة ابن الحارث :

تـــزوختنــا من اللقبـــاء غضــرا
فـــاعَجَلْتنـــا الالاهـــة أنْ تؤوبا[٢٣]

معززين ذلك بان (القمر) احد اركان ذلك الثالوث الالهي الرئيس نعت بـ(كهل) بمعنى (كاهل) . وكرجل كهل يصوره العرب ايضاً كرئيس للقبيلة ، والصفة الاخيرة تنزع الى العصر الذهبي لعبادة الافلاك ، عند ما كان ابو القبيلة هو اله القمر ، فضلاً عن وصفه رجلاً (بعلاً) والزوج هو (البعل) والرب والسيد وصاحب الكلمة[٢٤] . وبذلك يتسنى لنا ان نمضي في رصد الطقوس والشعائر ومظاهر التأليه والتقديس والعبادة التي احيطت بها الشمس من منظور الفكر الاسطوري المتسق في معطياته مع الفكر الوثني .

ولعل اول اشارة تفصح عن الوهية (الشمس) ، تلك المتعلقة بالبطل (جلجامش) صاحب الملحمة المشهورة ، اذ قيل أن معنى اسم جلجامش هو « بطل الشمس »[٢٥] وذلك يتسق مع الاعتقاد الذي كان سائداً في عصر الاساطير من ان الابطال آلهة سقطت او تجسيدات لقوى خارقة في الطبيعة كضوء الشمس .

والبطل بهذا التصور يتجاوز الناس الاعتياديين ، لكونه شخصاً مقدساً ، والظن انه من سلالة الالهة ، او معاونة الالهة له[٢٦] . حتى كان مصرعه مقترناً بحركة تلك الافلاك المؤلهة المفصحة عن رد فعل لغضب الالهة على مصرع كل من يمت بصلة اليها ، وحتى تبدو « الفؤول المرتبطة بالشمس ـ من هذا المنطلق ـ معادية ، فالكسوف شر ، وخروج ما يشبه الدخان منها لدى شروقها في الربيع نذير بفرق البلاد ، وإذا صعدت في مدارها فمعناه الحرب »[٢٧] . ومثل هذه المعتقدات الاسطورية في بلاد وادي الرافدين ، نرى ظلالها في المجتمع الجاهلي ، الذي عبرت عن تصوراته الخنساء في رثائها صخراً في قولها :

فـهــز الشـــوامـــخُ من قتلـــه
وزلـــزلت الارضُ زلـــزالهـــا
وزالَ الكـــوكبُ من فقــــده
وجُللَتْ الشمسُ أجـــلالهـــا[٢٨]

ومثل هذا الاعتقاد ساد في حضارات أخر ، من منطلق زعم فحواه « ان الظواهر الطبيعية كان يُنظر اليها كانها تجارب انسانية ، وان التجارب الانسانية فيها كانها حوادث كونية ، والا بماذا نفسر اعتقاد الاغريقيين ان حوادث الكون وغيرها من ظواهر السماء ، انما هي نتائج لغضب الالهة وتقلب ادوارها على مصرع كل ذي شأن »[٢٩] .

ويبدو ان (الشمس) كانت الاهة معروفة ، في شبه جزيرة العرب ، وقد رمز لها بصنم ، أول من تسمى به (سبا بن يشجب) تعبد لها العرب الجنوبيون والشماليون ، كما انها من الالهة المعبودة عند بقية الساميين[٣٠] .

وذكر ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) ان قوماً من (عذرة) تعبدوا لصنم يقال له : الشمس ، فضلاً عن وجود هذا الصنم عند بني تميم ، وكانت تعبده بنو أد كلها : ضبه ، وتميم ، وعدي ، وعُكل ، وثور ، واما سدنته فكانوا من بني اوس بن مخاشن بن معاوية بن جرة بن اسيد بن عمرو بن تميم وقد قيل لها : الالاهة[٣١] .

وفي رأي بعض الباحثين ان : اللات هي الشمس ، وقد كانت عبادتها شائعة بين العرب الجنوبيين والحجازيين ، وتبدو هذه الصلة او العلاقة بينهما في قول العرب : « ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف »[٣٢] وما يتردد في اسمائهم وهب اللات وعبد شمس ، ولعل صفة التانيث بين اللات والشمس مؤشر آخر لابعاد هذه الصلة ، اذ يرى بر وكلمان « ان اللات هي الالهة المعروفة في الطائف بالربة او السيدة التي شبهها هيردوتس بآلهة الفلك[٣٣] .

ومن الاساطير التي نسجها عرب الجاهلية حول الشمس ، زعمهم « انها لا تطلع من نفسها ، حتى تعذبها الملائكة ، وترغمها على الظهور صباح كل يوم ، اي ان الشمس لا تطلع الا وهي كارهة ، وقالت لا اطلع على قوم يعبدونني من دون الله ، حتى تُدْفَع وتُجْلَدَ فتطلع »[٣٤] وقد اودع احد شعراء الجاهلية وهو (امية بن ابي الصلت) تفاصيل هذه الاسطورة في قوله :

والشمس تطلـــعُ كـــلَّ آخــرِ ليلـةٍ
حمــراء يصبـــحُ لـــونُهـــا يتـــورّدُ
ليست بطـــالعـــةٍ لهمْ في رسْلِهـــا
إلّا معـــــذبـــــةً وإلّا تُجْلَـــــدُ
لا تستطيـــعُ ان تُقصّـــرَ ســـاعـــةً
وبذاكَ تـــدأبُ يـــومُهـــا وتشـــردُ[٣٥]

وفي معتقدات العرب الاسطورية حول الشمس « أن الغلام اذا اثغر فرمى سنه في عين الشمس بسبابته وابهامه ، وقال أبدليني بها احسن منها لِيَنَ على استانه من الموج والفلج والثغل »[٣٦] . وذلك المعتقد الاسطوري تضمنته اشعار العرب كتدليلٍ على شيوعه بين عموم العرب ، اذ يقول طرفة بن العبد :

بـــدّلتـــهُ الشمسُ من مَنْبَتـــهِ
بَـــرَداً ابيضَ مصقـــولَ الأشُـــرْ[٣٧]

وقوله ايضاً :

سَقَتْـــهُ إيـــاةُ الشمس إلّا لثـــاتِـــهِ
أُسِفَّ ولم تَكْـــدِمْ عليـــهِ بـــإثْمِـــدِ[٣٨]

واذا ما اردنا ابراز إلوهيّة الشمس من حيث كونها رمزاً مانحاً للخصب والنماء ، فحسبنا ان نعرج على تلك الاراء المفصحة عن رمزية المرأة في المقدمات الطللية ـ الغزلية في

قصائد الشعراء الجاهليين ، فهناك من يرى ان المرأة هي (الشمس) نفسها وان رحلتها رحلة الى عودة ، بل هي ترحل الى ينابيع الماء ... وان الطلل كان يرمز الى ما تخلفه رحلة الشمس على الانسان ، والشمس تمنح الخصب والنماء بحضورها ، فلابد الا ييأس احد من عودتها بعد نزوحها ، بكلمة ادق ان رحلة المرأة في الشعر الجاهلي هي رحلة الشمس كل يوم ... فالشمس معبودة الجاهليين مانحة الخصب[39] .

وهذه العلاقة بين الشمس والمرأة تبدو واضحة في تكرار الصور التي يتحاور الشعراء على تشبيه المرأة فيها بالشمس لا من حيث اطارها الواقعي لأن مثل هذه العلاقة لا تشكل وشيجة بين الشمس والمرأة ، الا اذا وضعت في اطارها المجازي ذي الامتداد الاسطوري ، فنطالع في هذا المجرى قول امرىء القيس :

بَـزَهـرهـةٍ كـالشمسِ في يـومِ صَحْـوِهـا
تُضيء ظَـلامَ البيتِ في ليلـةِ الـدُّجى[40]

وقول سويد بن ابي كاهل :

تمنـحُ المـرأةَ وجهـاً صـافيـاً
مثـلَ قـرنِ الشمسِ في الصحـوِ ارتفـعْ
صـافيَ اللـونِ مطـرفـاً ساجيـاً
أكحـلَ العينينِ مـا فيـه قَمَـعْ[41]

وقول المرار بن منقذ التميمي :

صـورةُ الشمسِ على صُـورتِهـا
كلّمـا تغـربُ شمسٌ او تَـذُرْ[42]

فالنور او الضياء هو القاسم المشترك في هذه النصوص ، وهي تشبيهات على نواح معنوية لا مادية ، فهي صفات الهيئة تجمع وجه الشبه فيها بين الشمس والمرأة ... فالنور هو المانح للخصب والنماء والحياة ، ليكون معادلاً موضوعياً يكشف عن العقيدة الاسطورية فيما يتعلق بالتناسل الذي اختصت به الام المقدسة ، هي الشمس التي رمز لها بالانثى القابلة للحمل ، التي تحمل وعداً دائماً بتجديد الحياة واستمرارها ، وذلك ما تفصح عنه تماثيل المرأة - في العصر القديم - مجسدة الخصوبة او الامومة[43] .

ولم يكن الرمز عن الشمس (الالاهة) المعبودة بالمرأة شيئاً جديداً في الديانات الجاهلية ، فقد فصلت ذلك الديانة السومرية في العراق من قبل ، دون اغفال التحول الحاصل في الصور الدينية المحضة الى قوالب فنية صرفه ، قد تخالف احياناً النماذج القديمة ، ولكنها في كثرتها وتكرارها تنزع الى ارتباط النماذج العليا في الشعائر والاساطير القديمة[44] .

ولابد ان نعرج - بعد حديثنا عن رمز الام المقدسة في الالاهة الشمس على الالهة الاناث التي استقرت رمزاً للحب والجمال ، وان الحب الذي نتحدث عنه هو العشق الذي سما ان يكون استهلاكاً جسدياً ، بقدر ما كان انصهاراً روحياً ، انه الحب الطاهر الذي يوثق قلوب المحبين ويملؤها غبطة ، هذا الحب الذي قوامه التامل الفكري والميل القلبي . هذا الحب الذي كانت تقف وراءه الهة إرتضى المحبون ان يتذللوا عند معابدها ويقدموا قرابينهم طمعاً بنيل مرادهم من عطفها عليهم .

فكانت الالهة - بكلمة اخرى - هي الينبوع والمصدر لكل الاشياء الخيرّة - في الفكر الاسطوري - ولولاه ما عرف الانسان معنى اللطف والمجاملة والظرافة في الحياة الدنيوية .

على نحو ما تقصه لنا الديانة السومرية في (وصف عشتروت) الهة الحب والجمال وتمثل ماساتها في (تموز) اول ماساة في الحب الالهي ، الذي انعكست ظلاله في قصص كثير من العشاق المتعبدين لها ، الذين لاقوا الكثير من عطفها ويوصفها حاكمة العالم بقوة الحب الكلي ، او كانت عشتار الالاهة الاكثر شعبية في بلاد بابل وآشور ، وتحت اسم عشتروت كانت احدى اعظم الالاهات فينيقية ، كما اورثت العديد من سماتها لافروديت الاغريقية[45] .

ويقال من اسمائها (كيثيريا) ثم (فينوس) التي كانت لها مكانتها في المجمع الالهي الروماني ، ويقال انها ولدت من صدفة كبيرة طفت على وجه البحر وهناك تلقاها سرب من عرائس البحر فحملتها في عناية واجلال وتوجهن بها الى كهوفهن المرجانية حيث شرعن في ارضاعها وتربيتها ، حتى اذا بلغت سن الرشد ، وتم نضجها حملنها الى رمال الشاطىء ولم تكد فينوس تمسها باصابع قدميها الجميلتين حتى سجد الكون جميعاً ، وسحرت الكائنات كلها ، وفي قصة ابنها (كيوبيد) ما يوجز علاقة هذه الالهة بالحب[46] . وتبدو (الزهرة) الاهة الحب والجمال بلا منازع عند العرب ، وهي كما مر بنا ثمرة ذلك الزواج السماوي الاسطوري بين القمر والشمس ، ولذلك حظيت بالاحتفالية الاسطورية .

وقد ورد اسمها في النصوص العربية الجنوبية (عشتر) ، مما يسمح بردها الى الالهة (عشتار) عند البابليين ، المرادفة لفينوس عند اليونان الذين عمدوا الى تصويرها ونحت تماثيلها في ازياء ومواقف كثيرة تمت كلها الى الجمال والاغراء والاثارة الحسية والجنسية[47] .

ويبدو ان (الزهرة) استقرت معبوداً في بلاد العرب عرف باسم (المقة) اي : المحبة ، وذلك ما افادنا به (الهمداني) ، على اساس ان اسم الزهرة في لغة حمير يعني يلمقه والمقة ، وحسبنا ان نعرف ان اصل (لمق) لمع ، وان لغة حمير (يلمق والمق بمعنى الزهرة) وان المقة بمعنى (سيدة) لا تبتعد عن طبيعة وظيفة هذه الالهة في موضوعه الحب[48] .

حتى ان معنى (ومق) في المعجمات اللغوية ، هو : المحبة والمودة ، اذ جاء في احدى معجمات : ومِقَه يمقه مقة ومقا : احبه ، والتومّق : التودد ، والمِقة : المحبة ، والهاء عوض من الواو ، ويقال : ومق يمق ، بالكسر فيهما ، مقة ، اي احبه ، فهو وامق ، ويقال ايضاً : الوماق : العشق ، والمحبة

للغير ريبة ، والعشق محبة لريبة[49]، وقد ورد هذا المصطلح الذي ينزع بدلالته الى آلهة الحب في قول بشامة بن الغدير :

وحملتُ منهـــا على نـــائهـــا
خيـــالاً يُـــوافي ونيـــلاً قليـــلا
ونظـــــــرةِ ذي شجنٍ وامِق
إذا مـــا الـــركـــائبُ جـــاوزن ميـــلا[50]

وقولُ الاخر :

إنّ البثينـــةَ من تمـــنُ خـــديعـــة
فـــانفـــغ فـــؤادك من حـــديثِ الـــوامقِ[51]

وهناك من يرجح ان الدوار بوصفه شعيرة مقدسة ، هو تعبير عن العلاقة الخفية بين دوار العذارى بالموضع المقدس من الصنم والحب وتذوره[52] ، وذلك ما التمسه الباحثون في قول امرىء القيس :

فعنّ لنـــا بســـربٌ كـــانّ نعـــاجـــه
عـــذارى دَوارٍ في المُـــلاء المُـــذيـــلِ[53]

وتلتمس هذه العلاقة في قول الحادرة ، اذ يترصد الشاعر المحب لقاء حبيبته يوم دوارها باله الحب ، اذ كان يحلم في إمكان الفوز بلقائها ، كما يحلم المقامر ان يدور القمر له :

لمنت شميـــــــة صُـــــــرمت حبلي
وتـــــــانت وخـــــــالف شكلهـــــــا شكلي
ورجـــــــاهُمُ بيـــــــوم الـــــــدوّارِ كمـــــــا
يـــرجـــو المقـــــــامـــــــر نيـــــــلَ الخصَـــــــل[54]

مخالفين بذلك من يرى ان الدوار كان حول (ود)[55] لعلة بسيطة هي ان (ود) كما وصفه لنا (ابن الكلبي) : « كان تمثال رجل كاعظم مايكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد باخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة فيها نبل »[56] .

وبذلك يبدو رمزاً لاله الحرب ، لا رمزاً للحب ! اما (العقة) فكل القرائن تشير الى انه صنم لرمز سيدة الحب (الزهرة) » ودوار العذارى حوله هو من باب استعطاف هذه السيدة لتحقيق رغباتهن في الاقتران بمن يعشقن من الرجال ! فضلاً عن مباركتها لعلاقة الحب !

اما قصص الحب التي لم تكن تحظى بمباركة هذه (الالهة) لا سيما اذا استتبعت اموراً شهوانية فاحشة ، فلعنتها ستحل على الحبيبين اللذين ارتضيا ان يغدو حبهما فسقاً ، وما قصة (إساف ونائلة) الا اوضح دليل على العاشقين اللذين لم يتمكنا من ترويض النفس بقهر الشره ، والطمع فيها ، وهما في الكعبة فمسخا حجرين ليتعظ الناس بهما[57] .

على ان لا ناخذ المعنى الظاهري للنص الذي اورده لنا ابن الكلبي في قوله : « فلما طال مكثهما وعبدت الاصنام عبدا معها ... وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما »[58] . لان هذا المعنى يضفي مسحةً من القدسية على هذين الصنمين لذاتهما بيد ان الحقيقة هي ان العرب كانت تؤدي شعائر حولهما ، لا تبركاً بهما ، او اقراراً بفعلهما ، انما كانت تخاطب الهة الحب من خلالهما الا يصيبهما ما اصاب (إساف ونائلة) ، وان تمنح الالهة محبيها بركتها ورضاها وتستجيب لادعيتهم وتراتيلهم ، معززة ذلك بالقرابين والهدايا . ونظير (إساف ونائلة) اجا وسلمى ، اللذان لعنتهما العرب قبل لعنة الهة الحب ، في قصة روتها المظان التاريخية والادبية[59] ، ليغدو (الجبلان) اللذان حملا اسمي العاشقين عبرة لكل عاشقين يفرطان بعلاقة الحب المقدسة . وبذلك تبدو الهة الحب في الفكر الاسطوري ، سيدة توهب الحب لكل عاشقين تسيطر على حبهما العفة والاخلاص والحرمان والطهارة ، لانه حب يمثل انتصار الروح على الجسد وهزيمة الشهوة الحيوانية .

وتلك هي الحالة الثابتة لعلاقة الحب بهذه الالهة (العقة) في ملحمة مفقودة الاصل لم يبق الا مدلولها الاسطوري والشعري واللغوي فضلاً عن الاجتماعي والديني . ومن هذا الباب قيل ان (العزى) استقرت هي الاخرى رمزاً ارضياً لالهة السماء (الزهرة) . « وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض »[60] . وقد تباينت صورها ، من صنم ، الى بيت ، الى شجرات الى حجر ابيض[61] ، ومع كل اشكالها ، انها الهة نجمية في عقيدة العرب ، للعادات الكثيرة المتعلقة بعبادة (نجمة الصباح) عند البابليين وغيرهم ، والموافقة للعادات التي انتشرت عند العرب في عبادة العزى ، بوصفها ممثلة لفصل الشتاء في اسطورة تموز البابلية[62] وذلك ماله نظير عند العرب ، في قولهم : « إن ربكم يشتو بالعزى لحر تهامة »[63] . وقد خصت قريش اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى بالتعظيم وكانوا يقولون : بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن اليه[64] حتى نزلت الاية الكريمة « افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذاً قسمة ضيزى . ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان »[65] .

ومثلما كان الحب منوطاً بالالهة ، كان قدر الموت كذلك منوطاً بها ، في الفكر الاسطوري بعد استئثارها بالخلود لنفسها !

وياتي عدم ضمان حياة افضل بعد الموت ، او في الاقل مشابهة للحياة الدنيوية في مقدمة الدوافع التي جعلت الانسان القديم ينظر الى الموت نظرة مشوبة بالكره والخوف والقلق ، ويتطلع الى نيل الخلود الذي كان حلماً يراود ذلك الانسان ، ويسعى الى تحقيقه من خلال ابطاله ، ومعاونة الالهة لهم ، على نحو ما نطالعه في ملحمة (كلكامش) وهي ترينا رغبة خالجت انسان وادي الرافدين في الحصول على سر الخلود[66] .

ويبدو ان العالم الاسفل ـ تحديداً ـ كان وراء رغبة الانسان

في الخلود ، على اساس انه مصدر تاتي منه الشياطين المؤذية او الارواح الشريرة ، والبيت الذي لا يرجع منه من دخله ، والبيت الذي حرم ساكنوه من التراب ، وحيث التراب طعامهم والطين قوتهم »[٦٧] . تلك ملامح العالم الاسفل في تصور سكان وادي الرافدين ، فلا جرم ان تحاشوه ، والتمسوا الخلاص منه ، او التخفيف من وطاته عليهم بعد موتهم ، فاتجهوا لهذه الغاية الى الهتهم يتضرعون اليها ، ان تعينهم على ما ينشدونه من امان في موضوعة الموت وعالمه الاسفل على السواء .

وتكشف لنا النصوص الاثارية المكتشفة عن حقيقة ان الالهة الاناث هنَّ حاكمات العالم الاسفل ، وفي مقدمتهن (ايرش ـ كيكال) « وهي الالهة الرئيسة في العالم الاسفل ، وكانت تحكم بمعاونة عدد كبير من الالهة الاخرى والاتباع من صغار الالهة الذين كانوا مكلفين بتنفيذ اوامرها وتحقيق رغباتها »[٦٨] . والمقطع الاول من اسمها (إيرش) لفظ اكدي يعني حرفياً (سيدة او ملكة) ... وبالنسبة لعبادة الالهة (ايرش كيكال) على الارض فكل ما نعلمه عنها انها كانت في مدينة (كوثي) بالمشاركة مع زوجها الاله (نركال) في معبده المسمى (اي ـ سلام) خلال العهد البابلي القديم[٦٩] .

ولعل اختيار الفكر الانساني الهة حاكمة للعالم الاسفل يحمل في تضاعيفه ما تتصف به الانثى من رقة المشاعر ، ورهافة الحس ، وعاطفة الحب مما يعني تخفيف وطاة ما سيلاقيه رعاياها لدى ارتحالهم الى العالم الاسفل . ثم ان اسطورة (إيرش ـ كيكال) تعبر عن مكانة المرأة في مجتمع بلاد وادي الرافدين القديم ، وقد عبرت عن هذه المكانة ايضاً (بعلة ـ صيرى) التي كانت كاتبة العالم الاسفل المقيمة[٧٠] .

هذا بالنسبة الى العالم الاسفل اما (الموت) نفسه ، فقد اختصت به ـ على مايبدو ـ الالهة (مامنتاتو) ، التي كان يتوجه اليها المتعبدون البابليون بالترتيلة القائلة :

مامناتو آلهة القدر والموت

ويا ايها الروح المخيف وملك الموت

ويبدو ان (مناة) الجاهلية هي (مامنتاتو) البابلية نفسها لان الدهر والقدر في تصور العرب رجل ، لا امرأة . اما « مناة » فهي ـ في زعمهم ـ انثى (ربة الموت) ، رمزوا لها بصنم[٧١] ، موضعه كان « على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، تتعبد له الاوس والخزرج ومن دان بدينهم من اهل يثرب[٧٢] ، وفي رأي ابن الكلبي هي من اقدم الاصنام ، وانها صخرة لهذيل وخزاعة[٧٣] .

ويبدو ان العرب « كانوا يستمطرون بها ، فتاتي الامطار لتغيث الناس »[٧٤] . ولذلك سموا الامطار على قلتها « غيثاً وحياً من الحياة »[٧٥] ، وبذلك تبدو (مناة) متحكمة في ـ زعمهم ـ بمعادلة الحياة والموت من كلا طرفيها ! كما ان العلاقة بين المنية و (مناة) واضحة ، فكثيراً ماوردت كلمة (المنايا) جمعاً في قصائد الشعراء الجاهليين ، كقول زهير ابن ابي سلمى في معلقته :

فقضــوا منــايــا بينهم ثم أصــدروا
الى كــلإٍ مُستــويَــلٍ مُتَــوخَــمِ[٧٦]

وقوله ايضاً :

رأيتُ المنــايــا خَبْطَ عشــواءَ من تُصِبْ
تُمِتْــهُ ومن تُخطِىءْ يُعَمَّــرْ فيَهْــرمِ[٧٧]

وقيل (المنون) هي المنية ، كما في قول ابي ذؤيب الهذلي :

أمِنَ المنــونِ وريبهــا تتــوجَّــعُ
والــدهــرُ ليس بُمعتِبٍ مَنْ يَجْـزَعُ

والذي يعنينا من هذا كله ان (مناة) ارست معالم توجه بدا فيه رد الفعل من حتمية الموت ، مفرغاً في اطار الاستنجاد بهذه الالهة ، ملتمسين منها ابعاد ما يكرهون من بؤس وشقاء او فرقة او موت ، زاعمين ان سعادة الانسان وشقاءه متوقفان على رضا هذه الالهة او سخطها .

وبدا لبعض المتشبثين بالحياة ، او المتوجسين من قدر الموت ان يلجأ الى وسطاء الالهة من (الكهان او الكواهن) يسالهم عن موعد موته ! (على نحو ما نطالعه في سيرة (الزباء)[٧٩] و (ربيعة بن نصر اللخمي)[٨٠] . والشاعر (المثون التغلبي)[٨١] ، بعد ان وقر في نفوس الناس ـ قديماً ـ « ان الكهنة قد خصتهم الالهة بهبة اختراق الغيب ، فصار بوسعهم التنبؤ بوساطة عناصر عدة ، وعلامات فال كثيرة ، وتسخيرها لخدمتهم »[٨٢] . ذلك هو دواعي وجود الكهنة ، ودلالة حرفتهم ، اذ اطلق على الاتصال بالالهة والارواح (الكهانة) ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن او الكاهنة ، فضلاً عن براعتهم في فنون السحر[٨٣] .

وقد استقر في اذهان الكثيرين ان مع كل واحد من هؤلاء الكهنة رئياً من الجن ، او شيطاناً يخبره بما غاب عنه ، وان الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على السنة الكهنة فيؤدون الى الناس الاخبار ، بحسب ما يرد اليهم[٨٤] .

ولم تكن (الكواهن) اقل شاناً من (الكهان) ، بل يمكن القول ان العرب عبر تاريخهم ـ قبل الاسلام ـ « نسبوا الى الكواهن احداثاً اعظم مما نسبوا الى الكهان وفي ذلك دليل على ان المرأة كانت في نظرهم جديرة بان تستفتى ، وان تتنبأ بالغيب ، وان يطاع نصحها ، وتتبع مشورتها »[٨٥] .

ولم يكن علو المرأة في اطار زعامتها (الكهنوتية) مقصوراً على المجتمع الجاهلي ، اذ نطالع اخباراً تفصح عن احتلالها هذه المكانة في المجتمعات القديمة ، فقد كان (الاشوريون) « يعتقدون ان المرأة وحدها التي تستطيع ان تفهم السحر وتمارسه وان تعرف الغيب وتتكهن به »[٨٦] .

وفي بلاد وادي النيل نجد ذكراً لكاهنات وخاصة في عبادة الالهات كالالهة (هاتحور) والمعبودة (نيت)[٨٧] . وفي

اليونان كاهنات يمارسن عملهن بماله نظير في حضارات الامم الاخرى[88] .

وحسبنا ان ننتقي بعض اخبار (الكواهن) لنقيم القناعة بكفاءة النساء في الكهانة ، ففي المظان ان (طريفة الكاهنة) نسب اليها التكهن بـ(سيل العرم) بعد ان رأت في كهانتها ان سد مارب سيخرب ، وانذرت بذلك (عمرو بن عامر) الذي يقال له (مزيقياء) ، فباع امواله وارتحل هو وقومه حتى انتهوا الى مكة ، وكانت (طريفة) معهم ، ثم اصابتهم الحمى فاشارت عليهم ان يتفرقوا في جهات أخر فاطاعوها[89] .

ولم يقتصر وجود (الكواهن) على التنبوء بالغيب ، بل تعداه الى احتكام العرب اليهن في الخصومات والمنافرات (كاحتكام عبد المطلب وقريش الى كاهنة بني سعد (هذيم) ، بشان حفر بئر زمزم[90] ، فضلاً عن التيمن بوجودهن في القتال ، ففي اخبار (رقاش) الكاهنة ، وهي امرأة من طيء ، انها كانت تغزو ويتيمن الرجال بوجودها بينهم ، وهي الحقيقة التي سجلها احد شعراء العرب في قوله :

كـانت رقـاش تقـود جيشـاً جحفـلاً
نصبت وافر بمن صبا لن يحسلا[91]

ولم تكن الكهانة تعني شيئاً دون امتلاكها الوسائل التي تعمل عملها ، ولعل السجع كان ابرز هذه الوسائل ، بوصفه ارفع مراتب الكهانة ، لان معنى السجع اخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء ، حتى جعل السجع مختصاً بالكهنة بمقتضى الاضافة ، على الرغم من ان كثيراً من العرب كان يتعاطى السجع ، الا ان لسجع الكهنة « لغة خاصة متسمة بالغموض واحتمال التاويل ليسلم الكاهن او الكاهنة من اللوم اذا اخطأ الناس في التاويل او كذبت الحوادث والايام ما يفهم من تلك الكهانات »[92] .

وكان سجع الكواهن – كسجع الكهان – يمتلك رنيناً موسيقياً وبقماً جميلاً ، فيؤثر في النفس وتجتذب موسيقاه قلوب السامعين ، معززاً هذا السجع بكل انواع القسم والتراتيل ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، قسمهن بالسماء والماء والارض والهواء والنور والضياء والظلمة ، وبغير ذلك مما هو موجود في اخبارهن مما جعل سجعهن دينياً محضاً مغايراً لسجع غيرهم[93] . زاعمات ان في هذه الاشياء قوى وارواحاً خفية تفصح لهن عن الامور الخافية ، فضلاً عن استدلالهن بحركة الطيور ، والحيوانات واصواتها ، وسائر احوالها ، مما اصطلح عليه تسمية (الزجر والعيافة) ، دون اغفال ممارستهن (طرق الحصى) بوصفه ضرباً آخر من التكهن[94] .

وخلاصة ما يمكن قوله ان الكواهن تعين على فهم فكر الانسان المؤله القادر على معرفة الحوادث المستقبلية ، بعد ان وهبن انفسهن للالهة ومعابدها ، حتى يحظين بهذه المنزلة .

ومثلما تبوأت المرأة الزعامة الكهنوتية ، فقد تبوأت ايضاً الزعامة الدنيوية ، بل يمكن القول انها جمعت بين الكهانة والملك لأول الامر ، قبل ان تستقل الكهانة وظيفة قائمة بنفسها ، ويتكفل (الكهنة) في اداء المهمات الدينية ، واقامة الاحتفالات والطقوس والشعائر في المعابد[95] .

وكان الملوك – في التاريخ القديم – ومنهم ملوك العرب يحكمون بفضل دعاوى قدسية المولد ، وقدسية الحكم ، وفي هذا الشان يقول (بروكلمان) « ان ملوك العرب كانوا الهة انتسب بعض القبائل اليهم ... وخلقوا ملوكاً الهوا انفسهم »[96] . ثم ان في لقب ملوك (سبا) ما يفصح عن الوهية الملوك ، اذ قيل ان معنى تلقبهم بـ« مكرب » يعني المقدس ، وامير الكهنوت ، والمقرب من الالهة ، او الوسيط بين الالهة والناس[97] . فضلاً عن مزاعم الناس بشان امتلاك الملوك بعض القوى السحرية التي تجعلهم قادرين على الاستمطار ، واخضاع الجن لهم ، ومنح الخير والبركات[98] . على هذا الاساس احتل الملوك منزلة سامية ذات اجلال ورهبة وطاعة في النفوس ، يقولون فيرضى قولهم ، ويحكمون فيمضي حكمهم ، ومن هذه المعتقدات التي ترسخت في شخصية الملوك ، نستطلع اخبار النساء اللواتي تبوأن الملك في تاريخ العرب القديم ، بادئين بـ(بلقمة) احدى ملكات سبا ، ومعنى اسمها بلغة حمير (الزهرة) ، وفي ذلك دليل على عمقها الاسطوري ، اذا عرفنا ان هذا الكوكب السماوي كان من مؤلهات العرب المقدسة – كما مر بنا – وهناك من يذهب ان بلقمة هي (بلقيس) وفي سيرتها انها ملكة كانت تستشير ذوي الرأي ، ولا تستبد في حكمها ، وكان شعبها يعبد الشمس[99] .

وهناك (الفارعة) التي حكمت (سبا وريدان وحضرموت) ، والملكة (لميس) بنت اسعد التي يقول فيها علقمة بن ذي جدن :

ولميس كـانت في ذؤابـة تـابع
يجبى اليهـا الخـرج سـاكن بـرير[100]

وفي مملكة (تدمر) تبرز الملكة (زنوبيا) واحدة من الشخصيات المهمة في تاريخ الشرق القديم ، حتى قيل انها اذا اطلت على الناس حسبوها آلهة ، وكانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة ، ومتمتعة بصفات المرأة المحاربة التي وقفت ضد الرومان في ارض تدمر العربية ، مما حدا بهم الى القضاء عليها ، واخذها اسيرة الى روما ، وبانتهاء حكمها ، تفقد (تدمر) عظمتها وتتوارى عن المسرح السياسي الحضاري[101] .

ونطالع في المظان الادبية والتاريخية نساء تبوأن زعامة في المجتمع القبلي ، نستدل عليها من تسمية بعض القبائل باسمائهن كـ« خندف » و« بجيلة » و« مزينة » و« باهلة » و« عاملة » وغيرهن[102] ، وفي ذلك مؤشر على ان المرأة كانت في الحياة الاجتماعية عزيزة عالية القدر ، ذات شخصية ، ورأي وحرية ، فضلاً عن الخوارق والاعاجيب التي احيطت

ببعضهن ، (كام قرفة) التي ضربت العرب المثل بعزتها ، فقالوا : « امنع من ام قرفة وهي امرأة فزارية ، كانت زوجة لمالك بن حذيفة بن بدر ، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين فارساً كلهم لها محرم »[١٠٣] .

ومثل هذه النسوة تنبىء باثار التاريخ العريق للمرأة التي تدوولت اخبارها من امتداد واقعي غير مرئي لعمق اسطوري متحسس ، ومعنى ذلك ان للمرأة سفراً خالداً تبوأت فيه مكاناً رفيعاً لم تتبوأه اختها المعاصرة لها لا سيما من منظور الفكر الاسطوري الذي غدت فيه آلهة ، او من اشباهها ، او من اتباعها ، او وسيطة بين الالهه والناس ، او ملكة ، او زعيمة اسبغت عليها مظاهر التأليه والتقديس ، ناهيك عن مكانتها في مرحلتها الواقعية وهي في الحالتين تؤدي وظيفتها الطبيعية ـ (ام ـ اخت ـ زوجة ـ ابنة ـ حبيبة) فهي سجل حافل بالنشاط في بعديه الواقعي والاسطوري للمجتمع العربي في عصوره المتقدمة ، بوجه خاص .

الهوامش ومصادرها :

(١) انظر : الاسطورة ، د . نبيلة ابراهيم . (الموسوعة الصغيرة ـ ٥٤ ـ) . بغداد ١٩٧٩ : ص ١٣ وما بعدها .
(٢) الاساطير ـ دراسة حضارية مقارنة ـ د . احمد كمال زكي ، القاهرة ١٩٧٥ : ص ٥٦ .
(٣) الاسطورة اليوم ، رولان بارت ، الترجمة حسن الغرفي (الموسوعة الصغيرة ـ ٣٤٥) . بغداد ١٩٩٠ : ص ٥ .
(٤) انظر العين ، تحقيق د . مهدي المخزومي ، ود . ابراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٨٤ : (سطر ٧ / ٢١٠ ، جامع البيان (تفسير الطبري) ، مصر ١٩٥٤ : ٩ / ص ٢٣١ .
(٥) الاسطورة في الشعر العربي ـ قبل الاسلام ـ احمد اسماعيل النعيمي ، اطروحة دكتوراه ، اجازتها كلية التربية / ابن رشد ١٩٩١ : ص ٤١ .
(٦) انظر : الغصن الذهبي ، جيمس فريزر ، ترجمة احمد ابو زيد ، مصر ١٩٧١ ، ١ / ٤٣ وما بعدها .
(٧) التفكير الخرافي ، د . نجيب اسكندر ، ود . رشدي فام منصور ، القاهرة ، ١٩٦٢ : ص ٢٨ ـ ٢٩ .
(٨) التاريخ العربي القديم ، ديتلف نيلسن وآخرون ، ترجمة د . فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٠٢ .
(٩) في طريق الميثولوجيا ، محمود سليم الحوت ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٩١ .
(١٠) انظر : التفسير الجدلي للاسطورة ، عدنان بن ذريل ، دمشق ١٩٧٣ ، ص ٧٣ .
(١١) المصدر نفسه ، ص ١٢١ .
(١٢) مروج الذهب ، المسعودي ، مصر ١٩٥٦ : ٢ / ٢٦٣ .
(١٣) ماقبل الفلسفة ، هنري فرانكفورت وآخرون ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، بغداد ١٩٦٠ : ص ٨١ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ٨١ .
(١٥) الأصنام ، ابن الكلبي ، تحقيق احمد زكي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٢ مع هامشها .
(١٦) التاريخ العربي القديم ، ص ٢٠٢ .
(١٧) اللسان ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٦ : اله .
(١٨) المفصل في تاريخ العرب ـ قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٨٠ : ٦ / ٣٠٠ .
(١٩) انظر : اللسان ، شمس .
(٢٠) معجم الاساطير ، لطفي الخولي . بغداد ١٩٩٠ : (شمس) ٢ / ١١٣ .
(٢١) الازمنة والامكنة ، المرزوقي ، حيدر آباد ـ الهند ١٣٣٢ هـ : ٢ / ٥٠ .
(٢٢) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٦ : الاهة .
(٢٣) اللسان ، اله .
(٢٤) انظر : التاريخ العربي القديم ، ص ٢١٠ .
(٢٥) كلكامش ، د . سامي الاحمدي ، بغداد ١٩٩٠ : ص ٢٤ .
(٢٦) انظر : البطولة في الشعر العربي ، د . شوقي ضيف (سلسلة اقرأ) العدد (٣٣١) . مصر ١٩٧٠ ، ص ٩ .
(٢٧) المعتقدات الدينية في العراق القديم ، د . سامي الاحمد ، بغداد ١٩٨٨ ، ص ٧٣ .
(٢٨) ديوان الخنساء ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت ١٩٦٣ : ص ١٢٢ .
(٢٩) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر ، بغداد ١٩٥٦ ، ٢ / ٥٦١ .
(٣٠) معجم الاساطير ، لطفي الخولي ، شمس : ٢ / ١١٣ .
(٣١) انظر ، معجم البلدان ، (الاهة) و (شمس) .
(٣٢) اخبار مكة ، للازرقي ، مكة المكرمة ، ١٩٦٥ : ١ / ١٣٦ .
(٣٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، د . احمد الحوفي ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٣٨٧ .
(٣٤) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مصر ١٩٨٢ : ١ / ٤٦٠ .
(٣٥) ديوان امية بن ابي الصلت ، تحقيق ودراسة ، د . عبد الحميد السطلي ، دمشق ١٩٧٤ : ق ١٠ / ص ٣٦٦ .
(٣٦) صبح الاعشى ، القلقشندي ، القاهرة ١٩٦٣ : ١ / ٤٠٧ .
(٣٧) ديوان طرفة بن العبد . تحقيق كرم البستاني . بيروت ١٩٥٣ ، ص ٥٢ .
(٣٨) شرح المعلقات السبع الزوزني ، بيروت ١٩٧٢ : ص ٦٥
(٣٩) انظر : الصورة الفنية في الشعر العربي ، د . علي البطل ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٥٧ .
(٤٠) ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٧٧ : ق ٧٩ / ص ٣٣١ .
(٤١) المفضليات ، المفضل الضبي ، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون مصر ١٩٦٤ : ق ٤٠ /

(٤٢) المصدر نفسه : ق ١٦ / ص ٩٢

(٤٣) انظر : الصورة الفنية في الشعر العربي : ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٤٤) المصدر نفسه : ص ٥٧ .

(٤٥) معجم الاساطير : عشتار : ٢ / ص ١٢٩

(٤٦) انظر : اساطير الحب والجمال عند اليونان ، د . دريني خشبة ، بغداد ١٩٨٦ ، ٢ / ٤٩ ـ ٥٠ .

(٤٧) انظر : تاريخ العرب ، فيليب حتي ، وآخرون ، بيروت ١٩٧٤ : ٩٥ ـ ٩٦ .

(٤٨) تراث الحب في الادب العربي ـ قبل الاسلام ـ ، د . عادل البياتي ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد السابع ١٩٨٣ (مستلة) : ص٩٢ .

(٤٩) اللسان : ودق .

(٥٠) المفضليات : ق ١٠ / ص ٥٦ شعر بشامة بن الغدير ، تحقيق عبد القادر عبد الجليل ، مجلة المورد ، العدد (١) ، ١٩٧١ : ص ٢١٦ .

(٥١) اللسان : ودق .

(٥٢) انظر : رمز المرأة في ادب ايام العرب ، د . عادل البياتي ، مجلة آداب جامعة بغداد ، العدد الثاني والعشرون ، ١٩٧٨ : ص ١٦٠ .

(٥٣) ديوان امرىء القيس : ق ١ / ص ٢٢ .

(٥٤) ديوان شعر الحادرة ، تحقيق د . ناصر الدين الاسد ، بيروت ١٩٧٣ ، ق ٥ / ص ٨١ .

(٥٥) انظر : تراث الحب في الادب العربي ـ قبل الاسلام ـ : ص ٩٠ .

(٥٦) الاصنام : ص ٥٦ .

(٥٧) انظر : السيرة النبوية ، ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، بيروت ، د . ت : ١ /ص ٨٤ .

(٥٨) الاصنام : ص ٢٩ .

(٥٩) معجم البلدان ، اجأ ، وسلمى .

(٦٠) الاصنام : ص ١٨ .

(٦١) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠ .

(٦٢) انظر : الاساطير والخرافات عند العرب ، د . محمد عبد المعيد خان ، بيروت ١٩٨١ : ص ١٣٢ .

(٦٣) اخبار مكة : ١ /١٢٦ .

(٦٤) الاصنام : ص ١٩ .

(٦٥) النجم : ١٩ .

(٦٦) انظر : ملحمة كلكامش : طه باقر ، بغداد ١٩٧٠ : ص ٢٢ .

(٦٧) المصدر نفسه : ص ١٠٤ .

(٦٨) عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين القديمة ، نائل حنون ، بغداد ١٩٨٦ : ص ١٨٨ .

(٦٩) المصدر نفسه : ص ١٩١ .

(٧٠) المصدر نفسه : ص ٢٧٠ .

(٧١) الاساطير والخرافات عند العرب : ص ١٣٨ .

(٧٢) السيرة النبوية : ١ /٨٧ ـ ٨٨ .

(٧٣) الاصنام : ص ١٤ .

(٧٤) معجم الاساطير : مناة : ٢ /٢٠١ .

(٧٥) العصر الجاهلي ، د . شوقي ضيف ، مصر ١٩٨٢ : ص ٢١ .

(٧٦) شرح المعلقات السبع للزوزني : ص ١١٦ .

(٧٧) المصدر نفسه : ص ١١٨ .

(٧٨) ديوان الهذليين (شعر ابي ذؤيب) القاهرة ١٩٦٥ : ١ /ص ١ .

(٧٩) انظر : الكامل في التاريخ ، لابن الاثير ، بيروت ١٩٦٥ : ١ /٣٤٩ .

(٨٠) انظر : السيرة النبوية : ١ /١٥ .

(٨١) انظر : الشعر والشعراء : ١ /٤١٩ .

(٨٢) المعتقدات الدينية في العراق القديم ، د . سامي الاحمدي : ص ٦٤ .

(٨٣) المفصل في تاريخ العرب ـ قبل الاسلام ـ : ٦ /١٥٥ .

(٨٤) انظر : البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ١٩٨٥ ، ١ /٢٨٩ .

(٨٥) المرأة في الشعر الجاهلي ، د . احمد محمد الحوفي ، مصر ١٩٧٧ : ص ٤١١ .

(٨٦) المصدر نفسه : ص ٤١٢ .

(٨٧) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ـ حضارة وادي النيل ـ بغداد ١٩٥٦ : ٢ /٢٧٦ .

(٨٨) الاساطير ـ دراسة حضارية مقارنة ، ص ١٠٦ .

(٨٩) انظر : التيجان ، وهب بن منبه ، حيدر آباد ، الهند ، ١٩٦٢ : ص ٢٦٥ .

(٩٠) انظر : السيرة النبوية : ١ /١٣٥ .

(٩١) فصل المقال في شرح كتاب الامثال ، البكري ، تحقيق د . احسان عباس ، ود . عبد المجيد عابدين ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٣٣٩ .

(٩٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق حجر ، عاصي ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٧٢ .

(٩٣) انظر : ايمان العرب ، النجيرمي ، تحقيق محي الدين الخطيب : ص ٣٢ .

(٩٤) انظر : بلوغ الارب ، الالوسي ، مصر ، د . ت : ٢ /٣٠٧ ومابعدها .

(٩٥) قصة الحضارة ، ل . ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ١٩٦٥ : ٢ /١٦١ .

(٩٦) تاريخ الشعوب الاسلامية : ص ٨ ، نقلاً عن كتاب « الاساطير ـ دراسة حضارية مقارنة ـ » ص ٩٧ .

(٩٧) انظر : دراسات في تاريخ العرب ـ عصر ماقبل الاسلام ـ د . السيد عبد العزيز سالم ، مصر ١٩٦٨ : ص ١٥٨ .

(٩٨) انظر : الغصن الذهبي : ص ١٠٠ ، ص ٣٢٤ .

(٩٩) انظر : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٧٩ : ١ /٢٥٤ .

(١٠٠) شمس العلوم ، نشوان سعيد الحميري : ص ٨ ، نقلاً عن كتاب المرأة في الشعر الجاهلي : ص ٥٣٠ .

(١٠١) انظر : اخبار (الزباء) باتساع وتفصيل في دراسات تاريخ العرب ـ عصر ماقبل الاسلام ـ : ص ٢٥٣ ومابعدها .

(١٠٢) انظر : صبح الاعشى : ١ /٣٢٩ ومابعدها .

(١٠٣) مجمع الامثال ، الميداني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت د . ت : ٢ /٣٢٣ .

*

ملف المرأة

ديوان صفية

جمع وتحقيق

ليلى محمد الحيالي

كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

السيدة صفية بنت عبد المطلب (رض)

هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية ، القرشية ، عمّة رسول الله (ﷺ) .

أمها هالة بنت وهيب بن عبد مناة بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي ، وهي خالة الرسول (ﷺ) .

زوجها العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهو أخو خديجة الكبرى (رضي الله عنها) زوج رسول الله (ﷺ) .

ابنها الزبير بن العوام الذي قال عنه الرسول (ﷺ) انه من حواريّه . اخوانها حمزة والعوّام وحجل بني عبد المطلب . ومجموع اخوانها عشرة إخوة وست أخوات . أبناؤها الزبير والسائب وعبد الكعبة .

تزوجها الحارث بن حرب بن أمية في الجاهلية ، فولدت له صيفي بن الحارث ثم هلك عنها . فتزوجها العوام بن خويلد أبو الزبير . وكان ابنها الزبير من أوائل المسلمين ، فدخل الاسلام وهو ابن ثماني سنين، وهاجر الى الحبشة ، ولم يتخلف عن الرسول في غزاة ، وقتل يوم الجمل غيلة .

أجمعت المصادر على إسلام صفية دون سائر عمات النبي (ﷺ) وحسن إسلامها[1] .

كانت صفية أماً مثالية في تربية أبنائها ، فهي تارة تحنو عليهم ، وتشفق وترقّ لحالهم ، وأحياناً تغلظ وتقسو عليهم ، ليكونوا رجالًا أشداء عند الكبر . روى أنّ نوفل بن خويلد أخا زوجها العوام ، كان قد ولي ابن أخيه الزبير فلاحظ بعض الغلظة في معاملة صفية لابنائها ، فكانت تضرب الزبير في صغره ، فعاتبها عنه في ذلك ، وقال :

« ما هكذا يضرب الولد ، إنّك لتضربينه ضرب مبغضةٍ » .

فارتجزت صفية قائلة[2] :

من قال إنّي أبغضُهُ فقد كذبْ
وإنما أضربُهُ لكي يَلَبْ
ويهزم الجيشَ ويأتي بالسَلَبْ
ولا يكن لماله خبأً مُخَبْ

وفي الوقت نفسه كانت صفية أرقّ من شغاف القلب في حنوّها وعطفها على أبنائها ، فمن ذلك قولها لابنها الزبير في صغره[3] :

إن ابني الاصغر خبٌ حنكلْ
أخافُ أن يمقتني ويبخلْ
يا ربّ امتعني ببكري الاولْ
بالماجدِ الفياضِ والمؤملْ

فكانت تدعو الباري عزّ وجلّ ، أن يمتّعها بابنائها ، ولا سيما بكرها الاول الزبيرَ بن العوام .

وحين كُسر ابنها يد غلامٍ في مكة ، جيء بالغلام إليها فقالت[4] :

كيف وجدتَ زبرا
أأقطاً حسبته أم تمرا
أم مشمعلًا صَقرا

فكانت تشجع ابنها ليكون بطلًا مقداماً يدافع عن نفسه ويذبّ عن ذويه ويحميهم من أيدي المعتدين ، وتمدحه وتقول أنه صقرا في شجاعته فلا تستهين بصغرِ سنه .

وقالت صفية[1] في ابنها السائب الذي استشهد يوم اليمامة[5] :

سبتني السائب من خلفِ الجُدُرْ
لكن أبو طاهر زَيار أمر
مبْذرُ لمالِهِ بَرّ غفز

وقد مدح رسول الله (ﷺ) نساء قريش فقال[٦] : « إنَّ خَير نساءٍ ركبْنَ الابل نساء قريش ، أحناهُ على ولدٍ في صغرهِ »[٧] .

مواقف خالدة :

وجدت صفيةُ على مصرع أخيها الحمزة (رض) ، وتألمت واحتسبت حين قتل حمزة يوم أحد شهيداً ، ومُثل بجسده ، فعلمت ابنتهُ أمامة وقدمت من مكة الى المدينة مع صفية .

كان مشهد حمزة ، رهيباً ، صعباً ، قاسياً يذيب الحديد بقساوته ، كانت الدموع ألسنة القلوب ، كانت الشكوى لله وحده .

كانت صفية صلبة قوية ، عظيمة الباس ، أشد ما تكون عليه أمرأة من الصبر والتحمل ، لقيها ابنها الزبير بن العوام (رض) فقال :

« يا أمه ، إن رسولَ الله (ﷺ) يامرك أن ترجعي ، قالت : ولِمَ ، قد بلغني أنه مُثّل بهِ ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لاصبرنّ واحتسبن إنْ شاء الله[٨] .

وعلم رسول الله بذلك فقال للزبير :

« فخلِّ سبيلها » فاتت اليه ، واستغفرتْ له ثم أمرَ به فدُفِنَ (رض) .

وكان الرسولُ (ﷺ) يُحبها ويحرصُ على مراعاة أحاسيسها ومشاعرها ، فقال حين مُثّل بحمزة :

« لو لا ان تحزنَ صفية ، ويكونَ سنةً من بعدي ، لتركْتُه حتى يكونَ في بطون السباع وحواصلِ الطير[٩] » .

شهدتِ السيدةُ صفية (رض) كثيراً من معارك الرسول (ﷺ) ودافعتْ عنه وعن المسلمين بكل ما استطاعت من قوة ، فمن أمثلة بطولتها ، أنّ الرسول (ﷺ) أبقى حسان بن ثابت الشاعر مع النساء والاطفال ، حين كان المسلمون يقاتلون في غزوة الخندق ، وكانت عادةُ الرسول (ﷺ) أن يبقي رجلًا من الصحابة مع النساء والأطفال في كل غزوة حفاظاً عليهم .

ففي غزوة الخندق كان حسانُ مع صفية . وبقية النساء وأطفالهن ، في الحصن المعروف (بحصن حسان) ، فمرَّ رجلٌ يهودي يَطوفُ بالحصن ، وكانت بنو قريظة قد حاربت رسولَ الله (ﷺ) ، وقطعت ما بينها وبين الرسول ، ولم يكن في الحصن من يدافع عن النساء والاولاد[١٠] . فقامتْ صفية إليه فضربته حتى قطعت رأسه ، ثم حملت رأسه وزمت به على اليهود الذين أحاطوا بالحصن . وهذه قصة نادرة من قصص البطولة والشجاعة ، والفداء لدى المرأة العربية ، فكانت صفية أول امرأة قتلت رجلًا من المشركين ومن أعداءالله . وشهدتْ الخندق وضربَ لها عليه الصلاة والسلام بسهم ، فعند نزول : « وأنذِرْ عشيرَتكَ الاقربين » قام رسول الله (ﷺ) فقال[١١] :

يا فاطمةُ بنت محمد ، يا صفيةُ بنت عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم » .

شاعرية صفية :

تحرج كثير من العلماء والنقاد القدامى من ذكر قرابة النبي (ﷺ) ، وتحفظوا فيما ذكروه أو رؤوه عن نساء النبي او عماته او قرابته ، لامور دينية وسياسية واجتماعية . فكلُّ ما وصل إلينا كان يجري على الالسن مجرى الامثال ، اولشهرته وحفظه في صدور الرجال ، أو أستخدمتْ أشعارُ النساء كشواهد لغوية أو نحوية أو بلاغية ، أو لسرد الاحداث التاريخية المحددة بزمان أو بمكان أوشخصيات إسلامية .

فاشعار صفية التي وصلت إلينا كانت مبعثرة في بطون الكتب المختلفة ، مثل كتب السيرة ، والمجموعات الشعرية وكتب التاريخ ، وكتب الأدب والبلاغة وكتب اللغة والالفاظ .

وإن هذه الظاهرة ، أي انتشار الأبيات الشعرية في ثنايا تلك الكتب ، وجودتها ورقتها لدليل أكيد على وجود اشعار اخرى لم تصل الينا والاستشهاد باشعار الشواعر دليل اخر على بلاغة وفصاحة وجمال اشعار النساء .

فيمكن ان نستنتج على شاعرية صفية من خلال الأطلاع على أشعارها في المناسبات المختلفة ، وصدق تعابيرها عن مشاعرها وعذوبة ألفاظها ، وعمق معانيها فقد روي أن عبدَ المطلب حين حضرته الوفاة جمع بناته الشت وقال لهن :

« ابكينَ عليّ ، حتى اسمع ما تقلْنَ قبل أن أموتْ[١٢] » .

فبدأنَ يقول الشعر على التعاقب بينهن . فكانت أولاهن صفيةُ ، ثم برّة ، ثم عاتكة ، ثم أم حكيم البيضاء ، ثم أميمة وأخيراً أروى .

فقالت صفية في رثاء أبيها ساعة الاحتضار[١٣] :

١ ـ أرقت لصــوت نــائحــة بليــلِ
على رجــلٍ بقــارعــةِ الصعيــد[١٤]

٢ ـ ففاضت عند ذلكمْ دموعي
على خدي كمنحدرِ الفريدِ[١٥]

٣ ـ على رجلٍ كريم غير وغْلٍ
له الفضلُ المبينُ على العبيدِ[١٦]

٤ ـ على الفياض شيبة ذي المعالي
أبيكِ الخيرِ وارثِ كلِّ جودِ

٥ ـ صدوق في المواطن غيرِ نِكْسٍ
ولا شَخْتِ المقامِ ولا سَنيدِ[١٧]

٦ ـ طويل الباع أروع شيظميٌّ
مُطاع في عشيرتهِ حميدِ[١٨]

٧ ـ رفيعَ البيتِ أبلجَ ذي فُضولٍ
وغيثِ الناسِ في الزمن الحرودِ[١٩]

٨ ـ كريمِ الجدِ ليس بذي وصُومٍ
يروق على المسوَّدِ والمَسودِ[٢٠]

٩ ـ عظيمِ الحلمِ من نفرٍ كرامٍ
خضارمةٍ ملاوثةٍ أسودِ[٢١]

١٠ ـ فلو خلَدَ امروٌ لقديمِ مَجدٍ
ولكن لا سبيلَ إلى الخلودِ

١١ ـ لكان مُخلداً أخرى الليالي
بفضلِ المجدِ والحسبِ التليدِ

كانت اشعار صفية رقيقة ، بسيطةً ، سهلةٍ ، متينةُ السبكِ ، تجري على لسانها بغير تكلف او عناء ، صادقة التعبير ، حسنة التصوير ، عميقة التاثير ، جزلة الالفاظ ، بعيدة المغزى ، شعرها سهلٌ ممتنع .

فاشهر الاغراض الشعريةِ التي تناولتها ، الرثاء والنواحُ ، مثلُ رثائها لابيها ، ثم رثائها حمزة أخيها ، ورثائها للنبي (ﷺ) ، وسيأتي ذكرها في باب التحقيق إنْ شاء الله .

ولها في الترقيص وتوجيه أبنائها[٢٢] :

يـا ربِّ امتعني ببكـري الاول
بـالماجدِ الفياضِ والمؤمـل

ومن أشعارها في الفخر والمديح ، قالت حين حَفر عبد المطلب بئر زمزم ، وتشرف بهذا العمل المبارك ، لمنزلة بئر زمزم المقدسة ، إذ أنَّ إسماعيل (ع) كان قد حفره منذ القِدم ، وبمرور الايام ، غورت تلك السيولُ ، وعفتها الامطار ، فلم يبق لزمزم أثر يعرف ، فاعاد حفره عبد المطلب ، وقالت صفية في ذلك[٢٣] :

نحنُ حفرنا للحجيجِ زمزمْ
سُقيا نبي الله في المحرم
ركضة جبريلَ ولمّا يُفطمْ

ولها في التباهي والفخر حين حفر بنو عبد الدار بئر أحراد وتباهت ضرتها بذلك وهي أمية بنتُ عُميلة بن السباق بن عبد الدار ، زوجة العوام بن خويلد ، وقالت أمية[٢٤] :

نحن حفرنا البئر أم أحراد
ليست كبَذر النزورِ الجماد

فاجابتها صفية (ضرتها)[٢٥] :

نحنُ حفرنا بذرْ
نسقي الحجيجَ الاكبرْ
من مقبلٍ ومدبرْ
وأم أحراد شرْ

ولصفية أشعار تكشف عن وقائع تاريخية ، عظيمة الاثر في تاريخ الاسلام ، فقد شاركت في احد ، والخندق ، وخيبر ، ولها في كلِّ غزوة موقف مشرف .

وقد جهل الباحثون قيمة أشعار النساء في العصر الاسلامي وأهميته ، وأتهموه بالضعف ، وأحياناً لم يتعرضوا لذكره . إلّا أنَّ مراثي صفية في أخيها الحمزة ومراثيها لرسول الله (ﷺ) ، وعذوبة أشعارها لدليلٌ جدير بالدرس والتمحيص لاشعارها . إذ لم يعرف الباحثون العربُ من الشواعر غير الخنساء وليلى الاخيلية فكان كلُّ باحث يتكلُ على من كتب قبلهُ ، ويكتفي برأيه حولَ الشواعر .

أما اليوم فالحقيقة تختلف عن السابق ، حقيقة الشعر النسوي ، غيّرَ مجرى التاريخ الادبي ، وجودُ شواعر كُن مهملات بين طيات الكتب .

وخاطب الشعراء صفية في مراثيها ، وفي أحزانها معبّرين عن مواقف صفية النبيلة تجاه الاسلام ، والمسلمين ، فقال كعب بن مالك الانصاري فيها[٢٦] :

صفيـة قـومي ولا تعجـزي
ويكّي النسـاء على حمـزة

ولا تســـامي أن تُطيلي البُكـــــا
على أســـدِ الله في الهـــزة
لقـــد كـــان عِـــزّاً لايتامنـــا
وليث المـــلاحمِ في البـــزة
يـــريـــدُ بـــذاك رضـــا أحمـــدٍ
ورضـــوانَ ذي العـــرش والعـــزةِ

وقال الوليد بن عقبة يمدحُ صفيةَ ، التي كانت سبباً مهما في عز وكرامة ابنها ، ولولاها ما عرف ابنُ الزبير في زمنِ معاوية[٢٧] :

ولـــولا حـــزةُ مهـــدتْ عليكم
صفيـــةُ مـــا عـــددتُم في النفيـــرِ
ولا عُـــرفَ الـــزبيـــرُ ولا أبـــوه
ولا جلس الـــزبيـــرُ على الســـريـــر
وذدنـــــا لن أمكم غـــرابٌ
لكنتم شـــر طيـــر في الطيـــورِ

وقد اختلف المؤرخون والادباء في نسبه الاشعار الى صفية ، وخلطوا بين اشعارها ، وأشعار حسان بن ثابت ، شاعر الرسول (ﷺ) الذي كان أشعرَ أهل المدر وأشعرَ الانصار .

واذا كان اختلاط أشعار صفية لا يمكن تمييزه وعزله عن اشعار حسان فذلك دليل واضح على كون اشعارها بمنزلة عالية فنية في جودة السبك وحسن التعبير وعمق التصوير ، وسلامة الالفاظ ، وحسن صياغتها . مثال ذلك : القطعة الشعرية في رثاء الحمزة :

(أســـائلةٌ اصحـــابَ أحـــدٍ مخـــافـةً
بنـــاتُ ابي من اعجمٍ وخبيـــر[٢٨])

او الخلط بين أشعار صفية وأشعار فاطمة بنت محمد (ﷺ)في :

قـــد كـــان بعـــدك أنبـــاء وهنبثـــةُ
لـــوكنت شـــاهـــدهـــا لم تكثـــرِ الخطبُ[٢٩]

وخلط بشير يموت في جعلها شاعرة جاهلية وهو خطأ ، حيث نجد أكثر اشعارها في ظل الاسلام .

وتوفيت صفية (رض) في خلافة عمر سنة ٢٠ هـ ولها من العمر ثلاث وسبعون سنة[٣٠] ، وقيل في خلافة عثمان رضي الله عنهما ، وتركت اجواء التاريخ الاسلامي يعبق بعطرها ، واريج ذكراها لتكون قدوة لمن اقتدى .

اشعار السيدة صفية

كانت اشعارها قطعة من قلب متألم ، ورقة خضراء يانعة تفيض بعطر الحنان ، كانت عقلا ثاقباً مفكراً ، مدبراً لامزر دينه ودنياه ، وكانت ايضاً قوة متدفقة ، وشجاعة لا تخضع لباس الحاقدين ، وكانت اشعارها انموذجاً اساسياً لعلم النفس الحديث في تربية الابناء وتوجيه سلوكهم ، وتقويم نفوسهم .

اقتبس كثير من الشعراء الامويين والعباسيين وغيرهم معاني اشعار السيدة صفية والفاظها كقول الشاعر :

يـــا ذا العُـــلا والكـــرم
ادعـــوك كشف الظلم
انت الـــرحيم المـــرتجى
ان زل يـــومـــا قـــدمي

اقتبسه الشاعر من قول السيدة صفية (رض) في مدحها الرسول (ﷺ) حين قالت :

على المـــرتضى للهـــدى والتقى
وللـــرشـــد والنـــور بعـــد الظلم

كذلك اقتباس الشاعر الحكمي المعروف صالح بن عبد القدوس[٣١] معاني شعره من اشعار هذه الشاعرة ، حين قال :

وان من ادبتـــه في الصبـــا
كـــالعـــود يسقى المـــاء في غـــرســـه
حتى تـــراه مـــورقـــاً نـــاعمـــاً
بعـــد الـــذي ابصـــرت من يبســـه

اقتبسها من شعر صفية ، فكان لها الافضلية في سبقه الى ذلك المعنى وله الافضلية في جودة اللفظ ، ورقة الحاشية ، في قولها :

من قـــال اني ابغضـــه فقـــد كـــذب
وانمـــا اضـــربـــه لكي يلب
ويهـــزم الجيش ويـــاتي بـــالسلب
ولا يكن لحـــالـــه خبـــا مخب
ياكل في البيت من تمر وحب

وقد اقتبس الشاعر ابو فراس الحمداني الفاظ اشعار السيدة صفية في نماذج كثيرة من شعره ، فكانت اشعارها مصدراً اساسياً من مصادر ثقافته ففي قصيدته البائية[٣١] في البيت الثامن عشر اقتباس في قوله :

الى الله اشكـــو اننـــا بمنـــازل
تحكم في اســـادهن كـــلاب

اقتبسه من اشعار السيدة صفية (رض) في مدحها ابن اخيها محمد (ص) حين قالت :

فـــالى الله ذاك اشكـــو وحسبي
يعلم الله حـــويتي ونحيبي

تميزت اشعار صفية بصفات مميزةمنها :-

١ . استخدامها ألفاظاً وحشية او صعبة ، واحياناً الفاظاً اسلامية مستوحاة من القرآن الكريم .

كقولها في ابنها الزبير بن العوام :-

ان ابني الاصفـــر حب حنكـــل
الخـــاف ان يعقيني ويبخـــل

فالحب ، هو الخداع ، والحنكل هواللئيم ،

وقد اهمل كثير من الشعراء هذه الالفاظ لانها من مخلفات عصر ما قبل الاسلام .

وقد كانت هذه الالفاظ في حينها مستساغة ومقبولة ،طبيعية تجري على السن الناس مجرى مياه الينابيع في الوديان . وكل جديد في حينه قديم في غير عصره .

٢ .استخدامها الفاظاً من الايات القرآنية الكريمة او الاحاديث النبوية الشريفة ، فكانت تعبق بشذا الايمان ، تشيع في ارجائها نسائم الحق ، مثلت بحق المعجم اللغوي الجديد لشواعر صدر الاسلام .

كقولها :-

الى الله اشكـــــو وحسبي
يعلم الله حـــويتي ونحيبي

استمدت الشاعرة ذلك من الاية الكريمة[٣٢] « انما اشكوبثي وحزني الى الله » والاية الكريمة[٣٤] : « ولا تاكلوا اموالهم الى اموالكم انه كان حوباً كبيراً » .

٣ . كانت اشعارها مرآة صافية ، وسجلاً حافلاً بالاحداث التاريخية ، ونقطة ضوء ساطعة بينت فيها تسلسل الاحداث ، ومجريات الامور في غزوات الرسول (ﷺ) في احد عنداستشهاد الحمزة (رض) اذ قالت :

فقلت ان الشهـــادة راحـــة
ورضـــوان رب يـــا امـــام غفـــور

٤ . صدق المشاعر ، وتاجج العاطفة كانت تلون اشعارها ، رقة الاحاسيس وصدق العاطفة وكان شفاء الامها بنظم القوافي وانشاد الاشعار ، التي تفصح فيها عن مكنونات قلبها ، مثل رثائها لاخيها الزبير بن عبد المطلب :-

فلم اطق صبـــراً على رزئـــه
وجـــدتـــه اقـــرب الخـــوانيـــه
لـــولم اقـــل من في قـــولا لـــه
لقضت العبـــرة اضـــلاعيـــه

٦ . استخدمت الرجز في كثير من المواقف الصعبة لخفته وسهولة نظمه ، وعذوبة موسيقاه ، وكثيراً ما كان الرجز لدى الشاعرة ، مرتجلاً بعيداً عن التكلف ، مناسباً للظروف المختلفة .

٧ . وحدة الموضوع في اكثر اشعارها ، فتتناول الرثاء او الفخر ، اوالتحريض ، كل عرض على حدة ، كرثائها للرسول (ﷺ) :

آب ليلي علي بـــالتسهـــاد
وجفـــا الجنب غيـــر الـــوســـاد
واعتـــرتني الهمـــوم جـــداً بـــوهن
لامـــور نـــزلت حقـــاً شـــداد

الزبير بن العوام :

وتركت صفية خير تركة يخلدها التاريخ الاسلامي ، أنموذجاً للتضحية والفداء في سبيل العقيدة السمحاء ، الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الاسدي ، ابن عمة رسول الله (ﷺ) وحواريّة ، وأحد العشرة الذين شهد لهم رسولُ الله (ﷺ) بالجنة . وتوفي وهو

عنهم راضٍ ، وأحد أصحاب الشورى الذين جعل عمرُ بنُ الخطاب الخلافة في احدهم .

هاجر الهجرتين ، دخل المدينة المنورة قبلَ الرسول (ﷺ) ، ولم يتخلف عن غزوة من غزوات الرسول (ﷺ) .

قال له النبي (ﷺ) يوم بدر : « إرْمِ فِداكَ أبي وأمي »[٢٥] ، ولم يحصل على متاع من متاع الحياة الدنيا ، فلم يَنَلْ إمارةً ، ولا جباية ، ولا خراجاً ، ولا شيئاً .

وقال حسان بن ثابت يمدحهُ ويمدح أمّهُ صفية[٢٦] :

وإنّ إمـرأ كـانت صفيـةُ أُمُّـهُ
ومن أسـدٍ في بيتـهِ لَمُـرقَّـلُ[٢٧]

لـه مِنْ رسـولِ الله قُـربى قـريبـةٌ
ومِنْ نُصرةِ الاسلامِ مجدٌ مـؤثَّـلُ

وكم كـربـةٍ ذبَّ الـزبيـرُ بسيفـهِ
عنِ المصطفى ، والله يُعطي ويُجـزِلُ

ديوان صفية :

لم يتوفر حتى اليوم ديوان للسيدة صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف القريشية يجمع اشعارها ، ويحفظ اثارها ، ولم اجد اية اشارة ، ولا ذكراً في كتب الادب تبين ان لها ديواناً وانما وردت اشعارها مبعثرة في صفحات الكتب التراثية المهمة ، والتي تعد مصادر اساسية لدراسة السيرة النبوية ، والتي نالت ثقة العلماء لصحة معلوماتها ، وفي كتب المختارات الشعرية ، مثل سيرة ابن هشام اودواوين الحماسة ، وفي كتب التاريخ ، كالبداية والنهاية ، او سمط النجوم العوالي .

وكان ابرز اشعارها مراثيها لرسول الله (ﷺ) وفي اغلب الكتب التراثية تذكر شجاعتها وبطولتها ومساندتها للرسول (ﷺ) بلسانها واشعارها .

أخيراً فان ديوان صفية ، يعد مجموعة شعرية جديدة في عالم الادب لم اجد من سبقني الى ذلك ، قديماً ولا حديثاً ، وهو على الرغم من صغره فانه تضمن ما يزيد على مائة وثلاثين بيتاً وارجو من الله تعالى ان يوفقني ، او يأخذ بيد غيري من الباحثين ، لاضافة اشعار اخرى ان وجدت .

منهج الجمع والتحقيق

يعد ديوان صفية احد الدواوين الصغيرة التي جمعتها في رسالة الماجستير ، الا ان الاشعار التي تم تحقيقها وجمعها في هذا الديوان تضم الاشعار الجاهلية والاسلامية ، وكل ما استطعت العثور عليه من اشعارها .

وكان ترتيب الاشعار حسب القافية ، وتقديم الكسرة على الضمة والفتحة والسكون ، حسب قوة الحركة .

واتبعت في منهجي لتحقيق النصوص ما يأتي :-

١ . الاهتمام بالدرجة الاولى بأقدم النصوص ، فاثبت اسم المصدر ثم الاهتمام بعدد الابيات ، فكانت الاسبقية للنص الاطول ابياتاً .

٢ . ذكرت مناسبة النص ، في اغلب النصوص ويقدر ما امكنني ذلك .

٣ . بينت الفرق بين الروايات المختلفة للنصوص والالفاظ ، فوضحت الاختلاف بين مصدر وآخر .

٤ . وبعد كل هامش اذكر فيه الاختلاف بين الروايات اشرح الالفاظ او التراكيب ، او اسماء الاعلام التي ترد في النصوص الشعرية .

٥ . رتبت القطع الشعرية على حسب القافية . ورتبت كل قافية تدريجياً على حسب الحركات الاقوى الكسرة ثم الضمة ثم الفتحة فالسكون .

٦ . خصصت الجزء الاخير من الديوان لذكر تخريجات الاشعار مع الاختلاف في نسبة الاشعار للشاعرة او لغيرها او ما كانت بدون نسبة .

واخيراً آمل ان اكون قد وفقت في اخراج ديوان الشاعرة بشكل مرضٍ ، علماً بانني بذلت كل ما وسعني من طاقة وجهد ، ويكفي الباحث فخراً انه اخلص في عمله ، خدمة للادب العربي ، ولكثير من الباحثين والدارسين المتخصصين ، لما لهذه الشاعرة من اثر مهم وفعال في حياة الرسول (ﷺ) والمسلمين فضلاً عن اهمية اشعارها في مدائح الرسول (ﷺ) ومراثيه .

(١)

قالت ترثي رسول الله (ﷺ)(*) :

١ - لهفَ نفسي وبتُّ كـالمسلـوبِ
أرِقَ الليـلِ فعلـةَ المحـروبِ[٢٨]

٢ - مِنْ هُمـومٍ وحسـرةٍ رَدَفتني
ليتَ أنّي سُقيتُهـا بِشعـوبِ[٢٩]

٣ - حين قـالوا إنّ الرسولَ قـد أمسى
وافقتـهُ منيـةُ المكتـوبِ

٤ ـ إذ رأينا أنّ النبي صريعٌ
فأشاب القذالَ اي مشيبِ[٤٠]

٥ ـ إذ رأينا بيوتهُ موحشاتٍ
ليس فيهن بعد عيشِ حبيبي

٦ ـ أورثَ القلب ذاكَ حُزناً طويلاً
خالط القلبَ فهوَ كالمرعوبِ

٧ ـ ليتَ شعري وكيفَ أمسي صحيحاً
بعدَ أنْ بينَ بالرسولِ القريبِ[٤١]

٨ ـ أعظمَ الناسِ في البريةِ حقاً
سيدِ الناس حبه في القلوبِ

٩ ـ فإلى الله ذاكَ أشكو وحسبي
يعلمُ الله حَوبتي ونحيبي[٤٢]

(٢)

وقالت (رض)[*] :

١ ـ عيني جودي بدمعةٍ تسكابِ
للنبي المُطهرِ الاوابِ

٢ ـ واندبي المصطفى فَعُمّي وخُصّي
بدموعٍ غزيرةِ الاسرابِ

٣ ـ عينِ منْ تندبينَ بعدَ نبيٍّ
خصّهُ الله ربُّنا بالكتابِ

٤ ـ فاتحٍ خاتمٍ رحيمٍ رؤوفٍ
صادقِ القيلِ طيبِ الاثوابِ

٥ ـ مشفقٍ ناصحٍ شفيقٍ علينا
رحمةٍ من إلهنا الوهابِ

٦ ـ رحمةُ الله والسلامُ عليه
وجزاهُ المليكُ حُسنَ الثوابِ

(٣)

قالت في رثاء النبي (ﷺ)[*] :

١ ـ أرقتُ فبتُّ ليلي كالسليبِ
بوجدٍ في الجوانحِ ذي دَبيبِ[٤٣]

٢ ـ فشَيّبني وما شابت بداتي
فأمسى الرأس مني كالعسيبِ[٤٤]

٣ ـ لِفَقد المصطفى بالنور حقّاً
رسولِ الله مالَكَ مِنْ ضَريبِ[٤٥]

٤ ـ كريمِ الخِيم أروعَ مضرَجِيٍّ
طويلِ الباعِ مُنتجبٍ نجيبِ[٤٦]

٥ ـ ثمالِ المُعدمينَ وكلِّ جارٍ
ومأوى كلِّ مضطهدٍ غريبِ[٤٧]

٦ ـ فأما تُمسي في جدث مقيماً
لقدما عشت ذا كرمٍ وطيبِ[٤٨]

٧ ـ وكنتَ موفقاً في كلِّ امرٍ
وفيما نابَ من حدثِ الخُطوبِ

(٤)

قالت في رثاء رسول الله (ﷺ)[**] :

١ ـ قد كان بعدَك أنباءٌ وهنبثةٌ
لو كنت شاهدها لم تكثرِ الخطب[٤٩]

٢ ـ إنّا فقدناكَ فقدَ الارضِ وابلها
واختل قومكَ فأشهدهم فقد سبقوا[٥٠]

(٥)

قالت في رثاء النبي (ﷺ)[*] :

١ ـ أفاطم بَكي ولا تسامي
بصبحكِ ما طَلَعَ الكوكبِ[٥١]

٢ ـ هو المرءُ يبكى وحقّ البكاءُ
هو الماجد السيدُ الطيبِ[٥٢]

٣ ـ فاوحشت الارض من فقده
وأيِ البريةِ لا ينكبُ[٥٣]

٤ ـ فما لي بعدكَ حتى المَما
تِ إلا الجوى الداخل المنصب[٥٤]

٥ ـ فبكّي الرسول وحقت لهُ
شهودُ المدينة والغيب

٦ ـ لتبكيكَ شمطاءُ مضرورة
إذا حُجبِ الناس لا تحجب[٥٥]

٧ ـ ليبكيك شيخ ابو ولدةٍ
يطوفُ بعقوتهِ أشهب[٥٦]

٨ ـ ويبكيك ركبٌ إذا أرملوا
فلم يلفَ ما طلبَ الطلبُ[٥٧]

٩ ـ وتبكي الاباطح من فقده
وتبكيه مكة والاخشبُ

١٠ ـ وتبكي وعيرةُ مِنْ فقدهِ
بحزنٍ ويسعدها الميثبِ[٥٨]

١١ ـ فعينيَّ مالكِ لا تدمعين
وحُقَّ لدمعكِ يُنْسَكبُ(٥٩)

(٦)

وقالت في ابنها الزبير بن العوام بعد موت أبيه ، وكانت تغلظ عليه في تربيته(*) :

١ ـ مَنْ قال إني أبغضه فقد كذبْ
وإنما أضربه لكي يلبْ(٦٠)
٢ ـ ويهزمُ الجيشَ ويأتي بالسلبْ
ولا يكنْ لمالِهِ خبأً مخبْ
يأكل في البيتِ مِنْ تمرٍ وحبْ(٦١)

(٧)

وقالت(**) : من الخفيف

١ ـ طالَ ليلي أسعدنني أخواتي
ليسَ ميتي كسائر الأمواتِ
٢ ـ ليس ميتي كَمثلِ من ماتَ من
الناسِ ولا كان مِثلهُ في الحياةِ
٣ ـ طالَ ليلي لنكبةٍ قطعتني
لا أرى مثلها مِنَ النكباتِ

(٨)

قالت في رثاء ابيها ساعة الاحتضار :(*)

لصوت نائحة بليل
على رجل بقارعة الصعيد(٦٢)
ففاضت عند ذلكم دموعي
على خدي كمنحدر الفريد(٦٣)
على رجل كريم غير وغل
له الفضل المبين على العبيد(٦٤)
على الفياض شيبة ذي المعالي
ابيك الخير وارث كل جود
صدوق في المواطن غير نكس
ولا شخت المقام ولا تنيد(٦٥)
طويل الباع اروع شيظمي
مطاع في عشيرته حميد(٦٦)
رفيع البيت ابلج ذي فضول
وغيث الناس في الزمن الحرود(٦٧)
كريم الجد ليس بذي وصوم
يروق على الحسود والحسود(٦٨)
عظيم الحلم من كفر كرام
خضارمة ملاوثة اسود(٦٩)
فلو خلد امرؤ لقديم مجيد
ولكن لاسبيل الى الخلود
لكان مخلداً اخرى الليالي
لفضل المجد والحسب التليد

(٩)

١ ـ عين جودي بدمعةٍ وسُهودِ
واندبي خير هالكٍ مفقودِ(٧٠)
٢ ـ واندبي المصطفى بحزنٍ شديدِ
خالطَ القلبَ فهو كالمعمودِ(٧١)
٣ ـ كدت أقضي الحياة لما أتاه
قَدَرٌ خطَّ في كتاب مجيدِ
٤ ـ فلقد كان بالعباد رؤوفا
ولهم رحمة وخيرُ رشيدِ
٥ ـ رضيَ الله عنه حيا وميّتاً
وجزاه الجنان يوم الخلودِ

(١٠)

قالت في رثاء نبي الهدى (ﷺ) :

١ ـ آبَ ليلي عليَّ بالتسهادِ
وجفا الجنبُ غير وطء الوسادِ
٢ ـ واعترتني الهمومُ جداً بوهنٍ
لامورٍ نزلنَ حقاً شدادِ
٣ ـ رحمة كان للبريةِ طُراً
فَهَدى من أطاعه للسدادِ
٤ ـ طيبُ العودِ والضريبة والشيمِ
محضُ الانساب وارى الزنادِ(٧٢)
٥ ـ أبلج صادقُ السجية عفٌ
صادقُ الوعدِ منتهى الروادِ
٦ ـ عاش ما عاش في البرية بَراً
ولقد كان نُهبَةَ المُرتادِ
٧ ـ ثم ولّى عنا فقيداً حميداً
فجزاه الجنان ربُّ العبادِ

(١١)

قالت في رثاء اخيها الحمزة (رض) :

١ - أسائلة أصحاب أحدٍ مخافةً
بناتُ أبي من أعجمٍ وخبير[٧٣]
٢ - تُسائل عن قرمٍ هجانٍ سميدعٍ
لدى الباس مغوارِ الصباحِ جسور[٧٤]
٣ - أخي ثقة يهتز للعرفِ والندى
بعيدِ المدى في النائبات صبورِ
٤ - فقلتُ إن الشهادةَ راحةٌ
ورضوانُ ربٍّ يا إمام غفور
٥ - فإن أباكِ الخيرَ حمزةَ فأعلمي
وزيرُ رسولِ الله خيرُ وزير[٧٥]
٦ - دعاه اله الخلق ذو العرش دعوةً
الى جنةٍ يرضى بها وسرور[٧٦]
٧ - فذلك ما كنا نُرجي ونرتجي
لحمزةَ يوم الحشر خيرَ مصير
٨ - فوالله ما أنساك ما هبتِ الصَّبا
ولابكينَ في محضري ومسيري[٧٧]
٩ - على أسدِ الله الذي كان مِدرها
يذود عن الاسلام كل كفور[٧٨]
١٠ - الا ليت شعري يوم ذاك واعظمي
إلى أضبعٍ ينتبنني ونسور[٧٩]
١١ - أقول وقد أعلى النعيُّ بهلكه
جزى الله خيراً من أخٍ ونصير[٨٠]

(١٢)

قالت في رثاء النبي الهادي (ﷺ)[*] :

١ - يا عينُ جودي بدمعٍ منكِ مُنحدرِ
ولا تملي وبكي سيدَ البشرِ
٢ - بكي رسول الله فقد هدتْ مصيبتهُ
جميع قومي وأهلَ البدوِ والحضرِ
٣ - ولا تَملي بكاءكِ الدهرَ مِفولةً
عليه ما غردَ القمريُّ بالسحرِ[٨١]

(١٣)

وقالت في الحماسة[*] :

١ - ألا من مبلغٌ عني قريشاً
ففيمَ الامرُ فينا والامارُ[٨٢]
٢ - لنا السلفُ المقدَّمُ قد علمتم
ولم توقد لنا بالغدرِ نارُ
٣ - وكل مناقب الاخيار فينا
وبعض الامر منقصةٌ وعارُ[٨٣]

(١٤)

وقالت[**] :

١ - فسائل في جموع بني عليٍّ
إذا كثر التناسبُ والفخارُ
٢ - بأنا لا نقرُّ الضيمَ فينا
ونحنُ لِمَن توسمنا نضارُ

(١٥)

قالت حين كان ابنها غلاماً يقاتل أحد رجال مكة ، حين اعتدى عليه ، وقد كسر الزبير يدهُ[***] :

١ - كيف رأيت زبرا[٨٤]
٢ - أألقطا حسبته أم تمرا[٨٥]
٣ - أم مُشمعلاً صقرا[٨٦]

(١٦)

قالت في ابنها السائب الذي استشهد يوم اليمامة[*****] :

١ - يسبني السائبُ من خلفَ الجدرْ
٢ - لكن أبو الطاهر زبّارٌ أمِرْ[٨٧]
٣ - مبذر لماله برٌ غفرْ

(١٧)

قالت عند حفر بئر بذر[*] :

نحنُ حفرنا بذرْ
نسقي الحجيجَ الاكبرْ
من مقبلٍ ومدبرْ
وأم أحراد شرْ

(١٨)

قالت صفية ترقص ابنَها الزبير بن العوام[*] :

وأبيكَ زبرُ ما بنكسٍ أحمقٍ
لكنَّه صقرٌ كريمٌ سنرق

حامي الحقيقة ماجد ذو مصدق
يضربُ الكبش سواء المفرق[٨٨]
وليس بالوافي ولا بالأخرق[٨٩]

(١٩)

قالت ترقص ابنها الصغير(**) :

١ - انّ ابني الاصغر خَبٌ خَنْكَلْ
أخاف أن يعقّني ويبخل[٩٠]
٢ - يا ربّ أمتعني ببكري الاول
بالماجد الفياض والمؤمّل[٩١]

(٢٠)

قالت في رثاء النبي (ﷺ)(***) :

١ - عينيّ جُودا بدمع سَجِم
يبادر غرباً بما مُنهدم[٩٢]
٢ - أعينيّ فاسحنفرا واسكبا
بوجد وحزن شديد الالم[٩٣]
٣ - على صفوةِ الله ربِّ العباد
وربِّ السماء وباري النَّسم
٤ - على المرتضى للهدى والتقى
وللرشدِ والنورِ بعد الظُّلم
٥ - على الطاهرِ المُرسلِ المجتبى
رسولٍ تخيرة ذو الكَرَم

(٢١)

قالت في رثاء النبي (ﷺ)(*) :

١ - لفقدِ رسولِ الله إذ حانَ يومه
فيا عين جودي بالدموعِ السواجمِ[٩٤]

(٢٢)

قالت في رثاء محمد (ﷺ)(**) :

١ - ما لعينيّ لا تجودانِ ريا
قد رُزينا خير البرية حيا[٩٥]
٢ - يومَ نادى إلى الصلاةِ بلالٌ
فبكينا بعد النداء مليا
٣ - كلّ يوم أصبحتُ فيه ثقيلاً
لا يَردُّ الجوابَ منكَ إلينا[٩٦]

٤ - لم اجد قبلها ولستُ بلاقٍ
بعدها غصة أمر غليا
٥ - وخمان الشيخِ منحدرٌ في
عارضيهِ كالمسك فاح ذكيا
٦ - وهي في الصدرِ قد تُساقُ حثيثا
ومنَ الوقتِ عند ذاك هَويا
٧ - ليت يومي يكونُ قبلك يوماً
أنضجَ القلبَ للحرارةِ كَيا
٨ - خُلقاً عالياً وديناً كريماً
وصراطاً تهدي به مُستويا[٩٧]
٩ - وسراجاً يهدي الظلام منيراً
ونبياً مسوداً عربيا[٩٨]
١٠ - حازماً عازماً حليماً كريماً
عابداً بالنوال براً تقيا[٩٩]
١١ - ان يوماً اتى عليك كيوم
كورت شمسه وكانت جليا[١٠٠]
١٢ - فعليك السلام منا ومن رب
بك بالسروح بكرة وعشيا[١٠١]

(٢٣)

قالت في حفر بئر زمزم :(*)

نحن حفرنا للحجيج زمزم
سُقيا نبي الله في المحرم
ركضة جبريل ولما يفطم

(٢٤)

قالت في رثاء المصطفى (ﷺ) * :

١ - ألا يا رسولَ الله كُنتَ رجاءنا
وكنت بنا براً ولم تكُ جافيا[١٠٢]
٢ - وكنتَ رحيماً هادياً ومعلماً
ليبكِ عليكَ اليومَ مَن كانَ باكيا[١٠٣]
٣ - لعمرك ما أبكي النبيَّ لفقده
ولكن لما أخشى مِن الهرجِ آتيا[١٠٤]
٤ - كانَ على قلبي لذكرِ محمدٍ
وما خفتُ مِنْ بعدَ النبيِّ المكاويا[١٠٥]
٥ - أفاطمُ صلّى الله ربُّ محمدٍ
على جدثٍ أمسى بيثرب ثاويا[١٠٦]
٦ - فِدى لرسولِ الله أمي وخالتي
وعمي وآبائي ونفسي وماليا[١٠٧]

٧ - صدقتَ وبلغتَ الرسالةَ صادقاً
وَمُتَّ صليبَ العودِ أبلجَ صافيا[١٠٨]

٨ - فلو أن ربَّ الناسِ أبقى نبيَّنا
سعدنا ولكن أمره كان ماضيا[١٠٩]

٩ - عليك من الله السلامُ تحيةً
وأدخلتَ جناتٍ من العدنِ راضيا

١٠ - أرى حسناً أيتمته وتركته
يبكي ويدعو جده اليوم نائيا[١١٠]

(٢٥)

قالت ترثي أخاها الزبير بن عبد المطلب[٥] :

١ - بكّي زبيرَ الخيرِ إذ ماتَ إنْ
كنتِ على ذي كرمٍ باكيه

٢ - لو لفظته الارض مالُمْتُها
أو أصبحت خاشعةً عاريه

٣ - قد كان في نفسي أن أترك
الموتى ولا أتبعهم قافيه

٤ - فلم أطق صبراً على رُزئه
وجدتُه أقرب إخوانيه

٥ - لو لم أقل من فِيَّ قولاً له
لقضت العبرة أضلاعيه

٦ - فهو الشامي واليماني إذا
ما خضروا ذو الشفرة الداميه

التخريجات

(٤)

في تبيين انساب القرشيين ، البيت الاول فقط : ١٤١ .
في اللسان (هنبث) نسبا إلى صفية ، وفي رواية إلى فاطمة
بلاغات النساء ، ط . القاهرة ١٨ ، والعقد الفريد ٣ / ٢٢٨ .

وحسن الصحابة ١ / ١٢٦ نسبا إلى فاطمة بنت محمد (ﷺ) .
، وفي شرح نهج البلاغة ٢ / ٥٠ نسبا إلى أم مسطح بنت أثاثة .

(٥)

سمط النجوم العوالي : ٢ / ٢٣٧ .

(٦)

التذكرة السعدية : ١ / ١٦١ .

(١١)

١ و ٥ - ١١ في سيرة ابن هشام ٣ / ١٧٦ .
والبداية والنهاية ٤ / ٥٩ .
مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني ١ / ٢٠٩ .

(١٢)

النص في شرح الحماسة للتبريزي : ٤ / ٢٩٧ .
والدر المنثور : ٢٦٢ .
وشاعرات العرب لبشير يموت : ١١٥ .

(٢٢)

البيت (١١) في الاصابة : ٧ / ٧٤٥ .
والذخائر والاعلاق : ٢٢٣ .

(٢٥)

الابيات (١ و ٤ - ٦ و ٨ و ٩) في أنساب الأشراف ١ / ٥٩٤ .
(١ - ٢ و ٤ - ٩) في ذخائر العقبي للطبري : ٢٥٢ .
الذخائر والاعلاق : ٢٢٣ .
(١ - ٩) في تاريخ الخميس للدياربكرى : ٢ / ١٧٣ .
(١ - ٢ و ٤ و ٥ - ١٠) في تبيين انساب القريشيين : ١٤١
نسبت الأبيات في طبقات ابن سعد ، ق ٢ / ٢ / ٩٣ إلى أروى بنت عبد المطلب اخت صفية .

الهوامش

(١) أنظر أسد الغابة ٥ / ٣٩١ . نقل ابن أثير رواية ابن اسحق فقال : لم يسلم من عمات النبي (ﷺ) غير صفية » ام الزبير » . وفي رواية اخرى قال : « أسلم من عمات النبي صفية وأروى » ، وفي تجريد أسماء الصحابة ٢ / ٢٩٨ انه لم يسلم غيرها . وفي التحفة اللطيفة ١ / ٢٦ انه اسلم من عمات النبي (ﷺ) « عاتكة وأروى وأميمة وصفية » .

(٢) أنظر نسب قريش : ٢٢٠ والاصابة ٢ / ٥٥٤ وسير اعلام النبلاء ١ / ٢٨ .

(٣) أنظر الحماسة السنية للشنقيطي : ٤٨ .
الطبقات الكبير لابن سعد ، ق١ ج٣ ص٧١ وسير اعلام النبلاء ١ / ٢٨ .

(٤) نسب قريش : ٢٠ .

(٥) أنظر در السحابة في بيان مواضع وفيات الصحابة للصغاني :

٢٩.

(٦) أنظر أم هاني (مسلمات خالدات) : ٢٣.

(٧) والاصح « أحناهن » على ولد.

(٨) الطبقات الكبير لابن سعد ق ١ ج ٨ ص ٣٣ ، وأنظر معاهد التنصيص ١ / ٢١٤ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٦٧ ، والبداية والنهاية ٤ / ٥٨.

(٩) سيرة ابن هشام ٢ / ١٦٧.

(١٠) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٢٨ ، وسمط النجوم ١ / ٣٦٠ ، وسير اعلام النبلاء ١ / ١٩٢ ، ومقالة أضواء جديدة على سيرة حسان بن ثابت للدكتور سامي العاني : ٧٨.

(١١) .أنظر سير اعلام النبلاء ٢ / ١٩٤.

(١٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٦٩.

(١٣) أنظر سيرة ابن هشام ١ / ١٦٩ ، ١ / ١٧٨.

(١٤) قارعة الصعيد : طريق القبر.

(١٥) الفريد : الجوهرة النفيسة ، أو الفقار التي انفردت فوقعت بين آخر فقر الظهر وملتقى أطراف العظام.

(١٦) وغل : الدنيء ، الضعيف ، أو المدعي نسباً كاذباً.

(١٧) نكس : الرجل الضعيف الذي لا خير فيه.

شخت : دنيء الخلق أو ضعيفه.

سنيد : الضعيف الذي لا يستقل بنفسه حتى يسند رأيه الى غيره.

(١٨) شيظمي : الفتى الجسيم.

(١٩) الحرود : الناقة قليلة الدر . شبه بها الزمن في جدبه.

(٢٠) وصوم : جمع وصم ، العيب والعار.

(٢١) خضارمة : جمع خضرم ، وهو الجواد المعطاء ، والسيد الحمول.

الملاوثة : جمع ملوث ، السيد الشريف يطاف ويلاذ به.

(٢٢) الحماسة السنية للشنقيطي : ٤٨.

(٢٣) معجم البلدان (زمزم) ٣ / ١٤٨.

(٢٤) أنظر سيرة ابن هشام ١ / ١٦٤ ، ومعجم ما إستعجم للبكري ٣ / ٧٢٥ ، ومعجم البلدان ١ / ١٣٥.

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) ديوان كعب بن مالك ، د . سامي العاني ، ص٢١٦.

أسد الله : لقب الحمزة منحه إياه الرسول (ﷺ).

الهزة : تحرك الموكب . البزة : السلاح في الحرب.

(٢٧) الحيوان ٣ / ٤٣٢.

(٢٨) أنظر البداية والنهاية ٤ / ٥٨ ، وشرح ديوان الخنساء ، وسيرة ابن هشام.

نسبت القطعة مرة لصفية ، ونسبت في ديوان حسان ، الى حسان بن ثابت.

(٢٩) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٣ ، وانظر شرح نهج البلاغة ٢ / ٥٠ حيث نسبت الى أم مسطح بنت أثاثة ، وفي مراثي شواعر العرب ١٦٦ ، الى فاطمة . واما المصادر الاخرى فهي لصفية . الهنبثة : الأمور الشديدة.

(٣٠) في التبيين في انساب القريشيين : ١٤٠ وتجريد أسماء الصحابة ٢٩٨ وسمط النجوم ١ / ٣٦١.

(٣١) صالح بن عبد القدوس شاعر حكمي عاش في فترة حكم الخليفة العباسي المهدي اذ يذكر محمد بن شاكر الكتبي في فوات الوفيات تحقيق د . احسان عباس طبعة ١٩٧٤ ج ٢ ص ١١٦ ان صالح بن عبد القدوس كان حكيم الشعر زنديقاً متكلماً . استقدمه المهدي الخليفة العباسي من دمشق الى بغداد ثم قتله على الزندقة ، وهو القائل :

ما تبلغ الاعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقد روي الكتبي ايضاً ان الشاعر ابن عبد القدوس كان بصرياً ، يعظ الناس في البصرة ويقص عليهم ، وله كلام حسن في الحكمة.

(٣٥) التحفة اللطيفة في اخبار المدينة ٢ / ٩٢.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) مُرقل : المرقل من الإبل ، المسرع ، والمرقل : الطويل.

أسد : قبيلة الزبير بن العوام الاسدي.

المؤثل : الأصيل.

(*) الطبقات الكبير لابن سعد ق ٢ ج ٢ ص ٩٤.

(٣٨) سمط النجوم العوالي (لهف قلبي ... مقلة المحروب).

المحروب : حرب الرجل فهو محروب ، اي مسلوب ماله ، وهي كلمة تستعمل ندب الموتى بمعنى التأسف.

(٣٩) في السمط : (وحسرة وفتنتي ... سبقتها لشعوب).

شعوب : إسم علم للمنية.

(٤٠) القذال : مابين الاذنين من مؤخر الرأس.

(٤١) في السمط : (وكيف يمسي صحيحاً).

بين : بان ، انقطع وفارق . وبان : ظهر ، وفي قول المعري في شروح سقط الزند :

بان للمسلمين منك اعتقاد

ظفروا منه بالهدى والبيان

(٤٢) في السمط : (وحسبي الله مولى وحوبتي ...) . حوبتي : حزني ووحشتي.

(*) الطبقات الكبير لابن سعد ق ٢ ج ٢ ص ٩٦.

(*) الطبقات الكبير لابن سعد ق ٢ ج ٢ ص ٩٥.

(٤٣) الجوانح : الاظلاع تحت الترائب.

(٤٤) لداتي : اترابي . العسيب : جمع عسب ، وعسب وهو جريد النخل .

(٤٥) ضريب : صنف ، أو المثل من الناس .

(٤٦) الخيم : الطبيعة والسجية . مضرحي : المضرحي : السيد الكريم . المضرحي : الابيض من كل شيء .

(٤٧) ثمال المعدمين : غياثهم ، الذي يقوم بأمر الفقراء والضعفاء .

(٤٨) فقدماً ، قديماً البيان والتبيين ٣ / ٢٦٣ .

(٤٩) في بلاغات النساء : (فاشهدهم ولا تغب) .

(٥٠) لسان العرب : (فاختل .... ولا تغب) . سغبوا : جاعوا ، السغب هو الجوع .

(●) الطبقات الكبير لابن سعد ق ٢ ج٢ ص ٩٥ .

(٥١) في سمط النجوم العوالي : (فابكي ـ) .

(٥٢) في السمط : (بحق البكاء ...) .

(٥٣) في السمط : (وان البرية لا تنكب) .

(٥٤) في السمط : (الذاحل المصلب) . الجوى : الحرقة وشدّة الوجد من الحزن .

(٥٥) في السمط : (لتبكك ـ) .

الشمطاء : مؤنث أشمط وهو الذي خالط بياض شعر رأسه سواد .

(٥٦) في السمط : (ليبكك ...)

ولدة : جمع ولد .

عقوته : جمع عقاء ، وهو ما حول الدار ، ساحة أو محلة .

الاشهب : البياض الذي يتخلله سواد .

(٥٧) في السمط : (فلم يكف ما طلب المطلب) .

اذا أرملوا : اذا افترقوا .

أرملت النساء : اذا مات عنها أزواجها .

(٥٨) روايته في السمط :

وتبكيـــه عـذراء من فقـدهـا

بحـزن وتسعـدهـا الثيب

الاخشب ، ووعيرة : أسماء أماكن .

الميثب : القافز ، أو ما ارتفع من الارض ، او الارض السهلة ، اسم مكان .

(٥٩) في السمط : (مالك لا تعمي ... ما يسكب) .

(●) الاصابة للعسقلاني ٢ / ٥٥٤ .

(٦٠) لب يلب : اي يلتزم بالامر . (يحيد عنه ، او يصير عاقلاً لبيباً .

(٦١) في نسب قريش : (ما في الطل من تمر وحب) .

(●●) الزهرة لمحمد بن داود الاصفهاني ، طبعة الاردن ٢ / ٥٠٨ .

(●) سيرة ابن هشام ١ / ١٦٩ .

(٦٢) قارعة الصعيد : طريق القبر .

(٦٣) الفريد : الجوهرة النفيسة ، او الفقر التي انفردت فوقعت بين آخر فقر الظهر وملتقى اطراف العظام .

(٦٤) وغسل : الدنيء ، الضعيف او المدعي نسباً كاذباً .

(٦٥) نكس : الرجل الضعيف الذي لا خير فيه . شخت ، دنيء الخلق او ضعيفه سنيد : الضعيف الذي لا يثق بنفسه حتى يسند رأيه الى غيره .

(٦٦) شيظمي : الفتى الجسيم .

(٦٧) الحرود : الناقة قليلة الدر . شبه بها الزمن في جدبه .

(٦٨) وصوم : جمع وصم ، العيب والعار .

(٦٩) خضارمة : جمع خضرم ، وهو الجواد المعطاء ، والسيد الحمول .

الملاوثة : جمع ملوث ، السيد الشريف ، يطاف ويلاذ به .

(●) الطبقات الكبير ق ٢ ج٢ ص٩٦ .

(٧٠) الشهود : الطويل الشديد ، أي ابك بشدة وغزارة (أنظر لسان العرب) .

(٧١) المعمود : الذي بلغه الحب مبلغاً .

(●●) الطبقات الكبير ، ق٢ ج٢ ص٩٦ .

(٧٢) الضريبة : الصنف او المثل .

واري الزناد : خرجت ناره ، اي معروف بنسبه .

(●●●) سمط النجوم العوالي ٢ / ١١٢ .

(٧٣) في سيرة ابن هشام : (أسائل ...) .

(٧٤) قرم : السيد العظيم . هجان : كريم . سميدع : شجاع .

(٧٥) في سيرة ابن هشام وفي البداية والنهاية ، صدر البيت : (فقال الخبير ان حمزة قد ثوى) .

(٧٦) في سيرة ابن هشام (اله الحق ـ يحيا بها ـ) في البداية والنهاية : (بكاء وحزناً محضري ـ) .

(٧٧) في سيرة ابن هشام ، والبداية : (بكاء وحزناً محضري ـ) وقال ابن هشام : وانشدني بعض اهل العلم بالشعر قولها : و(بكاء وحزناً محضري ومسيري) .

(٧٨) مدرها : مدافعاً .

(٧٩) في سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية :

(فيا ليت ... لدى أضبع تعتادني ونسور) .

(٨٠) في سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية : (أعلى النعي عشيرتي) .

(●) انساب الاشراف للبلاذري ١ / ٥٩٤ .

(٨١) في مناقب ابن شهر أشوب (بكاء الدهر ...) القمرى : جمع قمر وقماري والانثى قمرية ، ضرب من الحمام حسن الصوت .

(٨٢) الامار : المشاورة والائتمار ، الامتثال .

(٨٢) المناقب : جمع منقبة وهي المعرفة .

(●●) نسب قريش : ١١ .

(●●●) الطبقات الكبير لابن سعد ، ق١ ج٣ ص٧١ .

(٨٤) زبراً : اسم لدلال . الزبير : الداهية .
(٨٥) الاقط : الجبن (طعام) .
(٨٦) مشمعلا : جاداً في المضي ثائراً .
(●●●●) نسب قريش : ٢٠ ، ٢٣٦ .
(٨٧) أبو الطاهر : كنية الزبير بن العوام (رضي الله عنه) .
(●) معجم ما استعجم للبكري ٣ / ٧٢٥ .
(٨٨) ذو مصدق : شجاع صادق .
الكبش : سيد القوم .
(٨٩) الاخرق : احمق ، سيء التصرف .
(●●) الحماسة السنية الكاملة المزية للشنقيطي : ٤٨ .
(٩٠) خب : صار خداعاً .
حنكل : لئيم يبطيء في المشي .
(٩١) البكر الاول : هو الزبير بن العوام .
(●●●) الطبقات الكبير ، لابن سعد ، ق٢ ج٢ ص٩٥ .
(٩٢) سجم : مصبوب . الماء او الدمع (ينسجم) .
(٩٣) اسحنفر : مضى واسرع .
(●) الاصابة ٧ / ٧٤٥ .
(٩٤) السواجم : السائلة المنصبة .
(●●) الزهرة لمحمد بن داود الاصفهاني ٢ / ٢٥ .
(٩٥) في الذخائر والاعلاق : (اذ فقدنا خير ــ) .
(٩٦) في الذخائر والاعلاق : (جل يوم ــ) .
(٩٧) في الذخائر والاعلاق : (وصراطاً يهدي اليه سويا) .
(٩٨) في الذخائر والاعلاق : (وسراجاً يجلو الظلام ــ مسدداً عربيا) .
(٩٩) في الذخائر والاعلاق : (عائداً اباً لنوال براً ..) .
(١٠٠) في الاصابة : (وكان مضياً) .
(١٠١) في الذخائر والاعلاق : (عليك اليوم ..) .
(●) معجم البلدان (زمزم) ٣ / ١٤٨ .
(●●) الاستيعاب لابن عبد البر ١ / ٤٩
(١٠٢) في أنساب الاشراف : (رجائيا) .
(١٠٣) في ذخائر العقبى للطبري : (وكنت بنا برا رؤوفاً نبيًا ....) في الذخائر والاعلاق : (وكنت لنا حرزاً حصيناً نبياً ــ) .
(١٠٤) في الذخائر والاعلاق : (لموته ولكن أمراً بعده كان آتياً) .
(١٠٥) في أنساب الاشراف والذخائر والاعلاق : (كان على قلبي ــ) .
(١٠٦) في انساب الاشراف : (نفسي وخالتي وامي وعمتي قصرة وعياليا) . قصرة : داني النسب .
(١٠٧) في الذخائر والاعلاق : (امي واسرتي وعمي ونفسي والجدود وخاليا) .
(١٠٨) في ذخائر العقبى للطبري : (صليب الذين ...) في الذخائر والاعلاق : (صبرت ... وقمت ــ) .
(١٠٩) في انساب الاشراف ، وذخائر العقبى للطبرى : (أبقاك بيننا ــ) في الذخائر والاعلاق : (رب الخلق ابقاك سالماً ..) . في تبيين انساب القرشيين : (أبقى محمداً ....) .
(١١٠) في الذخائر والاعلاق : (أبا حسن ...) . في تبيين أنساب القرشيين : (... اليوم فانيا) .
(●) شرح نهج البلاغة ١٥ / ٢٢٢ .

المصادر والمراجع

ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر الاندلسي ٤٦٣ هـ ، تحقيق محمد علي البجاوي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ... بلا تاريخ .

اسد الغابة ، ابن الاثير الجزري ت ٦٣٠ هـ ، طبع على ذمة جمعية المعارف ، تصحيح مصطفى وهبي ، المطبعة الوهبية ١٢٨٠ هـ .

ـ الاصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق على محمد البجاوي ، مطبعة دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٠ وما بعدها .

ـ انساب الاشراف ، محمد بن يحيى البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف ، مصر ، بلا تاريخ .

ـ البداية والنهاية في التاريخ ، عماد الدين بن كثير القريشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ، الطبعة الاولى ، المطبعة السلفية ١٩٣٢ .

ـ بلاغات النساء ، ابو الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور ٢٨٠ هـ ، طبع النجف ١٣٢٠ هـ ، وطبع القاهرة ١٩٠٨ .

ـ البيان والتبيين ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ١٩٨٥ .

ـ تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، نقله الى العربية د . عبد الحليم النجار ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، مصر ١٩٥٩ .

ـ تاريخ الخميس في احوال انفس النفيس ، حسن بن محمد الديار بكرى ، بيروت ، ١٢٨٣ هـ .

التبيين في أنساب القريشيين ، موفق الدين بن قدامة المقدسي ٦٢٠ هـ ، حققه وعلق عليه محمد بن نايف الدليمي ، مطبوعات المجمع العلمي بغداد ١٩٨٢ .

ـ تجريد اسماء الصحابة ، ابن الاثير النيسابوري الجزري ٦٣٠ هـ الطبعة الاولى ، مطبعة المعارف النظامية ، الهند ١٣١٥ هـ .

ـ التحفة اللطيفة في اخبار المدينة الشريفة / شمس الدين السخاوي ٩٠٢ هـ ، نشر اسعد الحبيلي طبع القاهرة ١٩٥٧ .

ـ الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية محمد محمود الشنقيطي ، مطبعة الموسوعات ، مصر ، ١٣١٩ هـ .

ـ الحيوان ، ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٢٥٥ هـ ، تحقيق عبد السلام هرون الطبعة الثانية ، مصر ١٩٥٨ .

ـ در السحابة في بيان مواضع وفيات الصحابة ، الحسن الصخاني ٦٥٠ هـ ، تحقيق د . سامي مكي العاني طبع بغداد ١٩٦٩ .

ـ ديوان كعب بن مالك الانصاري ، جمع وتحقيق د . سامي مكي العاني بغداد ١٩٦٥ .

ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ـ الطبري ٦٩٤ هـ ، دار الكتب المصرية ١٩٦٧ .

ـ الذخائر والاعلاق في اداب النفوس ومكارم الاخلاق ، الباهلي ابو الحسن الاشبيلي تمت كتابته في ٨٣٩ هـ ، المطبعة الوهبية مصر ، ١٢٩٨ هـ .

ـ الزهرة ، ابو بكر محمد بن داود الاصفهاني ٢٩٧ هـ الجزءان الاول والثاني تحقيق د . نوري القيسي ود . ابراهيم السامرائي ١٩٨٥ .

ـ سمط النجوم العوالي في ابناء الاوائل والتوالي للعصامي الخالكي ١١١١ هـ ، المطبعة السلفية ، بلا تاريخ .

ـ سير اعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي ٧٤٨ هـ ، ابراهيم الابياري ، قرىء على د . طه حسين ، دار معارف مصر ١٩٦٢ .

ـ السيرة النبوية لابن هشام ٢١٨ هـ ، تحقيق ابراهيم الابياري ومصطفى السقا ، مصر ١٩٨٥ .

ـ شرح ديوان الخنساء ، لويس شيخو ، بيروت ١٩٦٨ شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٥٠٢ هـ .

ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة ١٩٣٨ .

ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤٢١ هـ ، تحقيق عبد السلام هرون ، الطبعة الاولى ١٩٥٢ .

ـ شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد عز الدين ابو حامد بن عبد الله الميداني٦٥٥ ، دار احياء التراث بيروت .

ـ شعر عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، جمع وتحقيق د . سامي مكي العاني ، مطبعة المعارف بغداد ١٩٧١ .

ـ الطبقات الكبير ، محمد بن سعد الزهري ٢٣٠ هـ ، مطبعة بريل ، ليدن ١٣٢٢ هـ الطبعة الاوابية

ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه الاندلسي ٣٢٨ هـ ، تحقيق ابراهيم الابياري وعبد السلام هرون طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

ـ فوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتبي ٧٦٤ هـ تح د . احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٧٤ .

ـ لسان العرب ، ابن منظور الافريقي المصري ٧١٠ هـ ، طبع دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .

ـ مراثي شواعر العرب ، لويس شيخو .

ـ مسلمات خالدات (ام هاني) ، تاليف محمد علي قطب ، منشورات المكتبة العصرية صيدا ، بيروت بلا تاريخ .

ـ معاهد التنصيص على شرح شواهد التخليص ، عبد الرحيم العباسي ٩٦٣ هـ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ، ١٩٤٧ .

معجم البلدان ، ياقوت الحموي ٦٢٦ هـ . بيروت ١٩٥٧ .

ـ معجم ما استعجم واسماء البلاد والمواضع ، ابو عبيد البكري ٤٨٧ هـ تحقيق مصطفى السقا مطبعة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .

ـ مناقب آل ابي طالب ، ابن شهر اشوب المازنداني ٥٨٨ هـ ، النجف ١٩٥٦ .

ـ نسب قريش ، ابو عبد الله مصعب الزبيري ٢٣٦ هـ ، نشر وتصنيف ليفي بروفنسال ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥١ ، باريس ١٩٥٣ .

المجلات ـ مجلة آداب المستنصرية ، اضواء على سيرة حسان بن ثابت د . سامي العاني كلية الاداب العدد ٢ السنة الثانية ، ١٩٧٧ .

ـ مجلة المرأة العربية ، مجلة علمية نصف سنوية ، العدد ٦ ، ١٩٨٨ تصدر عن الاتحاد النسائي العربي العام ، بغداد .

كلمة وداع

د . سهير القلماوي

د . عائشة عبد الرحمن



فقدت الاوساط الادبيّة والاكاديميّة العربية في العامين الماضيين ١٩٩٧ / ١٩٩٨م عالمتين وأستاذتين جليلتين رفدتا الساحة الثقافية بالإسهامات والمؤلفات الجادّة التي تربت عليها وارتوت من معين أفكارها أجيال من الباحثين والادباء العرب هما د . سهير القلماويّ ود . عائشة عبد الرحمن .

وكانّ هذا الزمن الردىء – وهو يمعن في التآمر على هذه الامة المعطاء – يأبى الّا ان يغتال البقيّة الباقية من القمم الشامخة والرموز المضيئة في ثقافتنا المعاصرة ، فيفجعنا في كل يوم بمبدع منهم يخلّف رحيله آثاراً داكنة وكابية على الخارطة الثقافية العربيّة التي تشهد يوماً بعد آخر تصاعداً في مدّ التوجهات التخريبيّة وتزايداً في وجود الاقلام الهشّة والرخوة في وعيها وانتمائها ورصيد ثقافتها أو المتعجّلة في بحثها عن الشهرة والاضواء مستسهلة للوصول الى ذلك التلفيق والسلخ من المترجمات والسطو على جهود الاخرين . لقد كانت الراحلتان انموذجاً للجهد العلميّ المخلص والنزيه في أهدافه ومراميه والمحافظ على أتّزانه دون تطرّف لا في الانسياق وراء المنجز الغربي ولا في التجمّد عند حدود المنجز التراثي ، لقد مثّلتا – بحقٍّ – مع أصوات اخرى من جيلهما جسراً موصلاً بين ضفّتي التراث والمعاصرة .

إنّنا اذ نبكي غيابهما فإنّما نرثي – فيما نرثي فيهما – جهداً نسويّاً عربيّاً مبدعاً استطاع عبر رحلة مضنية أن يتخطى المثبّطات والموانع ويشقّ له طريقه محطّماً الاسوار والحجب التاريخيّة والاجتماعية الكثيفة ، وهو ما عالجته د . عائشة في كتابها : (الشاعرة العربيّة المعاصرة) حين رصدت تلك

المسيرة الممتدة بين واقع المرأة أمس وهي مكبّلة في غرف الحريم ومنفية على هامش الحياة الحقيقية وبينها اليوم أستاذةً أو شاعرةً أو عالمةً ... الخ ، حيث امتزج عرق الكدح بدماء المضحّيات وهنّ يتلمّسن لهنّ موطيء قدم على طريق الانعتاق وإثبات الذات .

لقد تحدّث د . جابر عصفور بحبّ وعرفان عن أستاذته القلماوي مؤشراً ريادتها الخلاّقة لعدد من المجالات الادبية والاكاديمية : « كانت أول امرأة تحصل على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية في الاداب ، وأول أستاذة في قسم اللغة العربية ، وأول رئيسة لهذا القسم ، وأول سيدةً تولّت منصب رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وأول من أقام معرضاً دولياً للكتاب في مصر عام ١٩٦٧ ، وأول من استهلّ الانشطة الثقافية في هذا المعرض ، وأول رئيسة لجمعية خريجات الجامعة ... وبحوثها الكثيرة التي لم تجمع في كتاب مع مقالاتها الوفيرة وأحاديثها الاذاعية وقصائدها التي جعلتها واحدة من مؤسّسي جماعة (أبولو) ونشاطها العام الثقافي والاجتماعي ، كل ذلك يجعل منها نجمةً ساطعةً في تاريخ الثقافة العربية »[1] .

وليس غريباً وقد عرفت الراحلتان بغزارة الثقافة وتنوع مصادرها من ان تجمع كلّ منهما بين أكثر من مجال إبداعيّ في تجربتها ، لقد جمعت د . سهير الى (التاليف الاكاديمي) كتابة (المقالة) و(القصة) ثم (الترجمة) ، وتركت للمكتبة العربية حصيلة غنية من المؤلفات ، نذكر منها :

- أدب الخوارج (أطروحة الماجستير)
- ألف ليلة وليلة (أطروحة الدكتوراه)
- المحاكاة في الادب
- في النقد الادبي
- ثم غربت الشمس
- العالم بين دفتي كتاب
- مع الكتب
- الرواية الاميركية الحديثة
- أحاديث جدتي
- الشياطين تلهو
- ترويض النمرة
- رسالة أيون
- عزيزتي أنتونيا
- رسائل صينيّة
- قصص صينيّة
- هدية من البحر
- مائدة المعرفة
- كتاب العجائب[2]
- الادب والوحدة العربية (بحث مقدّم الى مؤتمر الادباء العرب السابع في بغداد)

ونجحت بنت الشاطىء في ان تجمع بين (التاليف الاكاديمي) و(القصة) وكتابة (سيرة) بعض الاعلام التاريخية اللامعة ، و(تحقيق المخطوطات) تحقيقاً علمياً تنهل فيه من انجازات علم التحقيق المنهجية ومن حصيلة خبرتها الشخصية المتحصّلة بالصبر والدأب على القراءة والمتابعة والكشف ، فكانت ثمرة ذلك كتباً شيّقة عصيّة على النسيان ، لعل من أبرز عنواناتها :

- الحياة الإنسانية عند أبي العلاء (أطروحة الماجستير)
- الغفران لابي العلاء المعري | دراسة نقدية (أطروحة الدكتوراه)
- قيم جديدة للادب العربي القديم والمعاصر .
- تراثنا بين ماضٍ وحاضر .
- ارتباط الاديب بالتراث (بحث مقدّم الى مؤتمر الادباء العرب السابع في بغداد) .
- الشاعرة العربية المعاصرة .
- لغتنا والحياة .
- أبو العلاء المعري (سلسلة أعلام العرب) .
- قراءة جديدة في رسالة الغفران | نصّ مسرحي من القرن الخامس الهجري .
- تحقيق (رسالة الغفران) للمعري .
- تحقيق (رسالة الصاهل والشاحج) للمعري ... الخ .

ولا ننسى في هذه الكلمة الموجزة ان نهمس بكلمة عتاب رقيقة ، يعزّ فيها علينا ان يمر رحيلهما دون أصداء تذكر في مجلاتنا وصحفنا العراقية ، ولا أقل من ان تفرد لهما مجلاتنا ملفات خاصة - كما عوّدتنا ان تفعل دائماً - يجلو من خلالها الباحثون منهجيهما وبعضاً من انجازاتهما المعرفية[3] ، جزءاً يسيراً من دين الوفاء الذي لهما في اعناقنا .

---

(١) (٢) مجلة فصول ، العدد الرابع ، شتاء ١٩٩٧ .
(٣) للدكتورة نادية غازي بحث بعنوان : (إشكالية الذات والاخر في منظور الكاتبة العربية (بنت الشاطىء إنموذجاً) ، منشور في مجلة الموقف الثقافي ، العدد ١٧ ، ١٩٩٨ .

• • •

النصوص المحققة

نصان نادران في الظاء

١ - بيتان في ظاءات القرآن مشهوران لابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) .
٢ - قصيدة أبي منصور عيسى بن مهذب في الظاء المعجمة .

حققهما الاستاذ هلال ناجي

على مخطوطتين فريدتين

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي النص

حينما انساح العرب إثر الفتوح عبر الاقطار واختلطوا بغيرهم من الامم واجهتهم مشكلتان : مشكلة اللحن التي تفشت في وقت مبكر من القرن الهجري الاول فعالجوها بتقعيد قواعد النحو .

ومشكلة اخرى تجسدت في اندياح حرف الضاد والتصاقه بالظاء نُطقاً او بالدال المفخمة حتى كاد يختفي في نطق العرب جميعاً مشرقاً ومغرباً وقد واجه المصنفون هذه المشكلة بتخصيص عشرات المصنفات للتفرقة بين الضاد والظاء وكثير منها لما اشتبه في النطق واختلف في المعنى والخط . بعضها كان نثراً وبعضها كان نظماً ، وكثيراً ما عمد ناظموها او غيرهم الى شرحها تبسيطاً لها .

وقد انشعبت هذه المصنفات المنثورة والمنظومة الى جذمين اساسيين : جذم يعالج الفرق بين الضاد والظاء معالجة لغوية فهو يحصر الالفاظ الضادية او الظائية المتشابهة نطقاً المختلفة معنى وخطا ، وبعضها يحصر الالفاظ او الاصول الضادية أو الظائية وبعضها سلك مسالك اخرى ليس هذا موضع تفصيلها . فالاهتمام في تصانيفهم كان منصباً على التمييز الخطي (الكتابي) لا النطقي والنصّان اللذان ننشرها اليوم لاول مرة يندرجان في هذا اللون من التصنيف الذي كانت بداياته الاولى في القرن الرابع الهجري ، وكانت المنظومات وسيلة لتسهيل حفظ مضمونها .

والجذم الثاني انصرف الى دراسة صوت الضاد دراسة صوتية في محاولة لتبين أسباب اندياح هذا الصوت وذوبانه في صوت اخر كالظاء او الدال المفخمة او غير ذلك ، وكان هذا اللون من التصنيف متاخراً بدأ في القرن السابع الهجري في رسالة مفقودة صنّفها عيسى بن عبد العزيز اللخمي (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) عنوانها « كتاب المراد في كيفية النطق بالضاد » ، واقدم ما وصلنا من هذه الرسائل رسالة (غاية المراد في معرفة إخراج الضاد) لمحمد بن احمد بن داود المعروف بابن النجار (ت ٨٧٠ هـ) وفي هذا الطريق سارت رسائل ابن غانم المقدسي (ت ١٠٠٤ هـ) وعنوانها « بغية المرتاد لتصحيح الضاد » ، وعلي بن سليمان المنصوري (ت ١١٣٤ هـ) وعنوانها « رد الالحاد في النطق بالضاد » ، وعبد الغني بن اسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣ هـ) عنوانها « الاقتصاد في النطق بالضاد » ، ورسالة محمد المرعشي ساجقلي زادة (ت ١١٥٠ هـ) المعنونة « رسالة في الضاد وكيفية ادائها » ورسالة محمد بن اسماعيل الازميري (ت ١١٦٠ هـ) في الرد على المرعشي . وكل هذه الرسائل وسواها يندرج في باب « علم التجويد » وقد احصاها صديقنا المفضال الدكتور محمد جبار المعيبد في بحثه القيم « كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب »[1] .

وليس من شاننا في هذه المقدمة الخوض في مسائل صوتية هي الصق بعلم التجويد مما ذكرناه في الجذم الثاني من المصنفات .

فاما التصنيف في الجذم الاول - وهو الجذم اللغوي - فقد نَهَدَ عالم جليل هو الدكتور رمضان عبد التواب الى محاولة حصر تراث العربية في الضاد والظاء ، فعدّ ثلاثين كتاباً بين مطبوع ومخطوط ومفقود ، فكان المجلّي في هذا الميدان[2] .



[في أخرها عنوان كتاب ابن مالك]

وكان الفاضلان الدكتور طه محسن وحسين تورال في مقدمة تحقيقهما لكتاب ابن مالك المعنون « الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد » المطبوع في النجف سنة ١٩٧٢ قد ذكرا سبعة كتب مما لم يذكره الدكتور رمضان في قائمته لكنهما لم يكونا عند طبع كتابه قد اطلعا على كتابه ففاتهما منها الكثير وكانا في غاية التواضع فقالا انهما يذكران هذه المصنفات وعدتها ثلاثون مصنفاً على سبيل المثال لا الحصر[٣] .

في عام ١٩٨٠ نشر حاتم الضامن كتاب « الاعتماد في نظائر الظاء والضاد لابن مالك[٤] » . حاول في مقدمته حصر تراث العرب في الضاد والظاء فقدم قائمة ضمت (٣٩) كتاباً قال عنها انّها « اول احصاء شامل لهذا النوع من المؤلفات » .

وكان كلامه هذا غريباً حقاً ، لانه يعلم ان (رمضان) و (طه محسن) سبقاه الى ذلك . وبالتامل في قائمته وجدناه قد نقل قائمة رمضان عبد التواب بكتبها الثلاثين حرفياً ، ثم سلخ سبعة كتب ذكرها الفاضلان د . طه محسن وحسين تورال في مقدمة تحقيقهما لكتاب « الاعتضاد » المطبوع في النجف الاشرف سنة ١٩٧٢ (أي قبل نشر بحثه بثمانية اعوام) . لكنه لم يشر الى فضلهما في اكتشافها لا في متن بحثه ولا في هوامشه وانتحل الفضل لنفسه ، واضاف كتابين احدهما في علم التجويد لعبد الغني النابلسي . والكتب السبعة التي نقلها من مقدمة الاعتضاد هي : الاعتماد لابن مالك ، وذكر الظاء على حروف المعجم لابن بري ، ومنظومة في الظاء والضاد للمرادي ، ومثلها لابن جابر الاندلسي ، وشرح قصيدة الحريري في الظاء للسيد جعفر الاعرجي ، والمنظومتان المستطرفة والنظامية للسيد جعفر ايضاً ، ورسالة في الضاد والظاء لـ (طه الراوي) ، واخرى لمحمد رضا بن هادي بن عباس .

ورغم ان حاتم الضامن لا فضل له فيما سماه « الاحصاء الشامل لمؤلفات الظاء والضاد » إذ نقل قائمة رمضان عبد التواب برمتها وبكل تفاصيلها العلمية الدقيقة واضاف اليها ما تفرد بذكره الفاضلان طه محسن وحسين تورال في مقدمة الاعتضاد وصنع من هذا الجمع قائمة ادعاها لنفسه .

نقول رغم ذلك فقد كأن ينتقص من علم رمضان بلا مبرر فيقول عند كل فقرة مضافة سلخها من مقدمة الاعتضاد ما نصه : « وهذا لم يعرفه الدكتور رمضان عبد التواب ، وهذا قد أخلّت به قائمة رمضان عبد التواب ، وهذه لم يذكرها رمضان في قائمته ، وهذا اغفله رمضان ! وغيرها من الفاظ التجهيل . متناسياً انه نقل قائمة رمضان بكتبها الثلاثين واضاف اليها سبعة كتب سلخها من مقدمة الاعتضاد التي نشرها الفاضلان



[انموذج الورقة الاخيرة من مخطوطة كتاب بنتان في اضاءات القران ومشروحان]

طه محسن وحسين تورال عام ١٩٧٢ ، فهو لافضل له اساساً في صنع قائمته لانه نقلها عن غيره . وهذا التعالم المتكرر يجعلك تعتقد ان المقصود به التقليل من علم الرجل بلا مبرر وما هكذا يصنع المنصفون .

رمضان عبد التواب في مقدمة « زينة الفضلاء » كان مُجَلّياً حين قدم قائمة في تراث الظاء والضاد في العربية . وطه محسن وحسين تورال كانا مُصَلّيان في مقدمة تحقيقهما لكتاب « الاعتضاد » .

حتى طلع علينا العالم الثبت الدكتور محمد جبار المعيبد ببحثه الموسوعي « كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب »(*) فعدّ سبعة وستين مصنفاً مما صُنّف في هذا الموضوع مع مظنة وجوده او ذكره بدقة متناهية واضاف ثلاثة فصول عقدها ابن مكي الصقلي والقلقشندي والسيوطي في كتبهم لهذا الموضوع . ثم اتبعها بعشرة كتب مما صُنّف في كيفية النطق بالضاد وهو كما قلنا يدخل في باب علم التجويد . فابلغها الى ثمانين كتاباً . ورغم هذا الجهد الموسوعي لم يقل (المعيبد) انه قدم احصاء شاملاً لكتب الظاء والضاد ولا ادعى انه حصرها . وهذا هو خلق العلماء الفضلاء . فليس في طوق اي باحث مهما بلغت موسوعيته ان يدعي الاحاطة بكل ما صنفه السلف في الظاء والضاد . تظل كل القوائم والاحصاءات ناقصة لاستحالة الاحاطة ولتناثر تراثنا المخطوط عبر العالم في مكتبات مفهرسة وغير مفهرسة .

وقد راينا ان ندلي بدلونا بين الدلاء فنضيف جديداً الى ما ذكره صديقنا المفضال د . محمد جبار المعيبد في بحثه

الموسوعي المشار اليه ، وهذا هو مستدركي :

١ ـ اصول الظاء في الكلام وذكر مواضعها في القرآن لابي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) . نسبه اليه القفطي في الإنباه ٣ / ٣١٧ .

٢ ـ مؤلف في الظاء والضاد ؛ لابي محمد علي بن احمد بن سعيد المعروف بابن حزم القرطبي الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ) نسبه اليه الذهبي في سير اعلام النبلاء ١٨ / ١٩٧ .

٣ ـ كتاب في الضاد والظاء ؛ لابي البركات محمد بن محمد بن الحسين الشهرستاني (ت ٦١٨ هـ) نسبه اليه القفطي في الإنباه ٣ / ٢١٢ .

٤ ـ ارجوزة في الضاد والظاء لشرف الدين احمد بن عثمان السّنجاري (من القرن السابع) ذكرها السيوطي في بغية الوعاة ١ / ٣٣٦ .

٥ ـ الاقتصاد في الفرق بين الظاء والضاد ؛ ليحيى بن حميد بن ظافر الحلبي المعروف بابن ابي طي (ت نحو ٦٣٠ هـ) . ذكره الكتبي في فوات الوفيات ٤ / ٢٧٠ .

٦ ـ قصيدة في الالفاظ التي تكتب بالضاد لابي نصر عيسى ابن مواهب (كان حيا قبل ٧٠٧ هـ) منها مخطوطة في الاستانة .

٧ ـ قصيدة في الالفاظ التي تكتب بالظاء لابي نصر عيسى أبن مواهب ـ وهي التي ننشرها في بحثنا هذا ـ .

ان حصر تراث العربية في الضاد والظاء امر يستعصي على التراثيين العرب المعاصرين لان ذكره مبثوث في ثنايا آلاف الكتب والمخطوطات المتناثرة عبر العالم والمصنفة عبر اربعة عشر قرنا .

وحين اورد مستدركي هذا اعلم ان النقص من طبيعة البشر ، فقد ابى الله ـ جلت قدرته ـ ان يكون الكمال لغير كتابه الكريم . فانا لا اريد التعالم على احد ، واعلم جيداً ان آخرين آجلاً او عاجلاً ـ سيستدركون على مستدركي هذا ـ "وفوق كل ذي علم عليم" صدق الله العظيم .

وبَعْدُ ؛ فقد ظهر في كتب الظاء والضاد اتجاه قرآني مُمَيَّز حاول حصر الالفاظ الضادية والظائية في القرآن الكريم وتفسير معانيها . ولأن ما ورد في الذكر الحكيم من الضاد يزيد على الظاء ، اذ وردت الظاء في ٨٥٣ موضعاً ترجع الى واحد وعشرين أصلاً . في حين جاء حرف الضاد في ١٦٨٤ موضعاً ، ترجع الى واحد وثمانين اصلاً[1] . فان قلة الظاءات هذه دفعت المصنفين القدامى الى افراد مصنفات لدراسة ظاءات القرآن الكريم او حصرها ليعلم أن ما عداها بالضاد . ومن هذه المصنفات منظومات شعرية اشتملت على اصول الكلمات الظائية . وكل اصل يشمل مجموعة من الالفاظ الظائية ترجع اليه اشتقاقاً او تصريفاً .

وتتراوح ابيات هذه المنظومات الشعرية بين الاثنين والسبعة اورد منها الدكتور طه محسن في بحثه المشار اليه احد عشر منظومة ، ذكرها بالترتيب التالي :

١ ـ اربعة ابيات لاحمد بن احمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠ هـ) .

٢ ـ اربعة ابيات لابي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) .

٣ ـ اربعة ابيات لابي محمد القاسم بن فيرُّه الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) .

٤ ـ منظومة في ثلاثة ابيات واخرى في اربعة لاحمد بن دلة الواسطي (ت ٦٥٣ هـ) .

٥ ـ ثلاثة ابيات لعبد الرزاق بن رزق الله الرسعني (ت ٦٦١ هـ) ومنظومة له ايضا في سبعة ابيات .

٦ ـ ثلاثة ابيات لاسماعيل بن علي بن سعدان الواسطي (ت ٦٩٠ هـ) .

٧ ـ اربعة ابيات لابراهيم بن عمر الجعبري (ت ٧٣٢ هـ)

٨ ـ اربعة ابيات لعبد الله بن احمد بن علي الكوفي (ت ٧٤٥ هـ) .

٩ ـ بيتان لمحمد بن علي بن حسين القارىء البهشمي (ت ١٢٤٧ هـ) .

١٠ ـ سبعة ابيات لمجهول في مخطوط بالاستانة .

المهم في الامر انه ذكر البيت الاول من نص ابن مالك الذي ننشره اليوم لاول مرة بالصيغة التالية :

[وقال جمال الدين بن مالك الاندلسي (ت ٦٧٢ هـ)] .

ظـــل الغليظ الظلــــوم الفظ شـــوظ لظىً
فـــاظـمـا كظمن وظــاهـــر ظــافــرا يقظــا]

واحال في الهامش على كتاب رمضان ششن الممنون « نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا » ١ / ١٧٤ . واضاف : ولم ينقل المؤلف من المنظومة سوى هذا البيت[7] .

وقد ذكر الباحث الثبت د . محمد جبار المعيبد البيت الاول المذكور من هذه المنظومة تحت عنوان (ضوابط ظاءات القرآن) منسوبةً لإبن مالك وقال ان مخطوطة الكتاب محفوظة في مكتبة قوغوشلر (تركيا) برقم ١٠٩٦ مجاميع وأحال على كتاب رمضان ششن ١ / ١٧٢ ـ ١٧٣[8] نفسه .

ومن هذا يتضح ان النص الذي ننشره اليوم جديد كل الجدة . فلم يذكر احد انه في بيتين فقط عنوانهما (بيتان في ظاءات القرآن مشروحان) ولم يذكر احد ايضا ان ناظمهما قد شرحهما شرحاً مستفيضاً .

واود ان اضيف الى ما ذكره الباحث الثبت د . طه محسن من منظومات في اصول الظاءات القرآنية ، منظومة ابن الجزري وهي في سبعة ابيات ذكرها في كتابه « المقدمة فيما يجب على القارىء ان يعلمه » وقد نشرت هذه الابيات في شرح الشيخ زكريا الانصاري للمقدمة الجزرية[9] . واليك المنظومة :

والضـــاد بـــاستطـــالـــةٍ ومَخـــرجِ
مَيِّـــز من الظـــاءِ وكلّهـــا تجي

في الظُعْنِ ظِـــلُّ الظُهـــرِ عُظْمُ الحِفْظ
أَيقِظ وانظـــز عظْمَ ظهـــر اللفظ

ظـــاهـــر لظى شُـــواظ كظم ظلمـــا
اُغلُظ ظـــلام ظُفْـــرٍ انتظـــر ظمـــا

اظفـــر ظنـــاً كيف جـــا وعظْ ســـوى
عِضين ظـــلّ النّخـــلِ زُخـــرف ســـوا

وظلْتَ ظَلتُم وبـــــروم ظلّـــــوا
كـــالحجـــر ظلْتْ شعـــرا نظـــلُّ

يَظلَلْنَ محظـــوراً مـــع المُحتَظِـــر
وكُنْتَ فظـــاً وجميـــعَ النَّظـــر

الاّ بـــويـــل هـــلْ واولى نـــاضـــره
والغيْظ لا الـــرعـــدُ وهـــودُ قـــاصـــره

والحظُّ لا الحضُّ على الطعـــــام
وفي ظَنينٍ الخـــلافُ ســـامي

xxxxxxx

واضيف ايضا ان ابيات ابي عمرو الداني التي اولها :

ظِفِـــرَتْ شـــواظ بحظّهـــا من ظُلمتـــا
فكظمتُ غيظ عظيم مـــا ظلت بنـــا

وقد اوردها د . طه محسن في بحثه المشار اليه . اقول : ان الداني ناظمها قد شرح ابياته الاربعة هذه شرحاً مستفيضاً نشر بعنوان « الظاءات في القرآن الكريم » للامام ابي عمرو الداني بتحقيق الدكتور علي حسين البواب ـ الرياض ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م ، وهي نشرة علمية متقنة[١٠] .

xxxxxx

مصنف النص(*) :

ناظم النص وشارحه هو الامام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجيّاني الاندلسي مولدا ، الدمشقي مدفناً . وجيّان هذه التي نسب اليها كانت كورة تقع شرقي قرطبة . مولده على الاغلب بين عامي ٥٩٨ هـ ـ ٦٠١ هـ . ولما جُبِلَ عليه من حب للعلم والامن معا آثر هجرة وطنه ـ الذي كانت تتقاذفه الصراعات السياسية ـ الى المشرق طلبا للعلم والامن معاً . فاستقر مدة في مصر ثم اضطربت الاحوال فيها ايام الكامل بن العادل ، فغادرها لتادية فريضة الحج ، وعند عودته آثر الاستقرار بحلب التي كانت تزخر بالعلماء كابن يعيش شارح المفصّل ، ثم انتقل الى حماة ، وانتهى به المطاف الى دمشق حيث الامن الذي سعى اليه فاستوطنها .

عاصر ابن مالك نهاية الدولة الايوبية ، وقيام دولة المماليك ، كما عاش شطراً من حياته في ظلّ سلطنة الظاهر بيبرس[١] وتوفي في اثنائها . في حلب كان قد تصدّر لإقراء العربية وأمّ بالمدرسة الظاهرية ، وفي دمشق اشتغل بالتصنيف والتدريس بالجامع والمدرسة العادلية التي تولى مشيختها الكبرى .

■ شيوخه[٢] :

فاما شيوخه ففي جيّان اخذ القراءات والنحو عن ثابت بن خيار (ت ٦٢٨ هـ) كما اخذ عن أبي رزين بن ثابت الكلاعي وابي العباس احمد بن نُوّار ومحمد بن مالك المرشاني . وفي دمشق اخذ عن الحسن بن صباح المخزومي (ت ٦٣٢ هـ) ، ونجم الدين مكرم بن محمد القرشي الدمشقي ، وكان عالماً محدثاً (ت ٦٣٥ هـ) ومحمد بن أبي الفضل المرسي . وسمع من الامام علي بن محمد السخاوي النحوي المقرىء وكان من ائمة اللغة والنحو والتفسير والفقه (ت ٦٤٣ هـ) .

وفي حلب اخذ عن عالمها الاشهر يعيش بن علي بن يعيش الحلبي « شارح المفصل » وهو من أكابر علماء العربية .

■ خلائقه :

كان صدوقاً ثقتاً ورعاً ، حسن السمت كثير النوافل ، عرف بعقله ووقاره ورقة قلبه . وكان لا يُرى الّا وهو يصلّي او يتلو او يصنف او يقرأ .

■ تلامذته[٣] :

روى عنه ولده بدر الدين محمد ، وشمس الدين بن جعوان ، وشمس الدين محمد بن أبي الفتح ، وابن العطار ، وزين الدين ابو بكر المزي ، والشيخ ابوالحسين اليونيني ، وابو عبد الله الصيرفي ، وقاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة ، وشهاب الدين محمود ، وشهاب الدين بن غانم ، وناصر الدين شافع ، وزين الدين بن النحّا ، وبهاء الدين بن النحاس ، وابو بكر بن يعقوب ، وخَلْق سواهم .

■ مكانته العلمية :

كان ابن مالك من ائمة العلم في زمنه ، قال عنه الصفدي : « صرف همته الى اتقان لسان العرب حتى بلغ منه الغاية ، وأربى على المتقدمين ، وكان إماماً في القراءات وعللها ، وصنّف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية . وأمّا اللغة فكان اليه المنتهى فيها »[٤] .

ووصفه محمد بن محمد بن الجزري بانه : « إمام زمانه في العربية »[٥] . وقال عنه السيوطي : « وأمّا النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يُجارى ، وحَبْراً لا يُبارى ، وأمّا اشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو فكانت الائمة الاعلام يتحيّرون فيه ، ويتعجبون من اين ياتي بها »[٦] .

وقال عنه الذهبي : « واحدُ العصر في علم اللسان »[٧] .
ووصفه السُبكي بانه : « وهو حَبْرُها السائرة مصنفاته

مميز الشمس ، ومُقْنِعُها الذي تصغي له الحواس الخمس ، وكان إماماً في اللغة ، إماماً في حفظ الشواهد وضبطها ، إماماً في القراءات وعللها »[28] حتى صح فيه القول : انه كان اعلم اهل زمانه باللغة والنحو والقراءات والصرف وغيرها . وكان الى ذلك شاعراً وناثراً .

■ وفاته :

توفي ابن مالك ـ رحمه الله ـ في دمشق في ثاني عشر شعبان سنة ٦٧٢ هـ ، ودفن بسفح قاسيون . ورثاه عدد من شعراء عصره من بينهم تلميذه بهاء الدين محمد بن ابراهيم ابن النحاس الحلبي[29] وشرف الدين الحصني[30] ، ومجد الدين ابن الظهير الاربلي[31] ، والشيخ محمد بن عبد الرحمن السلمي الحنفي[32] ، وتقي الدين حسين[33] ، وسواهم .

■ آثاره :

ناهزت مصنفات ابن مالك الخمسين كتاباً ، وسنكتفي في هذه المقدمة المركزة بالاشارة الى ما طبع منها :

١ ـ ارجوزة في الفرق بين الضاد والظاء : حققها طه محسن ـ مجلة المورد ـ العدد الثالث ـ المجلد الخامس عشر . ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

٢ ـ الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد : حققه طه محسن وحسين تورال ـ النجف ١٩٧٢ م .

٣ ـ الاعتماد في نظائر الظاء والضاد ، حققه حاتم الضامن ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٣ ـ المجلد ٣١ ـ ١٩٨١ .

٤ ـ إكمال الاعلام بتثليث الكلام ، حققه سعد بن حمدان الغامدي ـ جدة ـ ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م .

٥ ـ الالفية المسماة « الخلاصة في النحو » طبعت طبعات عديدة ومنها طبعة بتحقيق محمد مفيد الخيمي ـ دمشق ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٨ م .

٦ ـ تحفة المودود في المقصور والممدود ، طبعت اولاً بعناية ابراهيم اليازجي ـ القاهرة ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م ، ثم طبعت في ذيل الكتاب « إكمال الاعلام بتثليث الكلام » بتصحيح احمد بن الامين الشنقيطي ـ القاهرة ١٣٢٩ هـ .

٧ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، حققه محمد كامل بركات ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

٨ ـ ذكر معاني ابنية الاسماء الموجودة في المفصل للزمخشري ، حققه محمد وجيه تكريتي ـ مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ـ عمان العدد ٣٣ ـ ١٩٨٧ م .

٩ ـ شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ ، حققه عدنان عبد الرحمن الدوري ـ بغداد ـ مطبوعات وزارة الاوقاف ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٧ م .

١٠ ـ شرح الكافية الشافية ، حققه عبد المنعم احمد هريدي ـ مكة المكرمة ـ جامعة ام القرى ـ وقع في خمسة اجزاء .

١١ ـ شرح النظم الاوجز في ما يهمز وما لا يهمز ، حققه علي حسين البواب ـ الرياض ـ ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م .

١٢ ـ شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، حققه طه محسن ـ بغداد ـ وزارة الاوقاف ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

١٣ ـ لامية الافعال ـ نشرت بشرح ابنه بدر الدين ـ تحقيق فولك ـ لايبزك ١٨٦٦ . واعاد نشرها نشرة غير علمية حسام النعيمي في العدد الرابع من مجلة كلية الدراسات الاسلامية ـ بغداد ـ ١٩٧٢ .

وقد حققت الشرح تحقيقاً علمياً ودفعته الى المطبعة .

١٤ ـ مثلثات الافعال لابن مالك وزوائد للبعلي ، حققه سليمان العايد ـ السعودية ،

١٥ ـ التعريف في ضروري التصريف ـ وقد حققناه ودفعناه الى المطبعة .

١٦ ـ ومما نشر منسوباً اليه منظومة فيما ورد من الافعال بالواو والياء . نشرت ـ بدون تحقيق ـ في مجموع مهمات المتون ـ الطبعة الرابعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي منسوبة لابن مالك وعدتها سبعة وستون بيتاً . كما نشرت في كتاب « المزهر » للسيوطي ٢ / ٢٧٩ ـ ٢٨٢ منسوبة لابن مالك ايضاً وعدتها دون الخمسين بيتاً . وقد لاحظنا ان هذه المنظومة قد نسبت في عدد من المصادر الى الشاعر يوسف بن اسماعيل الشوّاء الحلبي (ت ٦٣٥ هـ) . ومخطوطاتها متداخلة بعضها منسوبة للشوّاء وبعضها لابن مالك . وفي بعض المصادر ان منظومة الشوّاء هذه شرحها بهاء الدين ابن النحاس الحلبي .

وقد حررت في الموضوع بحثاً مفصلاً عنوانه « القصيدة المتداخلة » انتهيت فيه الى ان القصيدة للشوّاء الحلبي ، وثمة ابيات في اولها وخاتمتها هي لابن مالك ومن نظمه (وفوق كل ذي علم عليم) .

■ مخطوطة الكتاب : اعتمدنا في تحقيق رسالة « بيتان في ظاءات القرآن مشروحان » على مخطوطة فريدة تقع ضمن مجموع محفوظ في مكتبة احمد الثالث بالاستانة برقم ١٠٩٦ . والمجموع كتب في سنوات مختلفة تنحصر بين عامي ٧٠٧ هـ الى ٧٢٠ هـ واسم الناسخ محمد بن احمد بن ابراهيم القرشي الشافعي . ورسالتنا هذه انجزها الناسخ سنة ٧٠٧ هـ . وقد عاثت فيها الارضة كما طمست فيها كلمات طمساً تاماً . ونظراً للجهد المبذول في اخراج النص فقد تقريت بقايا الكلمات وتهديت الى كثير منها معتمداً مصنفات ابن مالك المطبوعة فيما يخص الظاء والضاد ومعاجم اللغة ، حتى خرج النص

بشكله هذا .

لقد كنتُ احترق شوقاً للظفر بمخطوطة اخرى من هذه الرسالة ذكرها بروكلمان وقال انها في الظاهرية بدمشق .

وقد دققت فهارس مخطوطات الظاهرية المطبوعة ، وجميع ما ذكر في تلك الفهارس من مصنفات ابن مالك فلم اجد لها ذكراً . ولست أدري هل انها فقدت ، ام ان الامر ناجم عن سهو صانع الفهارس لصغر حجمها .

على اية حال : ان الظفر بمخطوطة اخرى سيساعد على تدارك النقص في نشرتنا هذه في مواضع الطمس وما عاثت فيه الارضة . وقد ييّسر الله ذلك مستقبلاً . ثم اني احمد الله على ان وفقني في اخراج هذه النص للمرة الاولى خدمة لقرآنه الكريم .

وأمل ان يكون نشره اضافة ذات بال في حقل منظومات الظاء القرآنية ، فما نشر منها حتى اليوم قليل للغاية .

واغتنم الفرصة لاخيّي اخا كريماً ومحققاً ثبتاً هو الدكتور عياد الثبيتي ـ الاستاذ في جامعة ام القرى بمكة المكرمة ـ فاهديه عملي هذا ، رداً على تحيته الكريمة بتصوير المخطوطة لي .

والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وآله المنتجبين الطاهرين وصحبه الاكرمين ، صلاة وسلاماً دائمين الى يوم الدين

وكتبه في بغداد مدينة السلام طالب عفو ربه ، الراجي

هلال بن ناجي

هوامش الدراسة

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد الثلاثون ـ ج ٢ سنة ١٩٨٦ ص ٥٧٥ ـ ٦٣٤ .

(٢) تنظر مقدمة تحقيقه لكتاب « زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء » لابي البركات ابن الانباري ـ بيروت ١٩٧١ ص ٢٢ ـ ٣٥ .

(٣) تنظر مقدمة الاعتضاد ص ٧ ـ ١١ .

(٤) مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٣١ ـ الجزء الثالث تموز ١٩٨٠ .

(٥) اشرنا اليه سابقاً .

(٦) منظومات اصول الظاءات القرآنية للدكتور طه محسن ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد ٣٠ ج ٢ ص ٦٣٥ ـ ٦٤٦ .

(٧) بحثه المشار اليه ص ٦٤٠ .

(٨) كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب ـ ص ٦٠٨ .

(٩) شرح المقدمة الجزرية لزكريا الانصاري ـ علق عليه محمد غياث الصباغ ـ جدة ـ الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم ، ١٩٩١ م (ص ٧٠ ـ ٧٦) .

(١٠) كان المرحوم د . محسن جمال الدين قد نشر مختصراً من هذا الشرح في مجلة البلاغ العراقية ـ العدد الثاني ـ السنة الثالثة (١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م) ص ٥٨ ـ ٦٠ وهي نشرة مختصرة بالغة الاخلال .

• عن سيرة الناظم وآثاره تنظر المصادر التالية :

تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان ـ الترجمة العربية ٥ / ٢٧٥ ـ ٢٩٦ و ١٨٥

المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع : محمد عيسى صالحية ٥ / ١٧ ـ ٢١ .

دائرة المعارف الاسلامية : هوتسما ورفقاؤه ـ الطبعة العربية الثانية ١ / ٣٨١ ـ ٣٨٨ ، حرر ترجمته محمد بن ابي شنب .

مفتاح السعادة ومصباح السيادة : احمد بن مصطفى الشهير بطاش الكبرى زاده ١ / ١٣٦ ـ ١٣٨ .

الفلاكة والمفلوكون : احمد بن علي الدلجي ص ٨٦ ـ ٨٧ .

البلغة في تاريخ ائمة اللغة ـ الفيروز ابادي ط ٢ ص ٢٠١ .

الاعلام : الزركلي ٧ / ١١١ .

الوافي بالوفيات : الصفدي ٣ / ٣٦٠ .

فوات الوفيات ابن شاكر الكتبي ٣ / ٤٠٧ ـ ٤٠٩ .

مرآة الجنان وعبرة اليقظان : اليافعي ٤ / ١٧٢ ـ ١٧٣ .

غاية النهاية : ابن الجزري ٢ / ١٨٠ ـ ١٨١ .

طبقات النحاة واللغويين : ابن قاضي شهبة : حققه محسن غياض ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

بغية الوعاة ١ / ١٣١ ـ ١٣٤ .

البداية والنهاية : ابن كثير ١٣ / ٢٦٧ .

شذرات الذهب : ابن عبد الحي الحنبلي ٥ / ٣٣٩ .

نفح الطيب : المقري ـ تحقيق احسان عباس ٢ / ٢٢٢ ـ ٢٣٣ .

السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي حققه محمد مصطفى زيادة ١ / ٦١٣ .

(١١) حكم الظاهر بيبرس بين عامي ٦٥٨ ـ ٦٧٩ هـ .

(١٢) حول شيوخه تنظر مصادر ترجمته وما كتبه محمد بن ابي شنب في دائرة المعارف الاسلامية .

(١٣) الوافي بالوفيات ٣ / ٣٦٢ .

(١٤) الوافي بالوفيات ٣ / ٣٥٩ .

(١٥) غاية النهاية في طبقات القراء ٢ / ١٨٠ .

(١٦) بغية الوعاة ١ / ١٣٠ .

(١٧) العبر في خبر من غبر ٥ / ٣٠٠ .

(١٨) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٦٧ .

(١٩) بغية الوعاة ١ / ١٣٧ .

(٢٠) بغية الوعاة ١ / ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٢١) اشار اليها ابن قاضي شهبة في طبقاته ص ١٣٥ ولم اجدها في ديوانه المطبوع .

(٢٢) ذيل مرآة الزمان لليونيني ٣ / ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢٣) تنظر مرثاته في ذيل مرآة الزمان ٣ / ٧٨ ـ ٧٩ .

بيتان في ظاءآت القرآن مشروحان

من كلام الشيخ جمال الدين المصنّف تغمده اللهُ برحمته قال الشيخ الامام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي رحمه الله تعالى :

ظِلٌ الـظـليفِ الظلـومَ الفَظُ شـوَظُ نظـىَ ... فـاظـما كـظـمٍ وظـاهِـرٍ ظـافـراً يَقِظا

بحظظ لظبٍ وكَظـمِ الـغيظِ ثـم بحظـر(م) ... الظـن أعظِـم بحظٍ نـاظـرٍ وعَظـا

الظِلُ بالكسر معروف وذكره مُغْنٍ عن الظِلال لانه جَمعُه ، وعن ظلّه[1] وظليل لانهما مُشتَقّان منه ، وعن ظَلّتالتي من الحوات كان فانها عبارة عن مصاحبة الموصوف الصفة نهاراً كمصاحبة الجسم ظِلّهُ ففيه ايضا اشعار بالظلّ . وفي اضافة الظلُّ الى الظليف وهو معرفة مغاير اللفظ المضاف ، تنبيه على ان قولهم في الداهية من الرجال : ضِلُّ اضلال بضاد لانه لا تضاف الا الى مُنكر غير مغاير للمضاف . ونبّهتُ بالظليف على ان ما اوله ظين وثانية لام لا يكون اخره ضاد بل ظاء ، وكذا كلُّ ما اشبه الظليف في سبق اللام فهو من الظائيات لا من الضاديات ، فيتناول ذلك اللفظ ، واللحظ ، واللمظ[2] ، والدنظا[3] ، والظي ، والالظاظ[4] ، وما شاكلها او ضرف منها . وكذا امرأة ملمظة اي سمينة ، واللماظ واللمظة التهاس اللحم والشره[5] . والملوظ ما يضرب به من عصا وما يشبهها[6] . والألظ واللوظ التشدد في التقاضي والطرد والمعارضة ، واللُّظُظ ما رمت الريحُ في الماء من الورق . والدلمظ الضخم الضيق الجوف . والدُّلمظ الوقّاعُ في الناس[7] . والدَّلْظى[8] الجمل السريع ، والبلنظي اتباع له ، والمُجْلَنظُ الشّرِه . والجِلْظاءُ الارض الصلبة . والجِلَنجظاءُ الرَّجُلُ الاشعر . والجلواظ سيف عامر بن الطفيل[9] . والجلظ قطع الشيء تصفين[10] . وشذ بالضاد اللّضمُ وهو العَنَتُ[11] ، واللقوضُ[12] والبِلَوضُ[13] ابن آوى واللاضى والماضض[14] الدليل الحاذق ، والمَلضُ[15] والمَلَهضَةُ : القلع وكذا الهَلضُ[16] ، والجُلاهِضُ الرجل الثقيل[17] ، واللّفضُ تناول الشيء باللسان[18] ، والجِلّظ ضخم[19] .

وتبهت بذكر الظلوم على ما ثانيه لامٌ وثالثه ميمٌ لا يكون اوله ضادٌ بل ظاء ، فدخل في ذلك الظُلم والظلام وما تصرف منهما . والظُلْمُ : الثلج وماء الاسنان وبريقها . والظليم ذكر النعام وذكر بعض اللغويين ان ( )[20] بالضاد وهو غريب . وفي جعل الفظ صفة للظلوم منبهة على ان الذي يكون بظاء من هذا التاليف شرطه ان يدلّ على ما يستحسن ولا يستحسن كالفظاظة وهي الجفاء وغلظ الطبع ، واللظاظة وهي ماء يخرج من الكرش . ما لا يدل على ذلك فهو الضاد ( )[21] والفضة والانضاض . والشوظ من اسماء النار ، ونبّهتُ بذكره على الشواظ وعلى ان ما اشبهه في تقدم الشين فهو بالظاء ، وشظّ الامرُ شقّ ( )[22] واشظ الرجل انتشر ، والذكرُ كذلك ( )[23] .

وشظّهم وشظاهم فرّقهم ، وشظ العمل استمر ، والشُّنظرة والشُّنظرة القطعة من الجبل (١٠٠ أ) والشنظوةُ اعلاه[24] . والشنظيرُ السيء الخُلُق ، والشِّنظيانُ الشباب[25] . والشناظ : المرأة [المكتنزة اللحم][26] واشظ البيت خرجت اصوله ( )[27] وشظف العيش ضاق ، والسهم تخلل بين الجلد واللحم ، والمكان يبس ، والبعير اشتدّ جلاظه . والشُّنظُمُ الفرس الطويل[28] ، والشنظلم الجماع[29] والمشظ : الشديد والذي فيه شظاظ اي شظية او شوكة . والمشيظة : المشاظ وخبر لا يدري صحته .

والشظظ : المنع ، وشنظلةٌ مكان[30] . والشمظاء : فرس . والشظى عظم في الذراع ، ومصدر شظى اي غضب[31] ، والشيء خرجت منه شظية اي قطعة حادة ، الشظى ايضا الاتباع ، وشظى السُّلاء ارتفعت قوائمه[32] .

ووشِظ العظم كُسرت منه قطعة ، والوَشيظةُ : قطعة من خشب يُشعبُ بها القَدَحُ او يُضَيق بها خرتُ الفاس . والوشيظة خلاف الصميم من الناس وغيرهم . ووشظت الينا جماعة اي لحقت بنا[33] .

والشُّنظُب كلُ جُرف ذي ماءٍ ، والخشنُ الطويلُ من كلّ شيء[34] . والشّقيظ : الفخار[35] . وشذ بالضاد مما فيه الشين ، الشمضُ مصدر شَمَضَهُ اذا اخذ بمجامع قلبه[36] ، والشَرَضُ : ما غلظ من الارض[37] ، والشرواض : الجمل الضخم الرِخْو[38] ، والشرضراض شجر[39] .

ونبّهت بقولي : « فاظما لظمٍ وظاهر » على ان التقديم على ميم بعدها همزة او على عين بعدها نون او على هاء بعدها راء لا يكون ضاداً بل ظاء ، الا ما شذّ من قولهم لاعلي الجبل والوادي والسلحفاة ضهر وقيل لاعلى الجبل ايضاً ضاهر ، فهاتان الكلمتان بالضاد . واوقعت ظافراً بين ظاهر ولفظ لانبّه بذلك على ان هذا التاليف شرطه كونه بالظاء دلالة على قوة وغلبة ، لان معنى ظاهر : عاون ، والمعاونة تستلزم القوة والغلبة ، وكذا اليقظ فيه اشعار بذلك . فدخل في ذلك لانه

يعبر به عن السلاح و يكلاله عن الضعف . يقال فلان كليل الظفر اذا وصف بالذل والجبن . والاشعار بخروج الضفر وما ماثله وصرف منه فانه بالضاد اذ لا غلبة ولا معاونة في مدلوله .

ونَبَّهتُ « بيقظ » على ان ما اوّله ياء وثانيه قاف لا يكون ثالثه ضاداً بل ظاء . واشرت بذكر الحفظ بكسر الحاء الى ان ما اوّله حاء وثانيه فاء ، شرطه ان يكون لفظ الحفظ او صيغوا بمعناه بوجه ما .

فمن ذلك : حفظ الشيء حرسه ، والعلم وغيره رعاهُ ، وطريق حافظ : بيّن مستقيم ، وحافظ على الشيء ( )[40] عليه ، وحفاظ الدابة : حبل يمنعها من نزع رسنها ، وحفظ الرجل حفظاً وحِفْظةً وحفيظة اذا غضب على من رام انتهاك حرمته او اهان من يعزّ عليه .

تعلم بهذا ان ما لا يشعر بحفظ ( )[41] فهو بالضاد . فمن ذلك خَفَضْتُ الشيء اذا حناه وكذا اذا القاه وطرحه ، ومنه سميت الخِليَّة التي ياوي اليها النحل خفيضة (١٠٠ ب) لان النحل يحفظ فيها العسل اي يلقيه[42] ، وسمي المتاع حفضاً لانه يطرح ، وسمي البعير حفضاً[43] [وهو الذي يحمل خُرْثِيّ المتاع][44] .

ونَبَّهتُ بالكظم على انّ ما تقدم فيه كاف وتاخر ميم لا يتوسطه ضاد بل ظاء . ونبهت باضافة الكظم الى الغيظ على معنى النقص والغيض وهو حُلْعُ النخلة[45] ، والغَيْضَة وهي الشجر المُلْتَف[46] .

واشرت بالحظر الى ان ما اوله حاء واخره راء لا يتوسط فيه ظاء الا اذا اشعر بمنع فان لم يشعر بمنع فهو بالضاد . فالمشعر بمنع نحو حظر الشيء مَنَعه ، ومنه قولهم للحائط حظار ، ولماوى الغنم حظار ولصانعها محتظر ، وللحطب الذي يمتنع به حظر ، وللمنجنيق حظارة[47] وللبخيل حظور .

ونَبَّهتُ بذكر الظنّ بالفتح على ان ما ثالثه او ثانيه نونان شرط كون اوّله ظاء ان يكون لفظ الظن او مشعراً بمعناه بوجه ما ، فلا يدخل في ذلك الدال على بُخْلٍ ، بل يعلم كونه وما تصرّف منه او ناسبه بالضاد لا بالظاء .

ونَبَّهتُ بـ « أعْظِمِ » على ان ما اوّله عين وثالثه ميم لا تتوسط فيه ضاد بل ظاء ، فدخل في ذلك « العظمة » وما اشتق منها و « المعظم » وما صرف منه ولم احترز من نوادر هذا التاليف الجائية بالضاد لعظم شهرتها وهي : العضوم : الناقة القوية . والعضوم : المرأة الاكول . والعضم : عسيب ذنب الفرس[48] ، والة الذري ، وخط في الجبل[49] ، وحي من العرب ، ومصدر عضم الشيء طرده والعضام عسيب البعير .

ونَبَّهتُ بتقييد الحظ بالمعظم على انه بمعنى التصيب ، لان ذلك قد عهد وصفه بالعظيم كقوله تعالى « وما يلقّاها الا ذو حَظٍ عظيم »[50] بخلاف « الحضن » بمعنى التحريض فانّ وصفه بالمعظم غير معهود-وقيدت « الناظر » بكونه ( )[51] وعوظا على انه غير الدال على الحسن والنضارة . فان ذلك لا يخص من يوعظ فهو بالضاد بخلاف الناظر بمعنى المعتَبر فانه لا يراد به الا من يصح وعظه لكونه ممن يعقل . واما الناظر بمعنى المنتظر وبمعنى البصر فقد يعبر به عن ما لا يعقل لكنه قليل وكانه لقلّته لم يستعمل .

ونَبَّهتُ بـ « وعظه » على ان ما اوله واو وثانيه عين لا يكون آخره ضاداً بل ظاء . فقد تضمن هذان البيتان ضوابط ظاآت القرآن وكثيراً من ضوابط غيره والله اعلم .

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد واغفر لكاتبها ولوالديه وللمسلمين اجمعين وانفعه بالعلم واجعله من خيار اهله [و] الحمد لله ربّ العالمين[52] (١٠١ آ)

هوامش النص الاول

(١) ظُلّة : ما سترك من فوقك وهي المظلّة يُستظلّ بها من الشمس .
(٢) التَلمُّظ : الاخذ باللسان ما يبقى في الفم بعد الاكل .
(٣) الدَّلْظ : الضربُ ، او الدفع في الصدر .
(٤) الالظاظ : لزوم الشيء والمثابرة عليه .
(٥) لمعظ : اللُعمظة : انتهاس العظم بمُلْء الفم . واللعمظة . التطفيل والشره . قال الشاعر :

اشبه ، ولا فخر ، فان التي
تشبهها قوم لعامظ

(٦) انشد ابن الاعرابي :
تحت اخي راسها المنوَّظا .
(٧) اللسان مادة (دلمظ) عن الازهري .
(٨) الدُّلنظى : الصلب الشديد ، والسمين من كل شيء ، والضخم .
(٩) عامر بن الطفيل : احد فُتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية . ادرك الاسلام ووفد على رسول الله (ﷺ) بعد فتح مكة يريد الغدر به فلم يجرؤ عليه . وعرض عليه الرسول الاسلام فاشترط شروطاً ردها الرسول ، فعاد غاضباً . ومات في طريق عودته سنة ١١ هـ وله ديوان شعر مطبوع . تنظر ترجمته في الاعلام ٤ / ٢٠ والاصابة ت ٦٥٥٠ وخزانة الادب ١ / ٤٧١ - ٤٧٤ والشعور بالعور للصفدي ص ١٥٩ - ١٦١ والمؤتلف والمختلف ١٥٤ والمحبر ٣٠٣ والعلو والاعتذار للرقام ٢ / ٥١٣ .
(١٠) الاعتضاد ص ٣٧ .
(١١) اللَّضْمُ : العنف والالحاح على الرجل . قال الشاعر :

لضمت بنائل وتضمت اخرى
بربد ما كذا بقل الكرام

(١٢) الفَلُوض : ابن آوى (يمانية) ـ عن اللسان .
(١٣) والملَوْض : ابن اوى ـ ينظر الاعتضاد ص ٣٧ . واللسان (علض) .
(١٤) اللاضي والماضض : لم اظفر بهما في مراجعي . وفي اللسان : اللضلاض : الدليل الحاذق . وفي زينة الفضلاء ، اللضلاض : الدليل فهاتان اللفظتان تفرد بهما ابن مالك .
(١٥) الملْش : حركه لينزعه نحو الوتد وما اشبه . (اللسان) .
(١٦) هلَض الشيء : انتزعه كالنبت (اللسان) .
(١٧) رجل جُلاهِض : ثقيل وخم (اللسان ـ جلهض) .
(١٨) نَعْضَهُ بلسانه اذا تناوله . لغة يمانيه (اللسان) .
(١٩) في الموضع كلمة غير مفهومة .
(٢٠) في الموضع طمس بمقدار كلمتين .
(٢١) في الموضع طمس بمقدار كلمتين .
(٢٢) في الموضع كلمة غير مفهومة .
(٢٣) في الموضع طمس بمقدار اربع كلمات .
(٢٤) في اللسان : شناظي الجبال : اعاليها واطرافها ونواحيها ، واحدتها شُنظُوة . قال الطرماح :

في شناظي أقنٍ دونها
غـزة الطير كصدم النعام

(٢٥) يقال امرأة شنظيان : اذا كانت سيئة الخلق صخابة .
(٢٦) في الاصل : المرأة ، وبعدها كلمة غير مقروءة . وما بين عضادتين استضفناه من لسان العرب .
(٢٧) في الموضع طمس بمقدار ثلاث كلمات .
(٢٨) الشيظم : الطويل الجسم الفتي من الناس والابل والخيل . قال عنترة :

والخيلُ تقتحمُ الخَبار عوابساً
ما بين شيظمةٍ واجرد شيظمِ

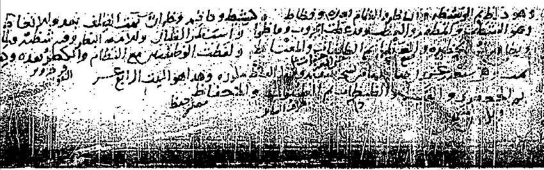
(٢٩) لم اجدها في المعاجم ولعل في الاصل تحريفاً .
(٣٠) اسم موضع في شعر حُميد بن ثور :

كما انقبضت كدراء تسقي فراخها
بشمظة زُغْباً ، والمياه شعوبُ

(٣١) لم اجده في المعاجم .
(٣٢) اللسان : شظى السقاء : اذا مُلىء فارتفعت قوائمه .
(٣٣) ينظر اللسان مادة (وشظ) .
(٣٤) اللسان : كل جُرَبٍ فيه ماء . والطويل الحسن الخلق .
(٣٥) الشقيظ : قال الازهري : جِرار من خزفٍ .
(٣٦) الاعتضاد ص ٣٦ .
(٣٧) التاج : الشَرِضْ ما غلُظ من الارض .
(٣٨) اللسان : جمل جِرْواض : وحُوّ ضخم ، فإن كان ضخماً ذا قصرة غليظة وهو صلب فهو جرواض .
(٣٩) القرطراض : لم اجده في المعاجم . وفي التاج : قال الليث القَمرضاضُ شجر بالجزيرة . وانكره الازهري قال ويقال انها كلمة معاياه .

وقال الصاغاني لم اجد هذا اللفظ في خماسي كتاب الليث من حرف الشين .
(٤٠) في الموضع طمس بمقدار كلمة .
(٤١) طمس بمقدار كلمتين .
(٤٢) ينظر الاعتضاد ص ٦٥ .
(٤٣) اللسان : قال ابن الاعرابي : الحفض قماش البيت وردىء المتاع ورذاله والذي يحمل ذلك عليه من الابل حفض ، ولا يكاد يكون ذلك الا رُذال الابل ومنه سمي البعير الذي يحمله حفضاً به . وبعدها في الاصل المخطوط طمس بمقدار سبع كلمات .
(٤٤) ما بين عضادتين استضفناه من اللسان .
(٤٥) اللسان مادة (غيض) .
(٤٦) اللسان : الغيضة : الاجَمةُ ، ومغيض ماء يجتمع فينبتُ فيه الشجر وجمعها غياض واغياض .
(٤٧) الاعتضاد ص ٥٨ .
(٤٨) اللسان : العضم : عسيب الفرس ، اصل ذنبه .
(٤٩) اللسان : العضم خطٌ في الجبل يخالف سائر لونه .
(٥٠) الاية رقم ٣٥ ك سورة فصلت رقم ٤١ .
(٥١) في الموضع طمس بمقدار كلمة .
(٥٢) الى جانبها كلام بخط مغاير هذا نصه « تمت المقدمة والحمد لله تعالى ثالث جمادى الاخرة سنة ٧٠٧ » وهذا الكلام واضح الاقحام حبراً وخطاً .

*



[انموذج من مخطوطة قصيدة عيسى ابن مواهب في الظاء]

قصيدة في الظاء المعجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا النص الثاني في الظاء المعجمة لم يذكره احد ممن رصدوا تراث العربية في الظاء والضاد . لكنه نص قديم ظفرت به في مجموع محفوظ في مكتبة احمد الثالث بالاستانة رقمه ١٠٩٦ . كتب النص سنة عشرين وسبعمائة للهجرة* ، ناسخه محمد بن احمد بن ابراهيم القرشي الشافعي ويشغل النص الورقة ٢٢٤ من المجموع ناظمه ابو منصور عيسى بن مواهب له في المجموع نفسه قصيدة في الضاد المعجمة اولها :

أيها المبتغي إفادة علمٍ
ليس عنه لمستفيه اعتياضُ
سوف أنبيك في قصيدي هذا
عن حروفٍ يعنى بها الرؤاضُ

فمنا بتحقيقها هي الاخرى لنفاستها .

لكن ما أثار استغرابنا هو خلو كتب تراجم اللغويين والنحاة والادباء والشعراء وكتب الطبقات التي وقفنا عليها من ترجمة هذا الناظم رغم دقة تنقيرنا . وعلى اية حال يمكن القول بشكل قاطع ان ناظم النص عاش قبل سنة ٧٠٧ هجرية . وناسخه يصرح انه نقله عن نسخة سقيمة . أمل ان يكون في نشره اضافة لتراث العربية المطبوع في الظاء المعجمة . والحمد لله على ما انعم انه نعم المولى ونعم النصير .

[النص]

من نظم الشيخ ابي منصور [عيسى] بن مواهب فيما يقال بالظاء المعجمة .

أيها المبتغي بيان حروفٍ
مُشكلاتٍ تجري بها الالفاظ
إنني قد نظمتُ في الضاد والظاء
قصيداً يسمو بها الحفاظ
اللظى (١) والتقريظ (٢) والظلم (٣) والظلم
ونظُّ (٤) وحنظب (٥) وشواظ (٦)
والانتظار وظلُّ (٧) يفعل والظل
وظرف (٨) والظُفرُ والإنعاظُ (٩)
وعظيم وباهظ (١٠) ظباء
وتظيف وشيظم (١١) وعكاظ (١٢)
وأظلُّ (١٣) اليعير والبيظ (١٤) والبظر (١٥)
ولعظ (١٦) تحظى به واكتياظ (١٧)
وظهير (١٨) وظالع (١٩) وظراب (٢٠)
وظليم (٢١) وظلمة (٢٢) ولحاظ (٢٣)
والشظا (٢٤) والوظيف (٢٥) والملظ (٢٦)
والظئر (٢٧) وقد واظب (٢٨) الفتى الجِنْعاظُ (٢٩)
وظليع (٣٠) وعنظب (٣١) وظلام
والظُبى (٣٢) والحظا (٣٣) معاً والفلاظُ
والبظا (٣٤) والنظير والظهر والاظفار (٣٤ مكرر) والظهر بعد والايقاظ
والتشظي (٣٥) والمنظوان (٣٦) وهاتيك الظرابين (٣٧) والظما والحفاظ
والمظنات (٣٨) والمناظرُ والـ
ظاعن والمظم بعده والشظاظُ (٣٩)
وهو الجعظ (٤٠) ثمت الجاحظ المعروف والجَعْظُ (٤١) بعد والجوّاظُ (٤٢)
ثم الجعظريُّ (٤٣) والقيظ والظُبظاب (٤٤) ثم الظنبوبُ (٤٥) والاحفاظ (٤٦)
وهو الظفر (٤٧) والظربوبي (٤٨) والظاب (٤٩) وظهران (٥٠) ذاك والارغاظ (٥١)
ووشيظ (٥٢) والوظف (٥٣) والخظُّ والمحظور (٥٤) والخنظيان (٥٥) والانكاظ (٥٦)
واتاني الشنظيُ (٥٧) يتبعه القارظ (٥٨) وهو الظريف والالظاظ (٥٩)
والشُناظي (٦٠) ثم التماظل (٦١) والظلُ وعظب (٦٢) والوكظ (٦٣) والاوشاظ (٦٤)
ثمت النظم والحظى (٦٥) مع الحنظل والحظل (٦٦) بعده ودلاظ (٦٧)
وهو الفظ (٦٨) والقظيظ (٦٩) وهذا اللافظ (٧٠) والغليظ (٧١) والايقاظ

---

* ـ رجحنا هذا التاريخ لوضوحه وسلامته من التزور في خاتمة قصيدته الضادية ولما قصيدته في الظاء فقد أُوزَ تاريخها وكتب رقما لا كتابة . خلافا للمالوف وبخط مغاير

وهــو في قلبــه[٧٣] وقــد اكلم اللهيــل
وكــرنه وظنــره وخكــاكا[٧٣]
وهـو ملظ[٧٤] ثم السـوشيكـة[٧٥] والشـاكـر والظـام[٧٦] بعـده وتكـاظ[٧٧]
وكنيظ[٧٨] وكـــاظم[٧٩] وقهـــار[٨٠]
تمت الظلف بعـــد والانســـاك
وهو الشظف[٨١] والمظفر والمظب[٨٢] وقد عظت[٨٣] الحروب وماظوا[٨٤]

واشبظـر[٨٥] الظيان[٨٦] ولامة البنظ[٨٧] وفيه شظية ولمـاظا[٨٨]
وتظـاهرت[٨٩] بـالحظيرة[٩٠] والعظلم[٩١] ثم الظلفـات[٩٢] والمفتـاظ[٩٣]
ولفظت[٩٤] الـوحيفتين[٩٥] مع النظام[٩٦]. والخظر[٩٧] بعده وكظاظا[٩٨]

تمت وهي سبعة وعشرون بيتاً نقلتها من نسخة سقيمة ، وفيها الفاظ مكررة .

هوامش النص الثاني

(١) اللظى : النار .
(٢) التقريظ : المدح .
(٣) الظلم : ماء الاسنان .
(٤) المظ : رُمّان البر او شجره وهو يُنوّر ولا يعقد وتاكله النحل فيجود عسلها عليه .
(٥) حنظب : ذكر الخنافس .
(٦) شواظ : لَهَبُ نار بلا دخان .
(٧) ظلّ يفعل : ظلَّ نهاره يفعل كذا وكذا يقال ظلّاً وظلولاً وظللت انا وظلت وظلت ، لا يقال ذلك الا في النهار .
(٨) ظرف : وعاء .
(٩) الانعاظ : قيام الذكر .
(١٠) باهظ : ثقيل .
(١١) شيظم : طويل .
(١٢) عكاظ : السوق المعروفة .
(١٣) اظلّ البعير : باطن خُفّه ، اي ما تحت منسم البعير .
(١٤) البيظ : ماء الفحل ، المنيُّ .
(١٥) والبظر : الخاتم وكل ناتٍ بظر .
(١٦) الدغظ : إيعاب الذكر كله في فرج المرأة .
(١٧) اكتياظ : تضايق .
(١٨) ظهير : معاون .
(١٩) ظالع : غامز .
(٢٠) ظراب : حجارة محددة ، الرّبوة .
(٢١) ظليم : ذكر النعام .
(٢٢) الظلة : ما استظللت به من سحاب او غيره .
(٢٣) لحاظ : جمع لحظ .
(٢٤) الشظى : عظم لاصق بالرُّكبة . والشظى : انشقاق العصب .
(٢٥) الوظيف : فوق الرسغ .
(٢٦) الدّلظ : الدفع .
(٢٧) الظئر : الداية .
(٢٨) واظب : لازم .
(٢٩) الجنعاظ : المتسخط عند الطعام .
(٣٠) فظيع : عظيم .
(٣١) عنظب : ذكر الجراد .
(٣٢) الظبى : جمع ظبة .
(٣٣) الحظا : بالفتح والكسر مع القصر بمعنى : النصيب .
(٣٤) العظا : جمع عظاية . (٣٤ مكرر) الاظفار : ضرب من العطر ، واحده ظُفر .
(٣٥) التشظي : التشقّق .
(٣٦) العُنظوان : شجر من العضاه . والعنظوان : الطويل ايضا .
(٣٧) الظرابين : دويبة .
(٣٨) المظنات : جمع مظنة وهي موضع الشيء ومالفه .
(٣٩) الشظاظ : عود .
(٤٠) الجعظ : سوء الخلق .
(٤١) الجحظ : كبر العين .
(٤٢) الجوّاظ : الاكول والغليظ خلقاً وخُلقاً .
(٤٣) الجعظري : القصر الرجلين العظيم الجسم مع قوة وشدة اكل . وقال ثعلب : هو المتكبر الجافي عن الموعظة . وقال الازهري : البخيل الكافر .
(٤٤) الظبظاب : داء يصيب الابل . والصياح والجلبة . والظبظاب : كلام الموعد بشر .
(٤٥) الظنبوب : حرف الساق .
(٤٦) الاحفاظ : مصدر احفظ .
(٤٧) الظظر : ذكر القردان .
(٤٨) الظروري : الظريف .
(٤٩) الظاب : الظرب .
(٥٠) ظهران : وسط الشيء .
(٥١) الارعاظ : موضع نصل السهم .
(٥٢) الوشيظ : الخدم والاتباع والاحلاف والسفلة ، ويقال : هم وشيظة في قومهم اي هم حشوفيهم . والوشيظة : قطعة خشب يشعب بها القدح . وهي ايضا قطعة عظم تكون زيادة في العظم الصميم .
(٥٣) الوظف : الطرد .
(٥٤) المحظور : الممنوع .
(٥٥) الجنظيان : والحنظيان (بالخاء والحاء) يقال للرجل اذا كان فحاشاً .
(٥٦) الانكاظ : العجلة .
(٥٧) الشنظير : الفاحش السيّء الخلق .
(٥٨) القارظ : الذي يجمع القرظ ويجتنيه ، والقرظ : شجر يدبغ به .
(٥٩) الالظاظ : الالحاح .
(٦٠) الشناظي : نواتىء الجبل .

(٦١) التعاظل : التلازم في السفاد من الكلاب والسباع والجراد وغير ذلك مما يتلازم في السّفاد وينشب . وتعاظلت : لزم بعضها بعضاً في السفاد .
(٦٢) غظب الطائرُ : حرّكه زمكاه بسرعة .
(٦٣) الوكظ : الدفع .
(٦٤) الاوشاظ : جمع وشيظ وهو التابع والجلف والخسيس من الناس .
(٦٥) الحظي : القمل ، واحدتها حظاة .
(٦٦) الحظْل : غيرة الرجل على المرأة ومنعه اياها من التصرف . يحظل : يُضيّق ويحجر .
(٦٧) دلاظ : دلظه : دفعه في صدره او ضربة ودلظ : مرّ فاسرع .
(٦٨) الفظ : الخشِنُ الكلام ، الغليظ . وماء الكرش يعتصر فيشرب منه عند عوز الماء في الفلوات ، وبه شُبّه الرجل الفظ الغليظ للغلظه .
(٦٩) الفظيظ : ماء المرأة او الفحل . وقال كراع : الفظيظ ماء الفحل في رحم الناقة .
(٧٠) اللافظ : البحر يلفظ الشيء اي يرمي به الى الساحل . وقيل يعنون الديك لانه يلفظ بما في فيه الى الدجاج . وكلّ مازق فراخه لافظة .
(٧١) الغليظ : المؤكد المشدد قال تعالى (واخذن منكم ميثاقاً غليظاً) . وقيل : عقد المهر . والغلظ : ضد الرقة في الطبع والفعل والمنطق والعيش .
(٧٢) وهو في غلظه : اي في ذراه وكنفه .
(٧٣) خظاظ : اخظ الرجل اذا استرخى بطنه واندال اي السمين .
(٧٤) دلظ : مرّ فاسرع ، عن السيرافي ، وكذلك الدِّلَظى الجمل السريع منه وقيل هو السمين ، وقيل : هو الغليظ الشديد .
(٧٥) مر شرحها .
(٧٦) الظأم : السَّلف . وقد ظام مني اذا تزوجت انت امرأة وتزوج هو اختها . والظام (بلا همز) الكلام والجلبة .
(٧٧) الظظظ : خشونة في الكلام . ورجل ظظ ، بين الظظاظة والظظاظ .
(٧٨) في الاصل المخطوط : وكشيظ ، والشيظ . يقال : تشيظت يدي شظية من القناة تشيظها شيظاً : دخلت فيها .
(٧٩) كاظم : الكَظْمُ : اجتراع الغيظ . قال الله تعالى (والكاظمين الغيظ) .

(٨٠) الظهار من النساء . قول الرجل لامرأته انت علي كظهر امي ، وكان الظهار في الجاهلية طلاقا . فلما جاء الاسلام نهوا عنه واوجبت الكفارة على من ظاهر من امرأته .
(٨١) الشظف : شدة العيش .
(٨٢) العظب : مرّ شرحها .
(٨٣) عظت الحروب : العظ : الشدة في الحرب .
(٨٤) ماظه مماظة ومظاظا : خاصمه وشاتمه وشاره ونازعه ولا يكون ذلك الا مقابلة منهما .
(٨٥) إسبغطر : هي مما لم اجدها في المعاجم بالظاء . لكنني وجدتها بالطاء .
واسبطر : اضطجع وامتد واسرع .
(٨٦) الظيان : ياسمين البر .
(٨٧) ما بين الاسكتين من المرأة .
(٨٨) اللمظ والتلمظ : الاخذ باللسان ما يبقى في الفم بعد الاكل . واسم ما بقي في الفم اللُّماظة .
(٨٩) تظاهر القومُ : تدابروا كانه ولى كل واحد منهم ظهره الى صاحبه
(٩٠) الحظيرة : الموضع الذي يحاط عليه لتاوي اليه الغنم والابل يقيها البرد والريح .
(٩١) العِظْلِمُ : عصارة بعض الشجر . وصبغ احمر هو الوسمة .
(٩٢) الظَّلِفات : الخشبات الاربع اللواتي يكن على جنبي البعير تصيب اطرافها السفلى الارض اذا وضعت عليها .
(٩٣) القيظ : القضب . المقتاظ : القضبان .
(٩٤) اللفظ : ان ترمي بشيء كان في فيك . والفعل : لفظ الشيء .
(٩٥) الوظيفتين : الوظيفة من كل شيء : ما يقدر له في كل يوم من رزق او طعام او علف او شراب .
(٩٦) النظام : ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره . وكل شعبة منه واصل نظام . ونظام كل امر ملاكه .
(٩٧) الكظر : الفرض الذي فيه وتر القوس . وشحم الكليتين المحيط بهما . وحرف الفرج .
(٩٨) الكظاظ : الامتلاء . والكظاظ : طول الملازمة على الشدة . والكظاظ في الحرب : الضيق عند المعركة .

ثبت المصادر والمراجع

الاصابة في تمييز الصحابة : احمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ طبعة بالاوفست عن الطبعة الاولى الصادرة في مصر سنة ١٣٢٨ هـ .
الاعتضاد : ابن مالك : حققه طه محسن وحسين تورال ـ النجف ١٩٧٢ .
الاعلام : خير الدين الزركلي ـ ط ٢ ـ القاهرة .
اكمال الاعلام بتثليث الكلام : ابن مالك ـ حققه سعد بن حمدان الغامدي ـ جدة ـ ١٩٨٤ .
الالفية المسماة « الخلاصة في النحو » ـ ابن مالك ـ حققها محمد مفيد الخيمي ـ دمشق ١٩٧٨ .
إنباه الرواة على انباه النحاة : علي بن يوسف القفطي ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠ .
البداية والنهاية : ابو الفداء الحافظ ابن كثير ـ ط ١ ـ ١٩٦٦ ـ مكتبة المعارف في بيروت ومكتبة النصر بالرياض .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ السيوطي ـ حققها محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة ١٩٦٤ .
البلغة في تاريخ ائمة اللغة : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ حققه محمد المصري ـ دمشق ١٩٧٢ .
تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي . منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت .
تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان ـ ترجمة رمضان عبد التواب ـ الجزء الخامس . دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .
تحفة المودود في المقصور والممدود ـ ابن مالك ـ بذيل كتاب « اكمال الاعلام بتثليث الكلام » تصحيح احمد بن الامين الشنقيطي ـ القاهرة ١٣٢٩ هـ .
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ـ ابن مالك ـ حققه محمد كامل بركات القاهرة ١٩٦٧ .

خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ـ عبد القادر بن عمر البغدادي ـ القاهرة .
دائرة المعارف الاسلامية ؛ هوتسما وفنسنك ورفقائهما ـ ط ١ ـ مصر ١٩٣٢ .
ديوان حميد بن ثور الهلالي ؛ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ الدار القومية للطباعة ـ القاهرة ١٩٦٥ .
ديوان الطرماح ؛ حققه عزة حسن ـ دمشق ـ مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ـ ١٩٦٨ .
ديوان عنترة ؛ حققه محمد سعيد مولوي ـ الكتب الاسلامي ـ بيروت .
ذيل مرآة الزمان ؛ موسى بن محمد اليونيني ـ الطبعة الاولى ـ دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ـ الهند ـ ١٩٦١ .
زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء ؛ ابو البركات عبد الرحمن ابن الانباري ـ حققه رمضان عبد التواب ـ بيروت ١٩٧١ .
السلوك لمعرفة دول الملوك ؛ احمد بن علي المقريزي ـ حققه محمد مصطفى زيادة ـ الجزء الاول ـ القاهرة ـ لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ ط ٢ ـ ١٩٥٦ . .
سير اعلام النبلاء ؛ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ـ الجزء الثامن عشر) : حققه شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ـ ط٣ ـ ١٩٨٦ .
شذرات الذهب في اخبار من ذهب ؛ عبد الحي العماد الحنبلي ـ المكتب التجاري ببيروت .
شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ ـ ابن مالك ـ حققه عدنان عبد الرحمن الدوري ـ بغداد ـ ١٩٧٧ م .
شرح الكافية الشافية ـ ابن مالك ـ حققه عبد المنعم احمد هريدي ـ مكة المكرمة ـ جامعة ام القرى .
شرح المقدمة الجزرية ؛ زكريا الانصاري ـ علق عليه محمد غياث الصباغ ـ جدة ـ الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن ـ ١٩٩٦ م .
شرح النظم الاوجز في وما لا يهمز ؛ ابن مالك ـ حققه علي حسين البواب ـ الرياض ١٩٨٤ .
الشعور بالعور ؛ صلاح الدين الصفدي ـ حققه عبد الرزاق حسين ـ عمان ـ الاردن ١٩٨٨ .
شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ؛ حققه طه محسن ـ بغداد ١٩٨٥ .
طبقات الشافعية الكبرى ؛ عبد الوهاب بن علي السبكي ـ تحقيق محمود الطناحي ـ وعبد الفتاح الحلو ـ الجزء الثامن ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٧٤ .
طبقات النحاة واللغويين ـ ابن قاضي شهبة ـ قسم المحمدين ـ تحقيق محسن غياض ـ النجف .
العبر في خبر من غبر ؛ الحافظ الذهبي .
الجزء الخامس بتحقيق صلاح الدين المنجد ـ الكويت ١٩٦٦ .
العفو والاعتذار ؛ محمد بن عمران العبدي المعروف بالرقام البصري ـ حققه عبد القدوس ابو صالح ـ الرياض ١٩٨١ .
غاية النهاية في طبقات القراء ـ شمس الدين محمد بن محمد ابن الجزري . علي بنشره ج . برجستراز ـ دار الكتاب اللبناني .

الفلاكة والمفلوكون ؛ شهاب الدين احمد بن علي الدلجي ـ مطبعة الاداب ـ النجف ١٣٨٥ هـ .
فوات الوفيات ؛ محمد بن شاكر الكتبي ـ حققه احسان عباس ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧٤ .
لسان العرب ؛ محمد بن مكرم بن منظور الافريقي ـ بيروت ١٩٦٨ .
مثلثات الافعال لابن مالك وزوائد البعلي ـ حققه سليمان العايد ـ المملكة العربية السعودية .
مجلة البلاغ ـ الكاظمية السنة الثالثة ـ العدد الثاني ١٩٧٠ .
مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ـ العدد ٣٣ ـ عمان ١٩٨٧ .
مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٣١ ج ٣ ـ ١٩٨٠ .
مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد ٣٠ الجزء الثاني ـ ١٩٨٦ ـ الكويت .
مجلة كلية الدراسات الاسلامية ـ بغداد ـ العدد الرابع ١٩٧٢ .
مجلة المورد ـ المجلد الخامس عشر ـ العدد الثالث ـ بغداد ـ ١٩٨٦ .
المحبر ؛ محمد بن حبيب ؛ رواية ابو سعيد السكري ـ تحقيق أيلزة ليختن شتيتر ـ المكتب التجاري ـ بيروت .
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ؛ عبد الله بن اسعد اليافعي ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠ منشورات مؤسسة الاعلمي عن طبعة حيدر أباد ١٣٣٨ هـ .

المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ـ محمد عيسى صالحية ـ الجزء الخامس ـ القاهرة ـ مطبوعات معهد المخطوطات العربية ـ
المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ؛ محمد فؤاد عبد الباقي ـ القاهرة ١٩٦٤ .
مفتاح السعادة ومصباح السيادة ؛ احمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زادة ـ حققه كامل كامل بكري وعبد الوهاب ابو النور ـ القاهرة ـ مطبعة الاستقلال .
المؤتلف والمختلف ؛ الحسن بن بشر الامدي ـ حققه عبد الستار احمد فراج ـ القاهرة ١٩٦١ .
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ؛ احمد بن محمد المقري التلمساني ـ حققه احسان عباس ـ بيروت ١٩٦٨ م .
الوافي بالوفيات ـ صلاح الدين الصفدي ـ الجزء الثالث ؛ حققه هلموت ريتر ـ فيسبادن ١٩٦١ .

*

وصف الجبل

لابن خفاجة الاندلسي ت ٥٣٣ هـ

دراسة تحليلية

د . هدى شوكت بهنام

كلية التربية ـ قسم اللغة العربية

الجامعة المستنصرية

تمهيد :

ان وصف الطبيعة من اكثر الاغراض الشعرية سعة وتنوعاً في الادب الاندلسي لجمال البلاد الاندلسية التي اخذت بالباب الشعراء فراحوا يوظفون فنهم وموهبتهم لرسم وبيان جمال هذه الطبيعة ، حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من شخصيتهم .

وابن خفاجة واحد من شعراء جعلوا الطبيعة همهم الاول وشغلهم الشاغل ، فصارت لديه مفترشاً ومتكأ لكل فنه الشعري مهما اختلفت موضوعاته وتباينت اغراضه . وقد تميز ابن خفاجة بقصيدة وصف الجبل حين جعل الجبل مشاركاً لآلامه ومعاناته واخذ العظة والاعتبار من شموخه ورسوخه .

سيرة الشاعر :

وقبل البدء بتحليل هذه القصيدة لابد من تعريف سريع بشخصية شاعرها ؛ فهو ابو اسحاق ابراهيم بن ابي الفتح بن خفاجة الاندلسي من اعيان مدينة « شقر » وهي قرية قريبة من شاطبة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلاً ، وكان عالماً بالآداب ، صدرا في البلغاء ، تقدم في النثر والنظم ، فابدع واجاد في فنون الشعر المعروفة من مدح ورثاء وتشبيب ، وكان لا يتكسب بالشعر ، ولم يتزوج قط ، وديوان شعره[1] مروي عنه ، متنافس فيه توفي سنة (٥٣٣ هـ) وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .[2]

حقائق في حياة ابن خفاجة :

هناك بعض الحقائق تساعد في فهم شخصية ابن خفاجة وتلقي الضوء على قصيدته في وصف الجبل :

اولاً : ماروواه الضبي في البغية نقلاً عن بعض اشياخه « انه كان يخرج من جزيرة شُقْر ، . وهي كانت وطنه ، في اكثر الاوقات الى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده ؛ فكان اذا صار بين جبلين نادى باعلى صوته : يا ابراهيم تموت يعني نفسه فيجيبه الصوت ، ولا يزال كذلك حتى يخرّ مغشياً عليه »[3] ، وهذا ما يؤكد خوفه من الموت ومن الاحساس بالزمن .

ثانياً : انه لم يمدح احداً في عهد ملوك الطوائف الذي نشأ فيه المعتصم بن صمادح الا قصيدة واحدة ، وانه عاش مكتفياً حتى اذا أقبل عهد المرابطين قام بمدحهم بشعر مستفيض منكراً اياهم بامره ومتشبثاً بالبارزين منهم . ومن هذا نجد في حياته مرحلتين : الاولى : عكوفه على المجون وحياة اللهو التي ابتعد فيها عن ذوي الجاه والسلطة ، والثانية : تنسكه وتوبته وفيها احس بضعفه البشري فتعلق برجال الدولة مع مروره بمدة توقف فيها عن قول الشعر ، وتتفق عودته الى النظم مع دخول الامير ابن تاشفين ، وهنا تتفتق موهبته عن قصائد كثيرة ومطولات جاء اكثرها في فترة انبعاث قريحته .

ثالثاً : ان المؤثرات الخارجية في شعره جاءت مجتمعة لديه متفرقة ومجزأة لدى غيره من الشعراء ، مع تفرده ببعض المؤثرات الاخرى ، فقد انفرد في تأثره بعبد المحسن الصوري في بناء القصيدة كلها على الجناس الناقص ، ولعله قد تأثر ببعض اشعار الصنوبري ـ وان لم يذكر ذلك ـ لكنه ذكر انه تأثر بمهيار الديلمي في الاشارات الى الاماكن النجدية والحجازية ، وادرك طريقة المتنبي في لف الغزل بالحماسة ، وهذه المؤثرات تدفع بمتلقيها الى محاولة الاستقلال والابداع .[1]

رابعاً : استقلاله للطبيعة في شعره معللاً ذلك في مقدمة ديوانه ومشيراً الى نفسه بضمير الغائب « اكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنة طائر ما هو الا لانه كان جانحاً الى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة ، واما لان الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره ، وحسبك من ماء سائح وطير صادح ، وبطاح عريضة وارض اريضة فلم يعدم هنالك ، من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرك الى القول نفسه ، حتى غلب عليه حب ذلك الامر ، فصار قوله فيه عن كلف لا تكلف ، مع انتتاح قام مقام اتساع ، فأغناه عن تبذل وانتجاع »[5] ، فانقطع الى رؤية الجمال في الطبيعة مستغنياً عن التكسب بالرزق ، فحب الطبيعة اما في جبلته او اثر من جمال الطبيعة المحيطة به . ونتيجة لصلته المتساوية بالطبيعة اصبحت لديه متكأ للموضوعات الاخرى من مديح ورثاء وغيرهما ، مع تغلغل صورتين بارزتين في شعره : صورة الفرس والبحر بين الاثنين من قوة وعنف وحيوية وتوثب[6] ، وستبرز آثار هذه القوة والتوثب خلال بعض صوره في قصيدة الجبل كوصفه بالارعن وذكر بعض صور البحار والريح وتزاحم النجوم ـ كما سنرى ذلك عند تحليل القصيدة .

خامساً : ان شعره الذي ضمه الديوان قد جمعه في آخر حياته نزولاً عند رغبة بعض اخوانه ، وقد اضفى عليه بنفسه تغييرات واصلاحات (لاستفادة معنى او لاستجادة مبنى) .

ويتبين مما سبق صلة الطبيعة عنده بالعبرة او بمشكلة الفناء التي ألحت على نفسيته وستتبين واضحة في قصيدته (موضوع الدراسة) إذ تجاوز بها كل ما قاله في شعر الطبيعة ، فوقفته إزاء الطبيعة والفناء معاً ـ كما يراها د . احسان عباس ـ تفاعلاً عاطفياً جديداً قائماً على الرؤية العميقة وعلى التشخيص معاً[7] .

قال ابن خفاجة في وصف الجبل والاستعبار منه :

بعيشكَ هل تدري أهوجُ الجنائبِ
تخبُّ برحلي ام ظهورُ النجائبِ
فما لُحتُ في أولى المشارقِ كوكباً
فاشرقتُ حتى جُبتُ اخرى المغاربِ
وحيداً تهاداني الفيافي فاجتلي
وجوه المنايا في قناع الغياهبِ
ولا جارَ الا من حُسامٍ مُصمّمٍ
ولا دار الا في قتود الركائبِ
ولا أنسَ الا ان أضاحكَ ساعةً
ثغورَ الاماني في وجوه المطالبِ
بليلٍ اذا ما قُلتُ قد بادَ فانقضى
تكشّفَ عن وَعدٍ من الظنِّ كاذبِ
سحبتُ الدياجي فيه سودَ ذوائبِ
لاعتنقَ الامالَ بيضَ ترائبِ
فمزّقتُ جيبَ الليلِ عن شخصِ اطلسٍ
تطلّعَ وضّاحَ المضاحكِ قاطبِ
رأيتُ بهِ قطعاً من الفجرِ اغبشاً
تأمّلَ عن نجمٍ توقّدَ ثاقبِ
وارعنَ طمّاحِ الذؤابةِ باذخٍ
يُطاولُ اعنانَ السماءِ بغاربِ
يَسُدُّ مهبَّ الريحِ عن كلِّ وجهةٍ
ويزحمُ ليلاً شُهبَهُ بالمناكبِ
وقورٌ على ظهرِ الفلاةِ كأنهُ
طوالَ الليالي مُطرقٌ في العواقبِ
يلوثُ عليهِ الغيمُ سودَ عمائمٍ
لها من وميضِ البرقِ حُمرُ ذوائبِ
اصختُ اليهِ وهو اخرسُ صامتٌ
فحدّثني ليلُ السُرى بالعجائبِ
وقالَ ألا كم كنتُ ملجأ فاتكٍ
وموطنَ أوّاهٍ تبتّلَ تائبِ
وكم مرّ بي من مُدلجٍ ومؤوّبٍ
وقالَ بظلّي من مطيٍّ وراكبِ
ولاطمَ من نُكبِ الرياحِ معاطفي
وزاحمَ من خُضرِ البحارِ جوانبي

فمــا كان الّا ان طوتهمِ يَدُ الـرّدى
وطــارت بهم ريحُ النـوى والنـوائبِ
فمــا خفقُ ايكي غـيرَ رجفـةِ اضلُعٍ
ولا نَـوحُ وُرقي غـيرُ صرخـةِ نـادبِ
ومــا غيْضَ السُّلـوان دمعي وانمـا
نـزفتُ دمـوعي في فـراق الاصاحبِ
فحتى متى ابقى ويظعنُ صــاحبٌ
أودِّعُ منـ ــه راحـــلاً غــير آيبِ
وحتى متى أرعى الكـواكبَ سـاهـراً
فمن طــالعٍ اخـرى الليـالي وغـاربِ
فـرُحمـاكَ يـامـولايَ دعـوةُ ضـارعٍ
يمـدُّ الى نعمـــاكَ راحـــةَ راغبِ
فـــاشفعني من وعظِـهِ كُـلُّ عِبـرَةٍ
يُتَـرجمهـا عنـــه لسـانُ التجـاربِ
فسـلّى بمـا ابكى وسرّى بمـا شجـا
وكـان على ليـل السُّرى خيرَ صـاحبِ
وقلتُ وقــد نكّبتُ عنـــه لطِيَّـةٍ
ســلامٌ فــإنّــا من مُقيمٍ وذاهبِ(٨)

تحليل القصيدة :

١ - [بعيشك هل تدري أهوج الجنائب
تخب برحلي ام ظهور النجائب]

يمكن تقسيم هذه القصيدة التي تتألف من ستة وعشرين بيتاً على ثلاثة اقسام : مسيرة الشاعر ومناجاة الليل تعبيراً عن وحدته ، وصف الجبل ومحاورته ، الاستعبار .

يَبدأ الشاعر ضمن القسم الاول - قصيدته بقَسَم (بعيشك) موجّهٍ الى مخاطب لم يحدده ليعط نصائحه في الحكمة والاستعبار لكل شخص يمكن ان يتعظ بهذه القصيدة التي تشكل خلاصة تجاربه في الحياة ، مع نوع من الاستغراب المصحوب بالمساءلة والحلف بمسألة عزيزة هي عيش الانسان وهذا نوع من الخطاب مألوف في القصائد العربية ، كما نقول بعمرك ، بحياتك ، وهنا يقول (بعيشك) ، وقد يقال وعيشك ، ويستفسر من المخاطب هل رياح الجنوب السريعة الهوجاء تعصف بجماله ام ان هذا ميلان ظهور هذه الجمال .

والشاعر هنا استخدم الخبب وهو ضرب من المشي والعدو استعاره للريح للدلالة على سرعتها . كما استخدم الجناس في الجنائب والنجائب ، والتشبيه المفرد في الجنائب ، ثم وصف الابل بانها نجيبة .

والسؤال هنا : شاعر اندلسي من القرن السادس الهجري لم يترك تقليد القصائد العربية في افتتاحها بذكر الرحلة قبل التخلص الى موضوعه الرئيس وهو الاستعبار ؟ لأن ذكر الرحلة فيه حنين وشوق وحزن وهو اقرب الى ذكر رحلة الشاعر العربي في المشرق على الرغم من ان الشاعر الاندلسي لم يعش في الصحراء ولم يشهدها . وعلى الرغم من بعده عنها نجده في موضوع يتصل بكوامن النفس وجيشانها واستلهام الاحزان يعود الى موضوع تقليدي قديم ، وقد يكون الشاعر ابن خفاجة - وهو الشاعر الاندلسي المتميز - يبحث عن النموذج الفني الذي تقاس به جودة القصائد العربية ، وهو ايراد المقدمات التقليدية في افتتاح القصائد ، اذ ظل هذا الانموذج الفني الى العصور الاندلسية المتأخرة ينظم به شعراء الاندلس وغيرهم من شعراء العربية .

٢ - [فما لُحت في اولى المشارق كوكبا
فــاشرقت حتى جبت اخـرى المغـارب]

إن الشاعر في هذا البيت تَعِب تائه في الطريق ، فيرسم صورة مبالغة - كما هي عادة الشعراء - بانه ما إن رأى اول الكواكب من ناحية المشرق واستبشر لكونه سيهتدي به في طريقه فقال [فاشرقت] حين استعار لفرحته الاشراق حتى نجده قد تاه في طريق واسعة لان هذا الكون لم يوصله الى ضالته ، بل استمر في ضياعه حتى وصل الى آخر كوكب في المغرب فما بين اول كوكب في المشرق وآخر كوكب في المغرب لم يستطع ان يجد طريقه التائهة الضائعة ، واستخدامه مفردة [لحتُ] كانت دليل فرحة التائه السريعة باول امل للخلاص ، وعبارة [حتى جبت] كانت دليل خيبة الفاشل السريعة بضياع الخلاص ، فقد اجاد الشاعر هنا في التعبير عن نفسيته القلقة الحائرة الضائعة التي تنشد الخلاص فلا تجده كما اجاد في التعبير عن حالتي الفرح السريع والحزن السريع ، مضيفاً اليهما عنصر الطباق في المشارق والمغارب .

٣ - [وحيـداً تهاداني الفيـافي فـاجتلي
وجـوه المنـايـا في قنـاع الغيـاهب]

ثم يعبر الشاعر بصراحة بانه وحيد في هذه الصحارى (الفيافي) فقال [فاجتلي] اي فيكشف عن وجوه متقنّعة بالظلمة فاستعار صفة انسانية للمنية وهي وجوه ، ليكشف عن الموت المحتم في هذه الظلمة كما استخدم المجاز والتشخيص في تهاداني الفيافي واستعار القناع للغياهب .

٤ - [ولا جـارَ الّا من حُسـامٍ مصممٍ
ولا دارَ الّا في قتـــودِ الـــركــائب]

ويعود ابن خفاجة ليؤكد وحدته في هذه الصحراء ، فلا جار له الّا حسام اخرس اصم ، ولا دار له الّا خشب الرحل ، فهو وحيد من كل ناحية ، ويستخدم لمعناه اسلوب القصر ليزيد من صورة الوحدة التي يعيشها .

٥ - [ولا أنس الا ان اضـحك سـاعة
ثغـــور الامـــاني في وجـــوه المطـــالب]

ويؤكد هذا الاسلوب في البيت التالي ليتحدث عن انيسه في زمن امانيه ، فاستعار [الثغر] ليشخص هذه الاماني ، و [الوجوه] للمطالب فكون منها تشبيه صورة ، وهنا ... استعارة التجسيد لامور معنوية غير محسوسة ، فيضاحك ... بطلبها ويجعل لها ثغوراً وللمطالب وجوهاً ، فيسقط ... الانسانية المحسوسة على امنياته غير المحسوسة .

٦ - [بطول اذا ما قلت قد باد فانقضى
تكشف عن وعد من الظن كاذب]

... امانيه هذه بانقضاء الليل الطويل وظهور الصباح ، فيبين طول ليله الذي ما ان يظن انه انقضى حتى يجده جاثماً ... فكان الليل عنده انساناً يتمنى ان يبيد وينتهي ، ويمنحه صفة انسانية اخرى هي كذب الوعد ، واي وعد ؟ إنه وعدٌ بداه في ظنه هو ولم يكن موجوداً اصلاً ليمني نفسه بقرب انتهاء الليل .

٧ - [سحبت الدياجي فيه سود ذوائب
لاعتنق الامـــــالَ بيض تـــــرائب]

ويؤكد الشاعر معاناته في وحدته التي اطالت ليله ، فيقول سحبت السواد والظلمة لاجعلهما سواد شبابي لتكون املاً لي في مشيبي وكهولتي ، فرسم بذلك صورة تضاد ؛ ففي سواد الشعر امل يغني حياته ، كما ان الشيب يشرق ويضيء بلونه فقط ، فقد أراد ان يجعل من سواد الدياجي املاً ينير له حياته في ايام الكبر ، وقد ساعدته في رسم صورته مجانسته بين (ذوائب وترائب) ومطابقته بين (سود وبيض) مكنياً بذلك عن ايام الشباب التي يكون فيها شعر الانسان اسود ، وعن ايام المشيب التي يكون فيها شعر الانسان ابيض ، كما انه جسّد الامال واعطاها صفة انسانية وقال ليعتنقها اي ليلبسها في عنقه اي ليتمسك بها فتعينه في تجربته هذه ، وذكره للذوائب اراد به ريعان الشباب لان اول ما يبيض في شعر رأس الانسان هو الذؤابة فاذا ما كانت سوداء اللون يعني ان المرء في عزّ شبابه .

٨ - [امزقت جيب الليل عن شخص اطلس
تطلّـــع وضّـــاح المضـــاحك قـــاطب]

ويقول ان هذه الامال ، وهذا السواد الذي ارتدّه املاً لي حين مزقته [وهنا استخدم الفعل مزّق] ليدل على قوة معاناته وغضبه وحزنه من وحدته وآلامه ، والذي يمزق جيبه هو من يبلغ به الغضب واليأس حدّاً كبيراً يعجز معه عن عمل اي شيء فيمزق ملابسه ليفرغ كبته ومعاناته ، فمزّق هنا الليل اي حين حاول القضاء على ظلمة حياته ظهر له ذئب يتطلع اليه مقطباً ، ومظهراً اسنانه ليس للضحك ولكن ليمزقه .

وهذه صورة جميلة يرسمها الشاعر لحزنه الذي بلغ به المدى ، فهو حين حاول القضاء على حزنه ظهر له ذئب يحاول افتراسه والايقاع به ، فالكناية هنا انه هجمت عليه الاحزان والالام تنهش به من جديد .

ولنتأمل المقابلة في [المضاحك ، قاطبٌ] فالشاعر لم يقل اسنانه المتقدمة او الثنايا ، وانما قال المضاحك ، ولماذا وصفها بالمضاحك اي التي تظهر عند الضحك ؟ وهل رآه ضاحكاً ؟ هيهات ، بل رآه حزيناً يهجم عليه وهو مقطب ، فاستعار صورة محسوسة في (مزّق جيب الليل) ليقول انه حاول التغلب على احزانه وشبه احزانه بالذئب المتطلع المقطب المظهر لاسنانه ، المتهيىء للانقضاض ، وقال [قاطب] ولم يقل مقطباً حيث اختار صيغة اسم الفاعل ليدل على قيامه بالفعل .

٩ - [رأيت به قطعاً من الفجر اغبشا
تـــأمـــل عن نجم تـــوقـــد ثـــاقـــب]

ثم يتخلص الشاعر من وصف الليل الى وصف الجبل في المحور الثاني من القصيدة فيمهد لذلك ليقول ان هذا الليل الذي ظل متأملاً به فترة طويلة بدأ يكشف عن الصباح ، فقد رأى فيه قطعاً من الفجر الذي يحتوي بقية من الليل بدليل وجود النجم الذي لم يغرب بمجيء الصباح لتوقده ، ويمكن ان نتلمس بعد يأسه بعض الامل في ليله الذي داخله ضوء الفجر وتلألأ فيه نجم ثابت متوقد ، فجسد الفجر ، واوقد النجم ، وجعل الليل يتأمل في هذا الفجر في ضوء هذا النجم لينتشل من حزن نفسه المكبوتة (الذي كنّى عنه بالليل) بعض الامل في ضوء من الفرح والاستبشار .

١٠ - [وارعنَ طمّـــاح الـذؤابـــة بـــاذخ
يطـــاول اعنـــان السمـــاء بغـــارب]

الارعن : الرعن : انف يتقدم الجبل ، والجبل الطويل ، والاهوج في منطقة والاحمق المسترخي[٩] ، طمح بصره اليه كمنع : ارتفع ، والطمّاح : الشره[١٠] .

الذؤابة : الناصية او منبتها من الرأس[١١] . الغارب : الكاهل او ما بين السنام والعنق[١٢] . ثم يبدأ بوصف الجبل (في القسم الثاني من القصيدة) ويقول (وارعنَ) بالفتح اي (وربّ ارعنٍ) واللفظة هنا مجرورة بالفتحة بدلاً من الكسرة بدليل جرّ ما بعدها ، فهذا الجبل الطويل الشره في علوه اي المرتفع جداً حتى انه لشدة علوّه وكان كاهله قد وصل الى السماء ، فجسد الجبل باعطائه صفة جسد الانسان ، واعنان السماء : نواحيها ، والباذخ : من البذخ : الكبر[١٣] ، فهو من علوه وطوله وارتفاعه ينافس اعنان

السماء في ارتفاعها وتطاولها ليصل الى هذا العلو برعونة وكأنه قد وصل في علوه هذا الى السماء .

١١ - [يسد مهب الريح عن كل وجهة
ويـزحم ليـلا شهبـه بـالمنـاكب]

المناكب : جمع منكب وهو مجتمع رأس العضد والكتف ، والموضع المرتفع عن الارض ، ثم ان هذا الجبل مرتفع جداً وكأنه ملتصق بالسماء ، يسد ويحجب الريح من كل جهة شهبه ، الشهب في الالوان : البياض الغالب على السواد وهم النجم المضيء اللامع ، والشهب : الجبل علاه الثلج ، وفي الليل تزدحم النجوم فوقه وكأنها تصطدم بمنكبه اي بأعلاه ، وهذا دليل على ارتفاعه الشديد ، وهنا يستعير المنكب وهو صفة انسانية جسدية ليستدل بها على ارتفاع الجبل ، ويأخذ الفعل (يزحم) وهو فعل زاخر بالحركة وكأن النجوم والشهب في عملية تزاحم واصطدام مع اعلى الجبل وجانبه .

١٢ - [وقـور عـلى ظهـر الفـلاة كـأنـه
طـوال الليـالي مطـرق في العـواقب]

وتحول الجبل هنا الى انسان وهذا ما اشتهر به ابن خفاجة في تجسيم وتشخيص الطبيعة ومحاكاتها وجعلها انساناً يشاركه همومه واحزانه ، فضخامة الجبل وهيبته واستقراره في مكان واحد لزمن طويل جداً جعل الشاعر يعطيه صفة الوقار ، صفة تطلق على الانسان المتزن المهيب الجانب ، فهذه الصحراء الواسعة المترامية الاطراف يقف في وسطها الجبل ثابتاً ساكناً لا يتحرك ، فهو شيخ وقور متزن متامل في الحياة ، مفكر في عواقب الامور ، يأخذ منه العبرة في جثومه واستقراره كالمفكر ، ولم يقل مفكراً بل مطرقاً لانه قد حنى رأسه للتفكير ، فهو على الرغم من ارتفاعه الخارق محني الرأس لان قمة هذا الجبل عريضة ، فيها انحناء الى جانب من الجوانب فاخذ منها صفة المطاطىء رأسه للتفكير ، مكوناً تشبيه صورة .

١٣ - [يلـوث عليه الغيم سـود عمائم
لهـا من وميض البـرق حمـر ذوائب]

ويستمر الشاعر في اعطاء صورة هذا الجبل ، فعندما تتلبد السماء بالغيوم يتكرر بياضه وصفاؤه بعمائم سود يضعها على رأسه ، وعندما يحدث البرق ، فإن ذوائب رأس هذا الشيخ (الجبل) الذي قد لبس العمامة السوداء تكون حمراء من وميض البرق ، فهنا اكتفى بصورة حسية في اعطاء مظهر هذا الشيخ عند المطر فاستخدم ما يشبه الطباق في سود - حمر ، مع استعارة صفات انسانية للجبل ليكوّن تشبيه صورة .

١٤ - [اصخت اليه وهو اخرس صامت
فحـدثني ليـل السرى بـالعجـائب]

انصت الشاعر الى الجبل على الرغم من انه جامد فشبهه بالاخرس الصامت وهو على الرغم من سكوته كان معبراً ودالّا لان مسير الشاعر في الليل جعله يتخيل حديثاً وبصوت مسموع عال مع هذا الجبل ، وكانت احاديثه مليئة بالعجائب ، فاختار الالفاظ (اصخت) ولم يقل (استمعت) او (اصغت) ، ليسمع صوتاً عالياً ، وحدثني ليدل على وجود حديث متبادل بينه وبين الليل عن هذا الجبل الصامت الوقور وما مرّ به من حوادث ، فاختار صورة متقابلة : الصمت والحديث ، فلم يكتف بتشخيص الجبل بل ساعده في ذلك الليل ، ليل السرى خاصة الذي يسير فيه الناس فجسده بالحركة والحديث .

١٥ - [وقـال ألا كم كنت ملجأ فـاتك
ومـوطن أوّاه تبتـل تـائب]

الأوّاه : الكثير الدعاء .

ويستمر ابن خفاجة في رسم الصور المتناقضة فهذا الجبل كان له ماض وذكريات ، فقد كان ملجأ للناس ، واي ناس ؟ فاختار انموذجين متناقضين : فهو ملجأ حصين للفاتك القاتل يلجأ ويتحصن في الجبل من الاعين فيأمن فيه ، وهو ايضاً موطن للزاهد الداعي ربه التائب عن ذنوبه يترك اهله وناسه ويتخذ الجبل موطناً له ويعتكف فيه ويعيش حياته ذاكراً الله داعياً إياه ومصلياً تائباً عن ذنوبه ، فاختار للفاتك كلمة (ملجأ) وللتائب (موطن) مطابقاً ومختاراً المعاني المتناقضة وراسماً تشبيه صورة .

١٦ - [وكم مـرّ بي من مُدلـجٍ ومـؤوِّب
وقـال بظـلي من مطيٍّ وراكب]

ويستمر الجبل ايضاً في الحديث عمن مرّ به من نماذج الناس المختلفة التي تدعو الى الاستعبار ، فقد مرّ به المدلج السائر في اول الليل ، والمؤوب : من الاوب ، والتأويب : الرجوع ، والسير جميع النهار او تباري الركاب في السير[١١] ، وهنا المقصود التائب الراجع الى ربه ، فقد مرّ في هذا الجبل الانسان السائر في الليل والسائر في النهار فجمع بين ضدين : الليل المظلم والنهار المضيء ، فالاول هو من عمل ذنباً ولجأ الى الجبل ليلاً ليحتمي فيه بدليل ذكره المؤوب وهو التائب الذي لا يخاف من ذنبه ويسير في النور ، اذن الاول هو المقترف ذنباً ، فحينئذ تكون الصورة انه يمرّ به المذنب والتائب ، ويستظل به المطي والراكب ليجد راحته من تعب الهاجرة ، ويرد الليل ، فيرتاح من الطريق بحرّه وبرده لذلك فالجبل مأوى لمختلف الناس ، وقد اختار الشاعر منهم المذنب والتائب ليجمع بين نقيضين جرياً على طريقته التي التزم بها من بداية القصيدة ، وهنا لم يقل [استظل] ، وانما قال [بظلي] اي انه ظل من الهاجرة للمطي والراكب فاختار تركيباً مختصراً ليكون ابلغ في التعبير .

١٧ - [ولاطم من نكب الرياح معاطفي
وزاحم من خضر البحـار جـوانبي]

ثم يتحدث الجبل عن الرياح التي كانت تتلاطم امواجها على سفوحه ، فاستعار المعاطف للسفوح وكأنها اردية ثقيلة على جوانب الجبل وهي خضراء يانعة استعارت خضرتها من سواحل البحار الخضر ، اي انه جبل ناضر زاخر بالحياة ، فجوانبه خُضْرٌ والرياح تمرُّ به ، فاختار افعالاً لها حركة وحياة لتتناسب مع الصورة الحيوية التي يريدها ، (لاطم معاطفي من نكب الرياح) ، اي ان الرياح تضرب بقوة تتلاطم ، (وزاحم جوانبي) ، فالخضرة اليانعة مزدهرة وتتسع بسرعة وتتزاحم على جوانبه .

١٨ ـ [فما كان الّا ان طوتهم يد الردى
وطـــارت بهم ريـــح النـــوى والنـــوائب]

وهنا انتقل الشاعر ـ في قسم القصيدة الثالث ـ بصورة مفاجئة من صورة مليئة زاخرة بالحياة الى صورة حزينة ، فتلك الحياة المزدهرة ماتت وانتهت ، فقد طوى الردى كل من مرّ بالجبل وريح البعاد والمصائب ابعدتهم عن طريقه ، وهنا يكمن سرّ حزن الجبل ، فبعد هذه الحياة الزاخرة ، والحركة التي كانت على سفوحه ممن يمرّ به من الناس ومن حركة الرياح ، والخضرة على سفوحه ، فتأتي الريح الناعبة ويطوي الردى ويقتل كل حياة فيه ويقول : (طارت بهم) ، يريد سرعة زوال هذه الحياة الجميلة في هذا الجبل ، فاستعار الطيران للريح كناية عن السرعة وجانس بين النوى والنوائب .

١٩ ـ [فما خفق ايكي غير رجفة أضلُع
ولا نَـــوْحُ وُرْقي غـــير صرخـــة نـــادب]

ثم يؤكد سرعة زوال هذه الحياة ، فما فعل الشجر حين وصله الموت غير رجفة رجفها ، والحمام لم يفعل اكثر من صرخة يندب فيها حظه ، فسرعة مجيء الموت لم يعطِ فرصة للحياة الموجودة على الجبل ، فقد بادرها الموت بسرعة وجرفها وقضى عليها ، ولم يكن موتاً بطيئاً ، لذلك لم تعبّر الاشجار عن خوفها إلّا برجفة والحمام غير صرخة ، وقد اختار لكل شيء فعلاً مناسباً ، فاستعار للاشجار خفق القلب للتعبير عن الخوف ، ولم يطلق كلمة (اغصان) للايك بل قال [اضلع] وجعل لها رجفة ، فهو لم يستخدم غير الصور الانسانية المحسوسة واطلقها على ما هو غير انساني ، اما الحمام فقد اختار له (النوح) وليس الهديل لانه موقف حزن وموت ، ولكن النوح تحول الى صرخة شخص يندب ويتفجع ، فهنا تشخيص قد بلغ شأوه في صور ابن خفاجة الاستعارية وتشبيهاته الصورية ، وصوره فيها توازن دائماً : خفق ـ نوح ، ايكي ـ ورقي ، رجفة ـ صرخة .

٢٠ ـ [وما غيْض السُّلوان دمعي وانما
نـــزفت دمـــوعي في فـــراق الاصـــاحب]

ويعد هذا الحزن على فقدان الحياة في هذا الجبل يرسم الشاعر صورة مبالغة جميلة ليعبر عن فقد الاحبة ، فالجبل انسان فقد احبته ، ومن شدة حزنه على فراقهم لم يتسل عن فقدهم ولم تحتبس دموعه وانما على العكس من ذلك فقد نزفت عيونه دموعها (نزفت) والنزف يكون للدم وليس للدموع ، والدموع يقال لها (ذرفت) لكنه استعار (نزف) الدم للدموع مبالغة وكناية عن كثرة الحزن على فراق الصحاب . ان الشاعر لم يقل (الصحاب) ، لان هذه اللفظة لا توافق الوزن ولا القافية المطلقة المؤسسة الموصلة بمد ، فضلاً عن ان هناك رواية اخرى للبيت هي (... فراق الصواحب جمع صاحبة) ، وكذلك لم يقل نزفت عيوني وانما نزفت فجعل النزف للدموع مباشرة ، وهي ـ كما قلت ـ صورة مبالغة جميلة للتعبير عن شدة الحزن الذي لا يسليه شيء .

٢١ ـ [فحتى متى أبقى ويظعن صاحب
أودِّع منـــه راحـــلا غـــير آيب]

ويضجر الجبل من حياته ومكوثه واستقراره ، سئم بقاءه ومسير الصحاب الراحلين غير العائدين ، لقد بلغ الحزن عنده الى حد الجزع واليأس من التوديع ورحيل الاحبة غير العائدين ، والوداع موقف حزين وهو لا يريده باستمرار فقد جزع منه وفرغ صبره ، ويستفهم الى متى يستمر في هذا الموقف ، فطابق بين المفردات التي يتمنى فيها ان ينتقل سريعاً من هذا الموقف المأساوي [ابقى ، يظعن ، اودع ، راحلا ، غير آيب] .

٢٢ ـ [وحتى متى ارعى الكواكب ساهراً
فمن طـــالع اخـــرى الليـــالي وغـــارب]

لقد سئم الجبل حتى مراقبة الكواكب : ظهورها ومغيبها ، سئم سهره وشعر بالتعب من شدة الحزن ، فهل يبقى ساهراً الى ما لانهاية ليراقب الكواكب تطلع وتغرب ، ويبين طلوعها في اواخر الليالي ليؤكد سهره في انتظارها لتغرب اخرى ، وهذه حركة تزخر بالحياة لكنه سئم منها وضجر وتعب من الحياة نفسها بعد ان كان يحبها ، فقد وصل الحزن به الى حدّ الجزع واستخدم لذلك الطباق في : طالع وغارب ، ويلاحظ على هذا البيت والبيت السابق تكرار الاستفهام المسبوق بحتى ليدل على حالة من فقد الصبر والانتظار .

٢٣ ـ [فـــرحماك يامولاي دعوة ضارع
يمـــدّ الى نعمـــاك راحـــة راغبٍ]

وهنا يصل الجبل الى نهاية ضراعته حيث يطلب الرحمة من الرب [يا مولاي] ويتضرع اليه ليمد له يده ويعطيه الراحة مما ألمّ به ، فالالفاظ المتوازنة [نعماك ـ رحماك ، دعوة ـ راحة ، ضارع ـ راغب] تنطوي على دعوة الخلاص من شدة ألمت به ، وهنا يستعير الراحة للراغب وليس لليد ليطلب الراحة والاستقرار النفسي .

٢٤ - [فـاسمعني من وعظه كـل عبرةٍ
يتـــرجمهـــا عنـــه لســـان التجـــارب]

وينتقل هنا الشاعر الى نفسه ليأخذ العبرة من صورة جبل يقف في وسط الفلاة فيجعله عبرة لمن يعتبر ، فهو يتكلم ويعظ بأن الدنيا في زوال ولا تبقى على حال ، وهذه العظة تحدث بها مع الجبل وسمعها منه ، فكيف سمعها ؟ هل تحدث الجبل ؟ يؤكد الشاعر هنا بأن الجبل - كما قال سابقاً - اخرس صامت ، وانما التجارب هي التي تترجم حاله ، فتجعله كأنه ناطق بالعظات والعبر ، فالشاعر هنا اخذ عبرة من موقف الجبل الذي ترجمته عنه التجارب التي تمر بالانسان ، فاستعار صفة انسانية (اللسان) لشيء معنوي هو التجارب ليكني به عن الكلام ، وحالة الجبل هنا تنطق وحدها .

٢٥ - [فسلّى بما ابكى وسرّى بما شجا
وكـان عـلى ليـــل السرى خـير صـــاحب]

وينهي الشاعر قصيدته بأنه تسلّى من هذه العظات حين ابكاه وكشف الهمّ عمّا احزنه وكان له خير صاحب ومعين على ليله الذي سار وسهر فيه : فقد طابق بين (سلّى - ابكى) ، (سرّى - شجى) مواصلاً استعارته الحديث مع الجبل وكأنه في صورته السردية يتحدث عن شيخ وقور .

٢٦ - [وقلت وقد نكبت عنه لطية
ســـلام فـــإنـــا من مقيم وذاهب]

ثم يودع الشاعر الجبل فيلقي عليه السلام بعد ان يبتعد عنه لنية ينويها ولقصد يقصده ويقول : انا مقيمون وذاهبون ، فهنا يختصر العبرة التي اخذها من الجبل بان الحياة فيها المقيم وفيها الذاهب لينهي صورة الطباق التي بدأ بها القصيدة ، والحكمة هنا ان الدنيا في زوال لا يبقى فيها شيء على حال واحدة ، والجبل هنا يضجر ويسأم من دوامه على حال واحدة لفترة طويلة لانه يحزنه حال فقد الاصحاب .

التقويم العام للقصيدة :

من خلال تحليل قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل يمكن استنتاج ما يأتي :

١ - القصيدة من البحر الطويل تبدأ بمقدمة تقليدية في وصف الرحلة ، ولكن لا يطول نفس الشاعر في هذه المقدمة .

٢ - استخدم الشاعر قافية الباء المكسورة المكونة من اربعة حروف ثانيها ألف التأسيس ، وقد اكثر من حرف المد (الالف) ليتنفس فيها عن ألامه واحزانه الدفينة في نفسه . وربما كان (الالف) هو الحرف المسيطر على كلماته ليمد في صوته بـ (آهة) الحزن ويجد من خلالها الراحة ، ويكرر احياناً حرفاً معيناً في بيت واحد مرات عدة لغرض ابراز ايقاع معين يساعده في التعبير عن تجربته ، مثل : فحتى متى ابقى - وحتى متى ارعى ، فقد كرر الالف المقصورة ليجد بعض الراحة في التنفيس عن نفسه ، فضلاً على اكثاره من التكرار والجناس ليحدث من تكرار حرف معين صوتاً يتناسب مع تجربته .

٣ - ان الشاعر قد وفق في اشاعة التقسيم والاتزان بين الكلمات والجمل والاشطر في بعض الاحيان فاكسبها رنة موسيقية لطيفة كما في الابيات : الثالث عشر والسابع عشر والتاسع عشر والخامس والعشرين .

٤ - في القصيدة سرد وحوار وكلام وإخبار عن حال ، وقد ابرز عنصر التشخيص حين جعل الجبل شيخاً وقوراً تؤخذ منه العبر والعظات ، ويمكن ان نعزو احساسه بالخوف من الموت ومروره ببعض حالات الضعف خلال حياته التي دعته الى الايمان بحكمة (دوام الحال من المحال) و(كل شيء الى زوال) ، فوجد من ثبات وشموخ الجبل هذا الشيخ الوقور الذي يستطيع من خلاله تقديم خلاصة تجربته في الحياة عظة واستعبار للآخرين ، فالجبل هنا هو ابن خفاجة نفسه ، الذي ابتعد عن المديح والتكسب وما يشعره بالضعف وطلب الحماية ، فصور نفسه عالياً شامخاً وثابتاً وملجأ لكل من يريد أن يجد الراحة عنده اعتزازاً بنفسه ومحاولة لإبعاد خوفه من الاحساس بالموت ، فهو بهذا يقترب بعض الشيء من فلسفة المعري التشاؤمية التي ترى ان الموت هدف البشرية ، والحكيم من يبتهل الى الله لينقذه بأسرع ما يمكن من شقاء الحياة ، ويرفض المعري ان يصيب الاخرين بما قضي عليه ان يتحمل دون غلط منه[١٥] .

٥ - استخدم الصور البلاغية واهمها الاستعارة والكناية والتشبيه مع المحسنات من طباق وجناس ، واكثر من ايراد التضاد في الفاظه وصوره خاصة حين انتقل من وصف جبل زاخر بالحياة الى رسم صورة ميتة لهذه الحياة .

٦ - القصيدة في الحكمة والاستعبار باستنطاق الجبل (وهو شيء جامد غير عاقل ، اخذ العظة من وقوفه وثباته لزمان طويل في مكان مقفر فسيح .

٧ - ان الفاظ القصيدة « لا تخلو من جزالة وقوة ، وجمعت بين الوصف الحسي والمعنوي »[١٦] .

٨ - كان ابن خفاجة « كثير النظر والتأمل في المشاهدات ، ولا سيما مناظر الطبيعة متأثراً بالمنظورات ، يحرك عقله نظره ، لتناسق الالوان سلطان عظيم عليه ، وكل معلوماته جاءته من طريق النظر الى الاشياء ، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يرى وكيف يلاحظ ، ولم يكن له الا ان يلبس هذه المنظورات عبارات

ألفاظاً بليغة فصيحة ، واذ كان بطبيعته فنياً كان اختياره للالفاظ والجمل حسناً جداً ، كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة اللازمة له ، لذلك ، كان اسلوبه جميلاً ، وعباراته سهلة ، وكان كلامه سائغاً للنفس ، بعيداً عن كل تعقيد وتركيب ركيك ، او غموض في اللفظ او المعنى ، ولا يكاد القارىء يجد تكراراً في المعاني لبراعة الشاعر في حسن اختيارها ، فكلما مرت بالنفس او السمع تجدد اثرها بتجديد الفاظها ، وتتغير آثارها بتغير تراكيبها .

ولقد يصف فيخيل اليك انك تنظر في لوحة مصور ، او كان كل معنى في كلامه « كائن حي ، يتحرك امامك »[17] ، و« لقد يفكر في شعره فيأتي بافكار جميلة وملاحظات جميلة ، ويخرج من معنى الى آخر ، وقد تكون المعاني معروفة وجديدة معاً ، لانه يبتكر ويبدع في التعبير كقوله :

وليل اذا ما قلت قد باد فانقضى
تكشف عن وعد من الظن كاذب »[18]

القصيدة في نظر الادباء والباحثين :

لقد اهتم ادباء الاندلس بابن خفاجة وتحدثوا عن قصيدته في وصف الجبل بما يؤيد ما ورد عند تحليلها ، ومنهم ابن بسام في الذخيرة ، حيث قال انه « الناظم المطبوع الذي شهد بتقديمه الجميع ، المتصرف بين حكمه وتحكمه البديع »[19] .

وقال عنه الفتح بن خاقان في القلائد : « تصرف في فنون الابداع كيف شاء ، واتبع دلوه الرشاء .. وان وصف شراه والليل يهيم ماله في وضوح ، وخد الثرى بالندى منضوح ، فناهيك من غرض انفرد بمضماره ، وتجرد لحمى نماره »[20] .

وقام الباحثون المحدثون بموازنة قصيدة ابن خفاجة مع قصائد سابقة تشبهها في الموضوع كقصيدة امرىء القيس التي استنطق فيها الجبل حين قال :

كان اباناً في أفانين ودقه　　كبير اناس في بجاد مزمل[21]

او مخاطبة مجنون ليلى لجبل التوباذ بارض بني عامر حين يسأله عن محبوبته ليلى واين رحلت عنه بعدما كانت مقيمة الى جانبه فقال :

واجهشت للتوباذ حين رأيته
وكبر للرحمن حين رآني
فاذريت دمع العين لما رأيته
ونادى باعلى صوته فدعاني
فقلت له اين الذين عهدتهم
حواليك في امن وخفض زمان
فقال مضوا واستودعوني بلادهم
ومن ذا الذي يبقى على الحدثان[22]

ورأى د . منجد مصطفى بهجت ان هناك فرقاً كبيراً بين الشاعرين في قصيدتيهما لان قول المجنون خاطرة عابرة لو توقف عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ ، ولو استوحى من جبل التوباذ شيئاً لكان له فضل اثير ، اذ توالى عشرات الادباء بعده شرقاً وغرباً دون ان يبدعوا مثلما ابدع ابن خفاجة ، وكان من الذين تاثروا به الشاعر الرصافي البلنسي (ت ٥٧٢ هـ) في رائيته المشهورة التي مطلعها :

لو جئت نار الهدى من جانب الطُورِ[23]
قَبَسْتَ ما شئتَ من علمٍ ومن نورِ

قال فيها :

حتى رَمَتْ جَبَلَ الفتحين[24] من كَثَبٍ
بساطعٍ من سناهُ غيرِ مبهورِ
لله ما جَبَلُ الفتحين من جَبَلٍ
معظَّم القدرِ في الاجبال مذكورِ
من شامخ الانفِ في سحنائه طَلَسٌ
له من الغيم جيبٌ غيرُ مزرورِ
مُعْتَبِراً بسناه عن ثرى مَلِكٍ
مُسْتَقْطَرِ الكفِّ والاكنافِ مَمْطورِ
تُمسي النجومُ على إكليل مفرقِهِ
في الجوِّ حائمةً مثلَ الدنانيرِ
وربما مسحته من ذوائبها
بكلِّ فضلٍ على فوديه مجرورِ[25]

ونلاحظ في مقطع القصيدة السابقة بوضوح تشخيص الجبل واعطائه صفة الشموخ والعطاء التي اراد بها الممدوح ، مما يوحي بتاثر الشاعر الرصافي البلنسي بقصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل .

ورأى د . متولي بدير ان الاندلسيين اقتصروا على الوصف الحسي المكثر من المحسنات دون ان تحرك في المرء عاطفة[26] . لكنه لو تامل جيداً في قصيدة ابن خفاجة لاخذ العبرة من هذا الجبل الجاثم في مكانه كما اخذ العبرة ابن خفاجة نفسه الذي جاء في شعره « نزوع خاص الى الاحساس بالطبيعة الاندلسية في مختلف وجوه سحرها وجمالها مما يكسبه نكهة اندلسية يشيع فيها نبض من اصالة وملامح من جدة في هذا الباب لا تنكر »[27] .

كلمة اخيرة :

ومن اعجاب الباحث عبد الرحمن جبير بقصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل رأى انها فن « يفسده الشرح والتفسير ، مع امانه في ان يبقى هكذا متحد الاجزاء ، متصل الاسباب ، متوازن

النغمات، كطاقة من الزهر، جمالها في ان تبقى طاقة زهر، لا ان يبحث فيها باحث، او يعبث فيها عابث »[28].

وهكذا نجد ان قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل قد استاثرت باهتمام الادباء في كل مكان لما فيها من ابداع في القول والوصف والتشخيص وللوحدة الموضوعية التي تتمتع بها ولاستنباط العبرة منها بما ينفع الانسان كل حين.

ونختم دراسة قصيدة الجبل بما قاله د. سعد اسماعيل شلبي عنها:

« لقد طور الاندلسيون معاني الرثاء والزهد والهجاء والغزل ... كما تطوروا في الحديث عن الطبيعة وتاملها كما صنع ابن خفاجة في وصف الجبل. فإن هذه القصيدة لتدل على يقظة الفكر وبعد النظر في شعورهم وجولاتهم وراء المكشوف من مظاهر الحياة »[29].

الهوامش :

(١) حقق ديوانه السيد مصطفى غازي، الاسكندرية، منشاة المعارف / ١٩٦٠.

(٢) انظر ترجمته في المصادر الاتية : قلائد العقيان للفتح بن خاقان، تح : حسين خريوش، عمان، مكتبة المنار، ١٩٨٩، ٤ / ٧٣٩ـ٧٦٦. الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام، تح : احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٨، ٣/٢/٥٤١ـ٦٥٢ وفيه اورد نصوصاً كثيرة جداً من شعره ونثره، خريدة القصر للعماد الاصفهاني، تح : عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٩، ٢/١ـ٦، بغية الملتمس للضبي، تح : ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري واللبناني ١٩٨٩، ١٨٦ـ١٨٧، المغرب لابن سعيد تح : النعمان بن المتعال القاضي، القاهرة، مطابع الاهرام، ١٩٧٣، ٨٧، نفح الطيب للمقري، تح : احسان عباس، بيروت دار صادر، ١٩٦٨، صفحات متفرقة منها : ١/٢١٠، ٦٧٧ـ٦٧٨، ٦٨١ـ٦٩١.

(٣) البغية ١/٢٦٥ـ٢٦٦.

(٤) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين لإحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١، ٢٠٤ـ٢٠٧.

(٥) ديوان ابن خفاجة ٢٩٠.

(٦) تاريخ الادب الاندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين : ٢١٢

(٧) م. ن ٢٠٨.

(٨) ديوان ابن خفاجة ٢١٥ـ٢١٧.

(٩) القاموس المحيط للفيروز آبادي باب النون فصل الراء.

(١٠) القاموس المحيط باب الحاء فصل الطاء.

(١١) م. ن باب الباء فصل الدال والذال.

(١٢) م. ن باب الباء فصل الغين.

(١٣) م. ن باب النون فصل العين، باب الخاء فصل الباء.

(١٤) القاموس المحيط (باب الجيم فصل الدال والذال وباب الباء فصل الهمزة).

(١٥) اللزوميات للمعري، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٩١٥، ١/٣١ ؛ تاريخ الادب العباسي : رينولد. ا. نيكلسن، ترجمة صفاء خلوصي، بغداد، المكتبة الاهلية ١٩٦٧، ٩٥.

(١٦) قضايا اندلسية : بدير متولي حميد، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٤، ٢٠٩.

(١٧) بلاغة العرب في الاندلس : احمد ضيف، مطبعة مصر، ١٩٢٤، ١٩٥.

(١٨) م. ن ١٩٩.

(١٩) الذخيرة ٣/٢/٥٤١.

(٢٠) قلائد العقيان ٤/٧٣٩ـ٧٤٠.

(٢١) ديوان امرىء القيس، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم، مصر، دار المعارف، ١٩٦٤، ٢٥. شبه الشاعر (ابان : جبل في فزارة) حين غشيه المطر وعمه الخصب بشيخ ضعيف في بجاد.

(٢٢) كتاب الامالي لابي علي اسماعيل بن القاسم القالي، بيروت، دار الفكر، ١/٢٠٧.

(٢٣) الطور : الجبل (القاموس المحيط، باب الراء، فصل الطاء، لان الممدوح نزل بجبل الفتح.

(٢٤) جبل الفتح ثناه وهو مفرد ومثل هذا كثير في الشعر.

(٢٥) ديوان الرصافي البلنسي، جمعه وقدم له د. احسان عباس، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٣، ٢٥، ٨٧، ٩٢ ؛ الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢ـ٨٩٧هـ : د. منجد مصطفى بهجت، الموصل، مديرية دار الكتب في جامعة الموصل، ١٩٨٨، ٢٩٨.

(٢٦) قضايا اندلسية ٢٠٩ـ٢١٠ ؛ البيئة الاندلسية واثرها في الشعر : سعد اسماعيل شلبي، مصر، دار النهضة، ١٩٧٨، ٢٨٩.

(٢٧) الشعر والبيئة في الاندلس : ميشال عاصي، بيروت، منشورات المكتب التجاري، ١٩٧٠، ٩٤.

(٢٨) ابن خفاجة الاندلسي : عبد الرحمن جبير، بيروت، دار الافاق الجديدة، ١٩٨٠، ١٠٧.

(٢٩) البيئة الاندلسية ٣٨٨.

*



« الحلقة المنسية » في تاريخ الفلسفة الاسلامية

صالح مهدي هاشم/بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

يبدو أنَّ الحلة[١] ، وإنْ كانت وارثة بابل كما أنَّ الكوفة وارثة الحيرة والبصرة وارثة الأبلة . إلا أنها لم تحتل مكانتها المرموقة في التاريخ اللاحق وبرقعتها المعروفة الآن قبل ان يستوطنها سيف الدولة صدقة بن منصور الاسدي[٢] الذي أسكن أهله وجيشه فيها سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١ م ، فتانق هو وأصحابه في أقامة القصور والمباني الفخمة وبنى المدارس والمعاهد وأنتقل اليها العلماء والادباء من بليدة النيل[٣] القريبة منها[٤] ، ومن الكوفة لا سيما من قبائل اسد[٥] بعيد إنحسار المد الفكري منها . فصارت كعبة يحج إليها العلماء من كل فن ، والتجار وسائر ارباب المهن[٦] ، بعد أنْ كانت آجمة تاوي اليها السباع[٧] ، ولما قُتل هذا الامير عام ٥٠١ هـ/ ١١٠٧ م[٨] بقيت الحلة على عادتها[٩] .

ثم تعاقب عليها الامراء حتى زحف هولاكو التتري المدمر[١٠] . الا أنَّ الفيحاء وبلطف من الله سبحانه وبحكمة بعض أهلها تمكنت من الافلات من تلك المصير المؤلم الذي لقيته عاصمة الخلافة بغداد ، فنجا اهلُها وكان في ذلك أستمرار ثقافتهم وأحتفاظهم بجزء كبير من التراث الحضاري العربي العريق بالاضافة الى أنتعاش أحوالهم الاقتصادية الذي كان له الاثر في زيادة ثقافتهم لأنَّهم كانوا (يجلبون الاطعمة الى بغداد ويبتاعون باثمانها الكتب النفيسة فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير)على ما ينقل في الحوادث الجامعة[١١] .

ولان الحلة أقرب الحواضر العامرة لبغداد حينها ، وبين علمائها وأدبائها وعلماء بغداد وأدبائها أكثر من وشيجة وصلة وتزاوج فكري معروف ، وكانت نتاجات هؤلاء العلماء والادباء مقروءة معروفة لدى الدارسين في المدينتين ، فلم تكن الحلة والحالة هذه غريبة على الوافدين إليها من أهل بغداد ممن نكبهم الغزو التتري . فكانت اليد الحنون التي كفكفت الدمع عن جفون دار الحكمة (حكمة المامون) ، ونفضت الغبار غبار الغزو عن دار العلم بين السورين في كرخ بغداد ، وأزاحت الانقاض عن باحات ومرابض الدرس في المدرستين النظامية والمستنصرية ، وردت لهفة طلاب مدرسة الشريفين الرضي والمرتضى ، وأعادت الحلية واسعة لصراع الغزالي مع الفلاسفة ثم وسعت أفكار أبي البركات البغدادي[١٢] وتبنت مدرسته البغدادية ، ومدتها بأفكار فلسفية لها نظرياتها المتفردة وقواعدها المعتبرة .

والذي يهمنا في هذه الدراسة هو تسليط الضوء على أهم تلك الجوانب لمعرفة حقائق جديدة عن تاريخ الفلسفة الاسلامية التي أعقبت ابن رشد ، وهي التي تعد من الحلقات المنسية في تاريخ تلك الحقبة ، مع أن فيها مدرسة فلسفية متميزة لها خصائصها وسماتها ورجالاتها ونتاجاتها نمت وترعرعت في بغداد وأتت أكلها في الحلة ، وشع نورها في العالمين العربيّ والاسلاميّ . والتي يحق لنا أنْ نسميها (مدرسة الحلة الفلسفية) .

والذي نجده ان من الاسباب التي ساعدت على نسيان هذه المدرسة وابتعاد الدارسين عنها ، أنَّ اياً من نتاجات روادها لم يطبع ولم ينفض الغبار عن اي من مخطوطاتها على حد ما نعرف ، الامر الذي ادى الى طمسها وطغيان المدارس الاخرى عليها .

وللتاريخ نذكر أن أوضح الاثار الفلسفية التي أنتجها خريجو هذه المدرسة هي الافكار الفلسفية التي جاء بها ابن المطهر الحلي (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م)[١٣] وتضمنتها كتبه الفلسفية والكلامية التي منها كتاب (الأسرار الخفية في العلوم العقلية)[١٤] وكتاب (القواعد والمقاصد في المنطق والطبيعي والالهي) وكتاب (المقاومات) قال عنه مؤلفه (باحثنا فيه الحكماء السابقين وهو يتم مع تمام عمرنا) ، وكتاب (مراصد التدقيق ومقاصد التحقيق في المنطق والطبيعي والالهي) ومن كتبه الفلسفية كتاب (حل المشكلات من كتاب التلويحات) وهو كما يفهم منه شرح لكتاب (شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي) (ت٥٨٧) والمعروف بكتاب (التلويحات اللوحية

والعرشية) . ومن كتاب الحليّ التي باحث فيها ابن سينا كتاب (ايضاح التلبيس في كتاب الرئيس) وكتاب (كشف الخفا من كتاب الشفا) قال عنه المؤلف أنه كتاب في الحكمة ويبدو أنه شرح لبعض المشكلات الغامضة التي جاء بها كتاب (الشفاء) لابن سينا . وكتاب آخر لابن المطهر الحليّ باحث فيه شراح كتاب الاشارات لابن سينا ايضاً ، فاورد عليهم وحاكم بينهم كما هو واضح من اسمه وهو (كتاب المحاكمات بين شراح الاشارات) ومن المعلوم أنّ ابرز شراح هذا الكتاب في ذلك الزمان هما فخر الدين الرازي ونصير الدين وأقطاب آخرون غيرهما وفي ذلك اشارة مهمة الى أستقلالية هذه المدرسة وتميزها عن سابقاتها من المدارس الفكرية ، ولم يطبع ولم ينفض الغبار عن أي من مخطوطات كتب الحلي الفلسفية إلا ما كان من مخطوطات كتاب (الاسرار الخفية في العلوم العقلية) وكانت نسخة منها بخط مؤلفها وقد أنجزنا تحقيق قسم الطبيعيات على أمل تحقيق الاقسام الاخرى منه بالاشتراك مع استاذنا الفاضل الدكتور حسام الالوسي[١٥] ، وقد تفضلت جامعة بغداد في حينه بتعضيد طبعه وتكفل المرحوم قاسم محمد الرجب بطبعه ونشره واوكل لهذه المهمة احدى دور النشر في بيروت وكان السيد رفيق وكيله المشرف على الطبع وقد طلب مني في حزيران ١٩٧٤ كتابة تعريف بالكتاب يدون على الصفحة الاخيرة من الجلد واعطيت السيد رفيقاً ما اراد وشاهدت مسودات الكتاب مطبوعة كاملة وقد تجاوزت ٤٠٠ صفحة ، ومنذ ذلك التاريخ لم أجد ما يشير الى أنّ عملية النشر قد تمت .

إن عدم طبع ونشر هذا الكتاب يعد خسارة وسبباً مهماً من أسباب نسيان هذه الفترة ألتاريخية من الفكر الأسلامي في العراق ، وبالتالي معرفة اهم ما تمتاز به مدرسة الحلة الفلسفية .

لعل أبرز خصائص كتاب (الأسرار الخفية في العلوم العقلية) : أنّ مؤلفه قد عبر فيه بدقة عن آراء المدرسة التي تخرج فيها ، وأوضح استقلالها وتميزها عما سبقها من المدارس الفلسفية ، حيث أشار في أوله إلى منهجه في البحث ، فذكر إنّه لم يتبع فيه مذهب أحد من القدماء بشكل رتيب متهافت ، ولم يعول على قول من اقوال غيره من الحكماء دون نقد وتمحيص ، بل سلك منهج مدرسته ، وهو طريق البرهان ألذي يعرج إليه ، فما دل البرهان عليه اعتمده وعول عليه ، وأخذ به .

وكان من الاسس التي أكتسبها من تلك المدرسة انه لم يرم من تقدمه ممن خالف رأيه بالتخليط ، بل كان المنهج لهذه المدرسة هو أدب البحث والفكر المتحرر المتسامح[١٦] .

قسم الحلي كتابه هذا الى اقسام ثلاثة : الاول خاص (بالعلوم المنطقية لكونها آلة في تحصيل المجهولات ــ)[١٧] ، والثاني خاص (بالعلوم الطبيعية لكونها باحثة عن المحسوسات ــ وموضوعه هو الجسم الطبيعي من حيث يلحقه التغير الذي هو أما الحركة واما السكون ــ)[١٨] . والقسم الاخير خاص بالالهيات (وهو العلم بمعرفة مبدأ الاشياء ومنتهاها ــ)[١٩] .

وقد تضمن كل قسم من اقسام الكتاب الثلاثة مقالات[٢٠] يتفاوت تعدادها من قسم الى آخر ، وقد تفرعت تلك المقالات الى مباحث فصلت فيها مفردات تلك العلوم ــ

لقد عالج المؤلف في المقالة الاولى من قسم الطبيعيات من الكتاب لواحق الاجسام الطبيعية وهو الجزء الذي لا يتجزأ ، والحركة ، والمكان ، والزمان ، والآن ، والخلاء ، وعالج في المقالة الثانية ، الامور العارضة للطبيعيات من جهة مالها كم ، وهي التتالي ، والمماس ، والالتصاق ، والاتصال ، والنهاية ، واللانهاية ، وتناهي الابعاد ، وتناهي القوى الجسمانية ، والجهات ، ودرس في المقالة الثالثة عوارض الامور الطبيعية ومناسباتها ، وهي تقاسيم الحركة ، والمناسبات الواقعة بين الحركات والازمنة ، والمسافات ، والمناسبات بين العلل المحركة والمتحركة ، والميل ، والحيز الطبيعي للاجسام ، واتصال الحركات ــ وأسهب في شرح مفهوم السماء والعالم في المقالة الرابعة من الكتاب ، حيث فصل في هذه المقالة ، قوى الاجسام البسيطة والمركبة واصنافها ، وتركيب الاجسام البسيطة وتقدم بعضها على بعض ، وفصل الكلام في الامور الفلكية الاخرى وبرهن على أنّ العالم واحد ، أما في المقالة الخامسة ، فقد فصل الكلام في بسائط العنصريات ومركباتها وفي حركتي الكون والفساد والاستحالة وفي عدد الأسطقسات وما قيل فيها ، وفي المزاج ، وفي الافعال والإنفعالات المنسوبة الى هذه العناصر ، وكذلك الكلام في الكائنات التي لا نفس لها ــ

أما في المقالة السادسة والأخيرة ، فقد سلط الضوء على تحديد النفس ووجودها وماهيتها وعلى القوى النباتية والحيوانية والانسانية .

وهكذا فعل الحليّ في قسمي كتابه الاخرين ، وفي كل من هذه الاقسام لم يتخط المؤلف في منهجه وترتيبه ، منهج الفلاسفة والحكماء ، سواء أكان ذلك في تسلسل بحثه للمواضيع الفلسفية أو في الاسلوب الذي عالج فيه تلك المواضيع .

ولكن الحليّ يجد أنّ كتابه هذا (أجود من غيره من كتب السابقين ، لاشتماله على ما لم يذكروه من التفريعات ومن تصانيف المتاخرين لاستعمالهم في تصانيفهم طرائق التشنيعات ، والقياسات المغالطات ، والجدليات ــ)[٢١] .

ومن ثنايا المناقشات التي أوردها الحليّ في كتابه المذكور نلاحظ : أنّه قد أحاط بالمواضيع التي طرقها إحاطة الرجل الخبير ، حيث استعرض جميع الاراء والادلة والنظريات التي تكاملت في عصره استعراضاً مسهباً ، فيذكر مواطن القوة والضعف في كل منها ثم يرجح ما يستحق الترجيح ، ويقارن الرأي القوي بالضعيف ليكشف عن مواطن القوة في الرأي المرجح ، ومواطن الضعف في الاخر ، ثم يفصل الرأي المختار داعماً اياه باكثر من

مثل وبليل، معنوناً الفقرات الفلسفية المهمة تحت كلمة (سر)، وقد كونت هذه الفقرات (الأسرار) بمجموعها خلاصة للأفكار الفلسفية لذلك العصر.

ان الحليّ قد قرأ بامعان ماوصل إليه من الفلاسفة اليونانيين، وعلى الخصوص أفلاطون، وأرسطو، وافلوطين، وتشعبت أفكاره واختزنت ذاكرته ماوجده عندهم، ولكنه كان أقرب الى المدرسة الإفلاطينية المحدثة منه الى غيرها من المدارس اليونانية.

كما يتوضح بجلاء ان الحليّ قد قرأ باستفاضة واستحسان أفكار المتكلمين المسلمين الاوائل مثل العلّاف والنظّام ودرس الفارابي وسبر غور أبن سينا وقارن أفكار أبن رشد، وحاول توضيح أفكار الغزالي لما يخدم الفلسفة، وتابع أبا زكريا الرازي وتحمس للحكمة الاشراقية من خلال قيامه (بحل المشكلات من كتاب التلويحات) للسهروردي القتيل ولكنه لم يكن صوفياً[٢٢] وان لحقته كراماتهم، وتفحص عن قرب كتاب المعتبر لأبي البركات البغدادي[٢٣] وغيره من فلاسفة وحكماء الزمان الذي سبقه، ولكنه لم يكن قريباً من أي فهم قدر قربه من أبن سينا، فقد أنغمس في قراءة كتبه الفلسفية، (فكشف الخفا عن كتاب الشفا) (وحاكم بين شراح الاشارات)، و (أوضح التلبيس الذي وجده في كلام الرئيس ابن سينا) فكان يمكن أن يكون كاساتذة، فلاسفة عصره الذين قيل عنهم أنهم حريصون كل الحرص على السينويه، أمينون الى منتهى الامانة على منهج أبن سينا، مخلصون كل الاخلاص لصروره الفلسفي[٢٤] ولكنه لم يكن كذلك أيضاً[٢٥] لان الوسط الروحي الذي عاش فيه، ورجالات عائلته شيوخ الفقه والحديث في الحلة، ومنصبه الديني، أضافت إليه خصوصية أفرزته عن سابقيه. لهذا كله ولان كتابات الفلسفة أصبحت اكثر وضوحاً وترتيباً في زمانه ونضجت المباحث ولانت المصطلحات وتحددت المعاني، الامر الذي مكنه من أن يطرح أفكاره بجرأة أكبر، ومعالجة طروحات عصره بروية أتم، فكان نزوعه الفلسفي بارزاً في آرائه الكلامية، وحبه وشغفه بالفلسفة طبع منهجه في علم الكلام بحيث انعكست بشكل بارز على كثير من ارائه الفقهية. وهو مايرجو ان يتصدى لتوضيحه الباحثون ....

ومن الملامح الاساسية الاخرى التي تميز بها خريجو هذه المدرسة الفلسفية ماكشفته كتب الحلي الكلامية، وهو المنهج الفلسفي في علم الكلام الاسلامي ذلك المنهج الذي مكن الصدور الفلسفي أن يتغلغل في المفاهيم الكلامية بل و يمزج بينها وبشكل تام مكوناً منهجاً جديداً، بحيث يجد المدقق لاصوله ان ليس هناك بون شاسع وتباين حاد بين علم الكلام وبين الفلسفة عموماً، بل ان الوحدة قائمة بينهما، والوشائج قوية، والتفاعل مستمر في الاصول والفروع، ومن خلال ذلك المزيج نلاحظ أيضاً ان ليس هناك فكر كلامي وآخر فلسفي، بل هي مدارس فكرية بينهما اكثر من وشيجة وصله، فلم يبلغ أحدهما الاخر كي يؤثر فيه، ولكم يلبس اي منهما لباس صنوة، ولكن مؤسسي هذا المنهج مزجوا لاول مرة في الاسلام، الفلسفة بعلم الكلام (مزجاً تاماً بحيث صارا شيئاً واحداً)[٢٦] بعد تلك الفجوة ونقاط الخلاف التي فصلها المعنيون[٢٧]. وتمثل هذا الاتجاه بشكل بارز في كتيب صغير شرحه لاول مرة[٢٨] ونشره على الناس، وفك رموزه وحل ما غمض من معانيه أبن المطهر الحليّ وذلك بعد موت مؤلفه كما يشير في مقدمة كتابه (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد)[٢٩] بعد أنْ وجد أنْ مؤلف الكتاب (قد أوجز الفاظه في الغاية، وبلغ في ايراده المعاني الى طرف طرق النهاية، حتى كل عن ادراكه المحصلون، وعجز عن فهم معانيه الطالبون)[٣٠]. ويبدو أنْ الكتاب لصغر حجمه وسعة معانيه (قد تدل الكلمة منه على مسالة وتقوم الجملة المختصرة مكان الفصل ...)[٣١] ألجأت الحلي ان يتوسع في شرحه بحيث اندمج المتن في الشرح فلا يعرف حد بينهما لكانا بمثابة تاليف جديد، ولكنه وفق تلك المنهجية التي ألزم الحليّ السير في مسالكها فكان يعد بحق باعثاً للمنهج الجديد ونعني به المنهج الفلسفي في الدراسات الكلامية موضحاً بشكل يدعو الى الاعجاب التلاحم بين الفلسفة وعلم الكلام حتى أنْ (مشاكل علم الكلام لبست ثوب الفلسفة، وتشعبت بما امتصته من جذورها. فصارت في جوهرها موضوعات تقرب في طرحها لان تكون موضوعات فلسفية بحتة)[٣٢].

وخلاصة لما اوردناه فان أبن المطهر الحليّ وهو رائد وعنوان كبير من عناوين مدرسة الحلة الفلسفية إنما عبر عن آراء تلك المدرسة التي تلت وورثت مدرستي بغداد والاندلس، وهي الحلقة المنسية في سلسلة حلقات التراث الفلسفي في المشرق العربي خاصة والاسلامي عامة، في فترة مظلمة من تاريخها .. ولا أقول أني وفيت الموضوع حقه، لما في الموضوع من امور شائكة ومسائل طغى عليها ظلام الفترة المظلمة من تاريخ العراق .. ولكنها على كل حال اشارات على الطريق ...

ان استقصاء آراء هذه المدرسة، وفرزها عما لحق بها، وقيام الباحثين والكتاب بتحديد ابعادها وتحقيق ما يمكن من مخطوطات كتابها، سيمكنهم ولا ريب من الاسترسال في الكتابة عن الفلسفة وتكوين تاريخها بصورة متكاملة ومتسلسلة من العلاف والنظام والجاحظ مفكرين والى الكندي فيلسوفاً، وانتهاء بجمال الدين الافغاني ومحمد اقبال مفكرين ..

هذا عدا كون هذه المهمة ضرورة علمية، وانجازاً فلسفياً ومستمسكاً مادياً يدحض الكثير من الاوهام التي صارت كالحقائق عند البعض من المعاصرين ...

الهوامش

١ ـ لتفصيل تاريخ الحلة يراجع : الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٨ ، ص : ٣٦٠ ، ابن جبير ، الرحلة ص١٦٨ ـ ١٦٩ ، ابن بطوطة ، الرحلة ص١٣٨ ـ ٩ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، مواضع مختلفة من ج٩ و ١٠ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ مواقع متعددة ، الحوادث الجامعة ، مواضع متعددة ، ومن المتاخرين ، تاريخ مدينة الحلة وموجزه الشيخ يوسف كركوش ، شعراء الحلة ، وطبقات فقهاء الحلة ، وغيرها مما لا يمكن حصره هنا ، ومن جميل الحكم الذي قيل في الحلة انها (مطبوعة على ثلاثة طوابع . الاول طابع العروبة المحضة لان مؤسسها من مصاص العرب الاقحاح ومن امراء العرب في تلك القرون ، بنو مزيد الاسدي ، وفيها اسد من اضخم واعظم قبائل العرب في الجاهلية والاسلام . الطابع الثاني ، طابع العلم ، الطابع الثالث / طابع الادب العالمي) انظر مقدمة كتاب البابليات .

٢ ـ ابن الاثير المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ٥١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ٢٥ .

٣ ـ (النيل بليدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، حفره الحجاج بن يوسف وسماه بنيل مصر) الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٦٠ .

٤ ـ الحموي ، ياقوت ، نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٦٠ .

٥ ـ اسد اسم لقبيلتين عظيمتين اولاهما قبيلة من مضر وابوهم اسد بن خزيمة بن مدركة ، وقد نزلت هذه القبيلة العراق وكانت ضمن جيوش سعد بن ابي وقاص عند تمصير الكوفة واليها ينتسب بنو مزيد . والقبيلة الثانية من ربيعة وابوهم اسد بن ربيعة . وعدد عمر كحالة في كتابه (معجم القبائل العربية) ، ج ١ ، ص ١ ، ص ٢١ ـ ٢٥ تسع بطون تسمى باسم اسد .

٦ ـ ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

٧ ـ الحموي ، نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٣٦٠ .

٨ ـ ابن الاثير ، ج١٠ ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٩ ، ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٩ ، ص ١٥٨ .

٩ ـ الحموي ، نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٣١٠ .

١٠ ـ انظر الكلمات المؤلمة التي يتحدث بها ابن الاثير يصف التتار في حوادث ٦١٧ ولما يدخلوا بغداد بعد فقد توفى عليه الرحمة سنة ٦٣٠هـ ، انظر الكامل ج ١١ ، ص٣٧٠ .

١١ ـ ص ٣٣١ ، ويذكر ايضاً انهم كانوا يجلبون الغل والتمر والسمك الى بغداد التي كان يلفها قحط وغلاء ، ص ٤٤٧ .

١٢ ـ وهو هبة الله علي بن ملكا و (كتابه المعتبر) مطبوع في ثلاث مجلدات حيدر اباد ، (١٣٥٧ ـ ١٣٥٨) هـ .

١٣ ـ هو الشيخ جمال الدين ابو منصور الحسن بن الشيخ ابو المظفر سديد الدين يوسف بن الشيخ شرف الدين علي ابن المطهر الحلي العراقي الاسدي المعروف بالعلامة . ولد في الحلة ١٩ رمضان ٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م وتوفي فيها (ليلة السبت ٢١ من المحرم سنة ٧٢٦هـ) ١٣٢٦م . ترجم الحلي لنفسه في كتابه الرجال ، ص ٤٥ ـ ٤٩ ، وترجم للحلي كثيرون منهم على سبيل المثال لا الحصر السخاوي وابن حجر والصفدي وقد احصاهم الزركلي في كتابه الاعلام ج ٢ ، القاهرة ١٣٤٥ م .

١٤ ـ ذكر الحلي تفاصيل كتبه الفلسفية والكلامية وغيرها من الكتب التي جاوزت السبعين كتاباً في كتابه الرجال ص٤٦ ـ ٤٩ .

١٥ ـ كان ذلك قبل ربع قرن وهو باكورة اعمالنا .

١٦ ـ اشار الى مثل هذا المنهج الحلي في كتابه (الاسرار الخفية ...) ورقة ٢ .

١٧ ـ ايضاً ورقة ١ .

١٨ ـ ايضاً ورقة ٦٨ .

١٩ ـ ايضاً ورقة ٢ .

٢٠ ـ سماها ابن سينا في الاشارات (انماط) وسماها في قسم المنطق (انهاج) ، وسماها الحلي مقالات كما مر .

٢١ ـ الاسرار الخفية في العلوم العقلية ، ورقة ١ .

٢٢ ـ فصل هذا الجانب الشيبي ، الدكتور كامل في كتابه الفكر الشيعي والنزعات الصوفية ، ١١٥ .

٢٣ ـ يذكر ابو البركات البغدادي في مقدمة كتابه المعتبر انه احتذى (في ترتيبه الاجزاء والمقالات والمسائل والمطلوبات حذو ارسطوطاليس في كتبه المنطقية والطبيعية والالهية) ج ٢ ، ص ٤ . وفي صدر الجزء الثاني من كتابه هذا قسم الطبيعيات قال انه يبحث (في المطالب التي تكلم فيها ارسطوطاليس في كتابه المعروف بالسماع الطبيعي) ، ج ٢ ، ص ٢ .

٢٤ ـ الاعسم ، دكتور عبد الامير ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

٢٥ ـ وهذا لا ينفي الاحترام الكبير الذي يوليه الحلي لشيوخه .

٢٦ ـ الشيبي ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

٢٧ ـ انظر تفاصيل ذلك ، الالوسي حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ، بغداد ، ١٩٦٧ ونشاة الفكر الكلامي ... ، الكويت ١٩٧٣ .... ، وسليمان دنيا (محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين) القاهرة (١٩٥٨) .

٢٨ ـ شرح ابن المطهر الحلي جزء المنطق من هذا الكتيب وسماه (الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد) وهو مطبوع متداول ، وشرح الجزء الاخر منه وسماه (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد) .

٢٩ ـ ابن المطهر الحلي ، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ، ص٣ .

٣٠ ـ المصدر السابق ، ص ٤ .

٣١ ـ ايضاً ص٤ .

٣٢ ـ الشيبي ، المصدر السابق ، ص٩٨ .

*

اعداد :
حسن عريبي الخالدي

أخبار التراث العربي

• صدر كتاب (أبو محمد الاموي وجهوده اللغوية) جمع وتحقيق ودراسة : محمود جاسم الدرويش ، عن دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٤١٨ - ١٩٩٨ ، في (٩٩) صفحة .

• يواصل الشيخ العلامة أحمد الجاسر نشر كتاب (الامكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأخبار والاشعار ، لابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الأسكندري المتوفى بعد عام ٥٦١هـ في مجلة / العرب (الرياض) جزء ١ ـ٢ ، سنة ٣٢ (١٤١٧ - ١٩٩٦) ٨٨ - ٩٢

جزء ٣ ـ٤ ، سنة ٣٢ (١٤١٧ - ١٩٩٧) ٢٥٠ - ٢٥٤

جزء ٥ ـ٦ ، سنة ٣٢ (١٤١٧ - ١٩٩٧) ٤١٤ - ٤١٩

جزء ٧ ـ٨ ، سنة ٣٢ (١٤١٨ - ١٩٩٧) ٥٥٠ - ٥٥٤

جزء ٩ ـ١٠ ، سنة ٣٣ (١٤١٩ - ١٩٩٨) ٧٠٢ - ٧٠٥

• من منشورات مركز الكتاب للنشر في القاهرة صدر كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ـ للكرماني محمود بن حمزة (توفي سنة ٥٠٥ هـ) بتحقيق وشرح وتعليق : السيد الجميلي . عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ ، في ٢٨٠ ص

• عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير في القاهرة صدرت الطبعة العلمية الاولى لكتاب بلاغات النساء وطرائف من كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الاسلام ـ لاحمد بن ابي طاهر طيفور البغدادي (توفي سنة ٢٨٠ هـ) حققه وعلق عليه : عبد الحميد هنداوي . عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ٣١٨ص

• صدر كتاب تاج علوم الادب وقانون كلام العرب ـ للمهدي لدين الله احمد بن باهي (توفي سنة ٨٤٠ هـ) تحقيق : محمد عبد العزيز علي مكي ، ط ـ١ ، المنصورة (مصر) ١٤١٧ - ١٩٩٧ ، في ٣٦٧ص

• من تحقيق : سكينة الشهابي صدر المجلدات ٣٥ - ٣٦ من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر علي بن الحسن المتوفى عام (٥٧١ هـ) عن مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٤١٨ - ١٩٩٧ ، في مجلد واحد عداد صفحاته ٧٩٦ ص وهو مما ينشر لاول مرة .

• من تحقيقها ايضاً نشرت وريقات من ترجمة عبد الله بن عباس (رض) لابن عساكر المؤرخ الدمشقي (ت ٥٧١ هـ) وهي قطعة من تاريخ مدينة دمشق في مجلة مجمع اللغة العربية الدمشقي الجزء الثاني من المجلد ٧٣ (١٤١٩ - ١٩٩٨) ٣٤٧ - ٣٥٦

• صدر عن دار الكتب المصرية في القاهرة كتاب التذكرة في احوال الموتى وامور الآخرة . للقرطبي محمد بن احمد (توفي عام ٦٧١ هـ) قدم له وضبط نصه وخرج احاديثه : ابو عبد الله سيد توفيق عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ٧٢٠ ص

• التراث المجهول : اطلالة على عالم المخطوطات ـ ليوسف زيدان صدرت الطبعة الثانية منه عن دار الامين للنشر والتوزيع في القاهرة عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ في ٣٨٩ ص

• بتحقيق : محمد بدوي المختون ومراجعة : د . رمضان عبد التواب صدر كتاب تصحيح الفصيح وشرحه لابن درستويه عبد الله بن جعفر (توفي عام ٣٤٧ هـ) في طبعته الاولى عن المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، وزارة الاوقاف في القاهرة عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ في ٥٩٠ ص

• التنبيهات العلية على وظائف الصلاة القلبية ـ للشهيد الثاني المتوفى عام (١٩٦٥ هـ) دراسة وتحقيق : علي جهاد الحساني صدر عن مكتبة العرفان للنشر والتوزيع في النجف الاشرف عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ١٧٧ ص

• من تحقيق ودراسة : عمار جمعي الطالبي نشر كتاب ثمرة الحكمة لابن الهيثم ابي علي الحسن البصري المتوفى عام (٤٣٠ هـ) في مجلة مجمع اللغة العربية الدمشقي الجزء الثاني المجلد الثالث والسبعون (١٤١٩ - ١٩٩٨) ٢٦١ - ٣١٠

• الجامع للخلال البغدادي ابي بكر احمد بن محمد بن هارون المتوفى عام (٣١١ هـ) تحقيق : ابراهيم بن حمد السلطان صدرت طبعته الاولى عن مكتبة المعارف في الرياض عام ١٤١٧ - ١٩٩٧

• صدر كتاب حادي الاظعان النجدية الى الديار المصرية لمحب الدين الحمدي (٩٤٩ - ١٠١٦ / ١٥٤٢ - ١٦٠٨) من تحقيق ودراسة : محمد عان البخيت ، عن جامعة مؤتة في الاردن عام ١٤١٤ - ١٩٩٣ في ٢٠٠ص

• صدر كتاب الدر المصون او المسمى بسحر العيون لابي بكر بن تقي الدين البدري من تحقيق : سيد صديق عبد الفتاح عن مؤسسة دار الشعب في القاهرة عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في مجلدين

• صدر عن المكتبة الازهرية للتراث في القاهرة كتاب دفع شبه التشبيه لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي المتوفى عام (٥٩٧ هـ) حققه وعلق عليه : محمد زاهد الكوثري عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ ، في ٨٧ص

• ديوان ابن قسيم الحموي من شعراء نور الدين زنكي جمع

ودراسة وتحقيق : سعدو محمد وعبد الجابر صدرت طبعته الاولى عن دار البشير للنشر والتوزيع في (عمان والاردن) عام ١٤١٥ - ١٩٩٥ في ١٤٩ ص.

• عن أكاديمية المملكة المغربية في الرباط صدر كتاب رحلة ابن بطوطة المعروفة باسم (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار بتحقيق : عبد الهادي التازي في خمسة اجزاء عام ١٤١٧ - ١٩٩٧

• الرعاية لحقوق الله للمحاسبي المتصوف الحارث بن اسد المتوفى سنة (٢٤٣ هـ) صدر عن دار اليقين للنشر والتوزيع في المنصورة (مصر) عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ٦٩٨ ص

• صدر كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد - لابن قيم الجوزية محمد بن ابي بكر الزرعي المتوفى سنة (٧٥١ هـ) بتحقيق : حمزة النشرتي وعبد الحفيظ فرغلي عن موسسة الاهرام في القاهرة عام ١٤١٨ - ١٩٩٨

• عن دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع في دمشق صدرت الطبعة الاولى من سير اعلام النبلاء للذهبي محمد بن احمد المتوفى عام (٧٤٨ هـ) تحقيق : محب الدين عمر بن غرامة العمروي عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ في (١٧) جزءاً

• شرح لامية العرب - للخطيب التبريزي المتوفى عام (٥٠٢ هـ) دراسة : محمود محمد العامودي نشرت في مجلة معهد المخطوطات العربية في القاهرة الجزء الاول ، المجلد الحادي والاربعون (١٤١٨ - ١٩٩٧) ١٣٥ - ١٨٤

• عن وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق صدر كتاب شعر ابن الهبارية ابي يعلي محمد بن محمد بن صالح (١٤١٤ - ٥٠٩ هـ) من جمع وتحقيق : محمد فائز سنكري طرابيشي عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ ووقع الكتاب في ٢٢٢ ص

• عن دار الفيصل الثقافية في الرياض صدر كتاب شعر مزينة في الاسلام جمع وتحقيق ، عبد المجيد الاسداوي عام ١٤١٨ - ١٩٩٨

• انجز الدكتور خلف رشيد نعمان تحقيق كتاب « الموضح » في شرح شعر أبي الطيب المتنبي ، للشيخ علي بن يحيى التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ المؤلف من خمسة اجزاء - بعد التحقيق . وسوف تقوم دار الشؤون الثقافية - مشكورة - بنشر اجزائه تباعاً .

• صخر بن عمرو السلمي - حياته وشعره - جمع وتحقيق : عباس هاني الجراح نشر في مجلة العرب في الرياض الجزء ١ - ٢ سنة ٣٣ (١٤١٨ - ١٩٩٧) ٨٥ - ٩٩

• في جملة منشورات دار ركابي للنشر في القاهرة صدر كتاب طبيب من لا طبيب له او من لا يحضره الطبيب - للرازي الطبيب محمد بن زكريا المتوفى سنة (٣٢٠ هـ) شرح وتحقيق : محمد ركابي الرشيدي عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ١٧٥ ص

• عبد الله بن ايوب التيمي (ت ٢٠٩ هـ) حياته وشعره - جمع وتحقيق ودراسة : رشدي علي حسن نشر في مجلة مجمع اللغة العربية الاردني (عمان) العدد ٥٥ ، السنة الثانية والعشرون (١٤١٨ - ١٤١٩ / ١٩٩٨) ١٦٩ - ٢١٣

• عن مطبعة مدبولي في القاهرة صدرت طبعة جديدة من عجائب الاثار في التراجم والاخبار للبحتري عبد الرحمن بن حسين (ت ١٨٢٢ م) بتحقيق : عبد العزيز جمال الدين ، عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في اربعة مجلدات .

بتحقيق : محمد احمد الدالي نشر كتاب : العجالة في تفسير لفظ الجلالة - للخجندي احمد بن محمود بن عمر (ت نحو ٧٠٠ هـ) في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق الجزء الثاني ، المجلد الثاني والسبعون (١٤١٧ - ١٩٩٧) ٢٣٧ - ٢٦٦

• عقبة بن المضرب وبنوه : اخبارهم واشعارهم - عبد الحميد محمد عبد المجيد الأسداوي نشر في مجلة العرب في الرياض الجزء ٩ - ١٠ ، السنة ٣٣ (١٤١٩ - ١٩٩٨) ٦٥٥ - ٦٧٠

• العيال لابن ابي الدنيا عبد الله بن محمد المتوفى عام (٢٨١ هـ) صدر بتحقيق وتقديم وتعليق نجم عبد الرحمن خلف عن دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع في المنصورة (مصر) عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ في ٤٦١ص

• من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية في المغرب صدر كتاب الفصوص لابي العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي المتوفى عام (٤١٧ هـ) تحقيق عبد الوهاب التازي سعود (١٤١٣ - ١٤١٦ / ١٩٩٣ - ١٩٩٦) في ١ - ٦ جزءاً واشتمل الجزء السادس على الفهارس الفنية الشاملة للكتاب .

• فضائل الاعمال للضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد المتوفى عام (٦٤٣ هـ) صدر بتحقيق : مصطفى ابو سليمان الندوي عن دار الكلمة للنشر والتوزيع في المنصورة (مصر) عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ ، في ٢٤٣ ص

• فهارس كتاب غريب الحديث - لابي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى عام (٢٢٤ هـ) اعده : اسامة محمد ابو العباس وثروت عبد السميع ، وقدم له : أعني عشرين زايد صدر عن مكتبة ومطبعة الغد في القاهرة عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ٤١٦ ص والكتاب فهرسه تحليليه لطبعة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومقابلتها بطبعة صدر أبلا في الهند

• صدر في القاهرة كتاب فهارس معجم العين للخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى عام (١٧٠ هـ) اعداد البسيوني عبد العظيم البسيوني عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ واشتمل على فهرس المواد اللغوية . ٭ وقد سبق لمجلة (المورد) إن نشرت « كشاف المواد اللغوية في معجم العين » إعداد الأستاذ عبد العزيز ابراهيم في العدد الثاني ، (ص ١٦٥ - ٢٠٠) المجلد الثامن عشر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

• من منشورات معهد المخطوطات العربية في القاهرة وطبع دار

الأمين للطباعة والنشر والتوزيع صدر كتاب الفهارس المفصلة لـ (خصائص ابن جني) صنعة : عبد الفتاح السيد سليم ، عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ ، في ٤٣٢ ص

• فهرس الشعر في النظام الغريب في اللغة . للربعي صنعة : عبد الفتاح السيد سليم . مجلة معهد المخطوطات العربية في القاهرة الجزء الاول المجلد الحادي والاربعون (١٤١٨ - ١٩٩٧) ٥٢٠٧

• من معهد المخطوطات العربية في القاهرة صدر كتاب فهرس المخطوطات المصورة من اعداد : عصام محمد الشنطي ، عام ١٤١٧ - ١٩٩٧

• قواعد الصوفية - للشدي محمد بن احمد الواسطي المتوفى سنة (٨٤٩ هـ) دراسة وتحقيق وتعليق : عادل محمد علي صدر عن مكتبة النهضة العربية في القاهرة عام ١٤١٧ - ١٩٩٧ في ٢٢٧ ص

• ما وصل الينا من شعر ابن الشبل البغدادي (ابي علي محمد بن الحسين ٤٠١ - ٤٧٣ هـ) جمعه وحققه : حلمي عبد الفتاح الكيلاني نشر في مجلة مجمع اللغة العربية الاردني في عمان العدد الرابع والخمسون السنة الثانية والعشرون (١٤١٨ - ١٩٩٨) ٥٧ - ١٥٨

• عن معهد المخطوطات العربية في القاهرة صدر المحكم والمحيط الاعظم لابن سيدة علي بن اسماعيل المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) المجلد الثامن منه بتحقيق : يحيى الخشاب وشاركه في تحقيقه وراجعه : عبد الوهاب سيد عوض الله وخليل يحيى نامي عام ١٤١٦ - ١٩٩٦ في ٤٥٥ ص وصدر المجلد التاسع منه ايضاً عن المعهد نفسه بتحقيق : مصطفى حجازي وخليل يحيى نامي عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ في ٢٣٩ ص

وصدر المجلد العاشر منه أيضاً عن المعهد نفسه بتحقيق : مصطفى حجازي ، عام ١٤١٨ - ١٩٩٧ في ٢٤٦ ص

• صدر عن مكتبة الآداب في القاهرة كتاب مختار الصحاح للرازي محمد بن ابي بكر المتوفى بعد سنة (٦٦٦ هـ) حققه وخرج احاديثه : يحيى خالد توفيق قدم له : عبد الوهاب عبد الوهاب فايد ، عام ١٤١٨ - ١٩٩٨ ، في ٣٠١ ص

• مرة بن محكان السعدي - حياته وشعره - جمع وتحقيق : عباس هاني الجراخ مجلة العرب في الرياض الجزء ٥ - ٦ السنة الثالثة والثلاثون (١٤١٨ - ١٩٩٨) ٣٠٠ - ٣١٥

• عن مكتبة التوبة في الرياض صدر كتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن - لابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (٢٢٤ هـ) بتحقيق : محمد بن صالح المديفر ، عام ١٤١٧ - ١٩٩٧

• يحيى بن نوفل اخباره واشعاره - جمع وتحقيق : عبد المجيد الاسداوي مجلة العرب الصادرة في الرياض الجزء ٣ - ٤ السنة الثانية والثلاثون (١٤١٧ - ١٩٩٧) ١٧٤ - ١٩١

• أنجز الدكتور محمد عبد المطلب البكّاء ، تحقيق ودراسة « مافات كتاب سيبويه من أبنية كلام العرب » وهو أحد الابواب التي ضمها كتاب شرح سيبويه لابي سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ الذي يعد من أجل شروح الكتاب بشهادة معاصريه

• أنهى د . محمد عبد المطلب البكّاء بالاشتراك مع د . هادي نهر تحقيق ودراسة مخطوطة : « مختصر شرح أمثلة سيبويه » لابي منصور موهوب الجواليقي المتوفي ٤٦٥ هـ ، عن نسخة فريدة مصورة في معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٣٢) نحو ، وعدد أوراقها (٦٠) ورقة نقلها عن خط المؤلف أحد تلاميذه . وهذه النسخة مصورة على (ميكروفيلم) عن نسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة رقم (٥٥) نحو .. والمخطوطة هي مختصر لشرح أمثلة كتاب سيبويه لابي الفتح محمد بن عيسى بن عثمان العطار النحوي الذي أخذ عن أبي سعيد السيرافي ، كما ذكر السيوطي في البغية ١ / ٢٠٦ .

لمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاة الفيلسوف العربي الكبير إبن رشد ، أصدر مركز دراسات الوحدة العربية سلسلة باسم « سلسلة التراث الفلسفي العربي / مؤلفات إبن رشد » ، يشرف عليها الدكتور محمد عابد الجابري .

• ضمن هذه السلسلة صدر كتاب : « إبن رشد : سيرة وفكر - دراسة ونصوص » مؤلف الكتاب هو الدكتور الجابري نفسه ، وقد قصد منه التعريف بالرشدية فكراً وسلوكاً لتكون حافزاً للمثقفين الشباب : « بغية استيعاب التراث وتمثل الفكر المعاصر والتشبع بالروح النقدية والفضيلة العلمية والخلقية . » الكتاب يتألف من ٣٤٣ صفحة .

• ضمن السلسلة نفسها صدر كتاب « الضروري في السياسة . مختصر كتاب السياسة لافلاطون » نقل الكتاب الى العربية الدكتور أحمد شحلان ، وقدم له الدكتور محمد عابد الجابري بمدخل ومقدمة تحليلة وشروح . يقع الكتاب في (٣٠٤) صفحات ، واتسم الكتاب بأنه « يشبه المختصر من وجهة الكتاب حذف التطويل ، والمخترع من جهة التتميم والتكميل » ، وقد كشف وجهاً جديداً من أوجه عقلانية إبن رشد وأفقه الاصلاحي ، وما انفصل به عن افلاطون ليقرر إمكانية ايجاد المدينة الفاضلة على هذه الارض بما يتلاءم مع الحضارة العربية الإسلامية والواقع الأندلسي بصفة خاصة .

• من تحرير د . سلمى الخضراء الجيوسي أصدر مركز دراسات الوحدة العربية كتاباً تحت عنوان « الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس » صدر الكتاب بجزئين ، تناول الأول منهما : « التاريخ السياسي ، والاقليات ، والمدن الأندلسية ، واللغة والشعر والأدب ، والموسيقى » . أما الجزء الثاني فقد عني بـ« الفن ، والعمارة ، والتاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الاقتصادي والفلسفة ، والدراسات الدينية ، والعلم والتكنولوجيا والزراعة . »

*

المحتوى

□ البحوث والدراسات

□ ملف المرأة

□ نصوص محققة